بيت طاهر

الكتاب: بيت طاهر
المؤلف: مصطفى حنيجل
تصميم الغلاف: عبير محمد
تدقيق لغوي: مصطفي جوهر
إخراج فني: حسن عصام
رقم الإيداع: ٢٠١٨/٢٣٤١٩
ردمك: 978-977-6549-69-2
الطبعة الأولى: ٢٠١٨

المدير العام: شريف الليثي

دار تويا للنشر والتوزيع

(+2) 01202222098
dartoya2015@gmail.com
دار تويا للنشر والتوزيع dar.toya
@Dar Toya
@Dar_Toya
٣٥ شارع النصر..
المعادي الجديدة نوفمبر ٢٠١٨

بيت طاهر

مصطفى حنيجل

توبا
دار تويا للنشر والتوزيع

إهداء إلى...

قطعة الجمال في الكون

السماء التي لا تنطفئ أبدًا... أمي.

هي.. أصيلة كسبيكة ذهب، وهُن رقائق قصدير..
متى لامسته النار؛ ذهبَ!

#لها

الفصل الأول

يفنى البشر، ويبقى الحجر.. يبقى شاهدا على كل دبَّة لأقدام الراحلين، من عاشوا عليه وعايشهم..

يبقى كدفتر يحتوى على بصمات بشر ما إن نطقوا؛ كذبوا، ولو نطق؛ لانفجر صِدقًا تمزِّق شظاياه وجه كل مدنَّس!

تزيَّنت الساحة الفسيحة للحوش بأحجار سوداء معشَّقة مع مثيلات لها بُنِّية اللون، كأم تحتضن توائمها الرضع، لم تمسسها يد الزمن بسوء؛ فبقيت على حالها منذ لحظة بنائها، لتظل شاهدة على ما حدث بكل تفاصيله.

حبستْ ما رأت في جوفها ولم تنطق، ارتضت أن تظل مجرد أحجار بائسة تزين حُوش هذا المنزل، الذي يقف الآن في صمت مهيب، بوابته الحديدية مغلقة بإهمال كأن آخِر من خرج من هنا لم يعد يكترث لأمر شيء في الدنيا.

وقف المنزل المكوَّن من ثلاث طوابق منكَّسَ الهامة، أُغلِقت نوافذه، وتساقطت عليها ظلال كئيبةٌ، فبدت كهالات سوداء تحت عيون بكت حتى نفدت دموعها، تآكلت الطبقة الأسمنتية المكسوة بها حوائط الحوش، وأزالت الأيام لون الطلاء الذي كان في السابق يسُر الناظرين قبل أن تطاله خربشات البشر القاسية، فبدا

كلوحة فقدت الجمال والروح معا!

تداولت ألسنة الناس سيرة كل طوبة في هذا المنزل لفترة طويلة، كأنه فتاة سيئة السمعة، استباحوا الخوض في عِرضها بلا رقيب، وبطبيعة الحال لا يلوك اللسان نفس الطعام كل يوم، فلما شبعت الألسنة من سيرته؛ تلوَّت كالأفاعي بحثا عن أعراض جديدة تخوض فيها، وبقى المنزل وحيدا، لا بشر يسكنه، ولا أحد يتذكره، حتى المنازل المجاورة بدت بعيدة عنه بأميال، كأنها اتخذت لأنفسها جانبا؛ ليبقى هو وحيدا منبوذا.

لم يكسر صمت الموت بداخله سوى تلك الفتاة التي ظهرت من العدم، لم يتخطَّ عمرها سبع سنوات، شعرها بني قصير، ووجهها أبيض مستدير، كأنها إله مصغَّر للجمال، تخطَّت البوابة الحديدية الصدئةَ بثبات؛ فأحدثت صريرًا مزعجًا، خطت ببطء حتى وصلت إلى منتصف الحوش، وهي تنظر حولها بآلية؛ لترى آثار دماء لاتزال تلطخ أحجار الأرضية، التي ابتلعت السائل الأحمر، وبدَّلتْ به لونًا بُنيًّا مقيتًا.

هزَّت الفتاة رأسها بأسَى، وتراجعت بخطوات ثابتة، وفي عينَيها نظرة تشي بأنها تعرف تماما إلى أين تذهب...

****

طبقات من هواميش سوداء تراكمت، علي بعضها البعض، فوق عينَيه؛ فحجبت الرؤية، لم يستطع نزعها،

أو حتى زحزحتها عن موضعها، ولو سنتيمترات قليلة، كأنها ملايين من خيوط متشابكة لعنكبوت أُحكِم نصْبُ فخاخه هنا، خيوط دقيقة على قدر ضعفها لم تَمكِّنْه قوَّتُه من إزالتها، أدرك استحالة ذلك عندما حرَّك ذراعَيه بقوة، فسخرت منه قيوده الحديدية، التي قبضت على رسغَيه ببرود، تود لو تنطق لتخبره كم هو بائس.. أحمق.. ووحيد أيضا!

أثارت غضبته سخرية قيوده منه، فبدا كمن فقد عقله، حرَّك أطرافه بعشوائية مفرطة، حتى سالت خيوط الدم من رسغيه؛ ليدرك في النهاية مدى قوة قيوده التي تقابلها حقيقة ضعفه.

فرضت قوات الألم سيطرتها على أنحاء جسده، الذي ضربته موجات من الهزال، لم تُعِنْه ساقَاه على الصمود، تحامل عليهما فأبتا حمْلَه، يشعر بأنه يقف وسط بِركة من اللزوجة، لا يدري كنهها، كأن جسده ينتصب على ساقَين منزوعتَي القَدَم، لا يدري.. هل فقدها بالفعل؟ أم فقد الشعور بوجودها متأثرا بالشيء الغريب الذي يكسو أرضية المكان.

طرق بقوة أبواب ذاكرته؛ فأحكمت إغلاق أبوابها، تحسس أقفالها الصدئة؛ فتيقَّن من استحالة فتحها، وقف على بعد خطوات قليلة يتأملها، علَّه يجد أحد الثقوب التي تسرِّب له بعضًا مما يجهله؛ فصدَّه الطلاء الأسود الذي تلوَّنت به ذاكرته، لتبدو معتمة كليل غير مقمِر!

آلاف الأسئلة طرقت رأسه بمطرقة من فولاذ، من هو؟ ماهذا المكان؟ ما الذي جاء به إلى هنا؟، وما نهاية كل هذا!...

نهشته مخالب الأسئلة، وعبثت بلحم عقله، أراد مراوغتها ليهرب من براثنها؛ فأحاطت به، وأحكمت قبضتها؛ ليسقط في النهاية صريعا كفأر يصارع عشرة كلاب.

تعالى نباحها فأخرسها جميعا، عندما حدَّث نفسه داخليا بأنه لاشك في عداد الأموات، وأنه الآن في قبره، يرى ما كان يجهله في دنيا الأحياء.. (غريب أمرك يا حياة الدنيا، يخبروننا أن الروح تنقطع عن أجسادنا في الموت.. والحقيقة أن روحي لازالت تدب في جسدي.. أشعر بها.. وبأنفاسي أيضا!)

هكذا تحدَّث إلى نفسه وقد استقر أخيرا أنه في قبره، يواجه مصيره، ليخرجه من بلورة أفكاره الساذجة صوت اقترب منه ببطء، تسارعت أنفاسه وجاهد ليبتلع ريقه فاصطدم بجفاف حلقه، التصق جسده بالحائط، مذعورا.. كأنه يريد الاختباء بداخله.

توقفتْ خطوات الزائر الغريب بالقرب منه، يفصله عنه خطوات قليلة، استشعر بإحساسه أن هذا الغريبَ أقصرُ منه، لايكاد يصل طوله لأكثر من متر وبضع سنتيمترات، عرَف ذلك من الأنفاس الدافئة التي لفحت جذعه، توقف الزائر أمامه لدقائق وابتعد فجأة، ليعود وفي يده مقعد

صغير، وضعه أمامه مباشرة، وارتقاه ليصبح في مواجهته تماما، مد يده وأزال خيوط العنكبوت التي تشابكت حول عينَيه ورأسه، ليسترد القدرة على الرؤية تدريجيا...

* *

اخترقت عينَيه سهامٌ حارقة، غير مرئية، كادت تفقأها بعد ثوان من إزالة الطبقات العنكبوتية، التي أدرك أنها كانت درعَ حماية لم يدرك قيمته إلا بعد فقدانه، عاود المحاولة؛ فرأى موجاتٍ ضبابيةً تغمر المكان، بعدما تلوَّنت ذرات الهواء باللونِ الرمادي البغيض...

مرت دقائق، حاول خلالها عشرات المرات، استكشاف العالم المحيط به، انجلى الضباب تدريجيا كأنما جاءَهُ أمر بالانسحاب، فنفَّذ الأمرَ بخضوع ليراها أمامه.. فتاة بالكاد عمرها سبع سنوات، انسدل شعرها البُني القصير ليصل حتى كتفَيها، بيضاء كقلب ثمرة جوز الهند، مليحة الوجه، باكية!

حاول النطق ليسألها من هي.. وأين هما الآن.. والأهم من ذلك.. من هو!.. لم يطِعْه لسانه، الذي جفَّ تماما على النطق، فشرع يتأمل المكان، وبجانبه وقفت الطفلة ترمقه، وثالثهما الصمت.

غرفة مستطيلة، حاول تمييز لون حوائطها ففشل، تراكم على سطحها طبقاتٌ من العفن، تدلَّى من سقفها أسلاك

عارية منزوعة المصابيح، تلفَّتَ يمينا ويسارا؛ ليعرف مصدر الإضاءة الصفراء المهتزَّة الكئيبة، التي توزَّعت في المكان؛ ففشل تماما، كأنها نبتت من العدم، تذكَّر لزُوجة الأرض؛ فأرسل بصره ليرى خليطًا من رَوَث الحيوانات، مختلطًا بسائل زيتي ثقيل يغطي الأرضية بالكامل.

اقتربت الفتاةُ؛ فنطق بصوت متحشرج:

- أنا مين؟

هزت رأسها بأسًى، وعيناها تغرورقان بالدموع، استشعر رغبة عارمة في البكاء، لكن عينَيه رفضتا هذا الأمر، كأن منابع الدموع قد جفَّت بداخله فسألها بجَزَع:

- أنا حي ولا ميت؟.. قولي أي حاجة...!

عبست ملامحها، ورفعت كفَّيها الصغيرَين؛ لتضُمَّ أذنَيها عن كلماته، لم تتوقف دموعها عن الهطول، وهى تجاهد لترتقي أعلى المقعد مرة أخرى.. وقفت في مواجهته، وهمَّت بنطق شيء ما، لكنها تراجعت...

استحثَّها لتتحدث؛ فقرَّبت رأسَها من رأسه، تريد أن تخترقها؛ لتقشِّر طبقة النسيان من حولها، اقتربت، وبأظافرها نبشت في ذاكرته؛ ليستوعب ما ستنطق به، فارتفعت مؤشرات الألم في كل أنحاء جسده عندما همست في أذنه بشيء ما!

جحظت عيناه في ذهول، فعادت الطفلة إلى صمتها، كأن كلماتِها الشحيحةَ، التي همست له بها، اختلطتْ بملح

الذكرى، الذي طال القَيْح المنتشِر في ذاكرته، أعطته فرصته كاملةً ليأخذ نصيبه من الألم، وأعادت نبْشَ غلاف النسيان بأظافرها الحادة، عندما اقتربت، وهمست في أذنه بكلمات أخرى؛ حرَّرتْ صرخة خرجت من حلْقِه مختلطة بالدماء.

هبطت لتقف أمامه، لم تهتم بلزُوجة الأرض، أو بالطبقة القذرة التي غاصت بها أقدامها الصغيرة، وشرعت في تحرير أطرافه من القيود المثبَّتة في الحائط، لتسحبه بصمت إلى ما يجهل...

****

استيقظ "جمال" متأخِّرا نصف ساعة عن موعد عمله، نهض متأرجحا بين النوم واليقظة، دوار غادِر اعتراه بفعل ضغط الدم المنخفض؛ فأسقط جسده بإرادته على السرير، قبل أن يسقط رغما عنه، شعرت به زوجته النائمةُ بجواره؛ فأوْلَتْه ظهرَها، أسند رأسه إلى ذراعها المُمَدَّدة على الوسادة؛ فسحبتها بحِدَّة، هزَّ رأسه بقوة ليمنع محاولاتِ النعاسِ المستميتةَ من السيطرة عليه، وهو يلمس كتفَيها بأطرافَ أصابعه قائلا:

- جهِّزيلي الهدوم يا عفاف.. اتأخَّرت على الشغل.

دون أن تلتفت إليه ردَّت بجفاف:

- الهدوم عندك في الدولاب، لبِّس نفسك!
تصنع روح الدعابة:
- يللا بقى يافوفي عشان أجيب لك حاجة حلوة.
تأفَّفت مما سمعتْ، كأنه يحدِّث طفلة ساذجة، وسحبت جسدها إلى جانب السرير، لتنهض بتكاسُل، نظرت له نظرة ذات معنى؛ فتهرَّب منها كأنه يريد الإفلات مما خلف هذه النظرات التي يدركها جيدا.

جمال

تخطَّى منتصف الثلاثين بعام واحد، منعزل بطبيعته عمن حوله، كجزيرة تحُدُّها المياه من كل الجهات، أكسبتْه طبيعة عمله الروتيني في مصلحة المساحة القدرةَ على تنظيم حياته بشكل ثابت متكرر، فلا يختلف اليوم عن أمس، ولا أمس عما قبله، يعاني من اهتزاز غير ملحوظ في ثقته بنفسه، يحاول مداراة هذا الجانب في شخصيته عمَّن لا يعرفونه، لكنه يتجلَّى كالشمس في أعين المقرَّبين منه؛ فيبدو مهتزًّا كبندول مذبذَب.

تزوَّج من "عفاف" منذ أربعة سنوات، رآها لأول مرة في منزل أحد الأصدقاء، كانت في زيارة شقيقة صديقه، تشابكت النظرات، وتهامست القلوب، فتعانقت الأرواح، سحرها لونُ عينيه الخضراوَين وجسده الممشوق، والأهم أنها عرفت عنه أنه يمتلك شقة خاصة في منزل والده،

فكيف لها أن تسمح له بالإفلات، أو تترك له المجال ليرى من الإناث غيرها، توغلت داخل روحه فأحكمت السيطرة، ليصبح بين يديها قطعة لينة من عجين تشكِّلها كيفما تشاء.

استطاع الصديق المشترك ترتيب مقابلة، شَعَرَا خلالها بارتياح متبادَل، لتتم الخطبة خلال نفس الشهر، امتدت الخطبة لعام ونصف، استطاعت "عفاف" الغوص في أعماقه، وسَبْر أغواره، قلَّبته على كل الجوانب، فتمكَّنت من قراءة الظاهر والباطن، ليتم الزواج بعد عشرات الخلافات التي كانت تنتهي دائما لصالحها.

مرَّت السنة الأولى من زواجهم مطعَّمة بالعسل، ارتشفا خلالها من كؤوس السعادة واللذة ما يشبع قرية بأكملها، حتى حلَّت السنة الثانية، وفي جعبتها خبَّأت الكثير من الألم والحيرة و.. الفتور...

- مفيش حاجة في السكة؟

هذا السؤال المعتاد بسماجة ناطقيه أصبح كابوسًا يطارد الزوجين في الصحو قبل النوم، مَرَّ عام، وتلاه آخَر فآخَر، ولا جنين يتحرَّك في أحشاء "عفاف"!..

- أكيد فيه مشكلة في حد مننا...

نطقت بها "عفاف" يوم ما، بعدما فاض الكيل بها، حاول "جمال" تسكين ألمها بلسانه المعسول، وكلماته المطمئنة، فطارت كلماته مع الريح دون أن تترك أثرًا

لديها، سحبته خلفها في العيادات الطبية؛ لإجراء التحاليل التي انتهت بجملة تكررت على ألسنة عشرة أطباء:

- حضرتك كويس والمدام زي الفل.. مفيش أى موانع للحمل.

حفظا هذه الجملةَ الخالية من المنطق، حروف متراصة تبني كلماتٍ لا توصِّل إلى نتائج مُرضية، ما معنى ألَّا موانع للحمل، وبالرغم من ذلك لا يحدث مطْلقا، أما لهذا الرحم أن يضم نطفة لتصبح عَلَقَة، ثم مضغة، فعظاما يكتسي بلحم!

عششت طيور الحزن في شقة "جمال"، الذي انحسر شعره عن مقدمة رأسه في الأشهر الأخيرة، فلم يسلم من ألسنة زملاء العمل، يتندَّرون عليه وعلى هيئته التي تحوَّلت بعد الزواج، يسمعها منهم يوميا، ويقابلها بابتسامة لا تشي بشيء، هو نفسه لا يدرك ما حلَّ به، هناك شيء غير طبيعي يحدث، ولم يستطع تفسيره، فكيف له - وهو الذي اعتاد العيش على وتيرة ثابتة متكررة - أن يستوعب هذه التقلُّبات الكارثية بين ليلة وضحاها!

تكرَّرت شكوى "عفاف" من رؤية بعض الأشياء الغريبة في الشقة، فمرَّة تصرخ لرؤية جيوش من العقارب السوداء تزحف على حائط المطبخ، يهرول فيجدها ترتجف في موضعها متصلِّبة الجسد تهذي، يحاول تهدئتها فتفرط في ثورتها، عندما يخبرها أن ماتراه مجرد أوهام!

تكرَّرت شكواها، فتارة تخبره أنها رأت ثعبانًا ينظر لها بعينَيه الصفراوَين ويختفي، وتارة أخرى تصدمه باختفاء أشياء تخصه أو تخصها من الشقة، تكرَّرت الشكاوى، وتعمَّقت بينهم الهوَّة عند الحدَث الأخير الذي ضرب استقرارهم في مقتل و..

- الهدوم مكوية ومتعلقة برَّة يا جمال.

قالتها بصوت خافت كأنها تتحسس الكلمات، فأومأ وقال بلطف:

- تسلمي لى يا قلبى.

ابتسمت بمرارة :

- يللا عشان متتأخَّرش على شغلك.

تصنَّع النشاطَ، وانتصب بجسده الرشيق خارجا من الغرفة، متوجِّها إلى الحمام، الذي يشغل الركن القصيَّ من الشقة الواسعة، تتكون من أربعة غرف، اثنان للنوم وواحدة للضيوف، وأخرى جانبية صغيرة لخزين الثوم والبصل والبقوليات، يتوسَّطها صالة استقبال واسعة، مصمَّمة على الطراز المعماري القديم، والمطبخ الذي ينتهي إلى باب خشبي صغير، يؤدِّي إلى سلَّم حلزوني خشبي، يوصل إلى الشارع، الشرفات الخشبية مشغولة بالقطع النحاسية اللامعة، أصرَّ والد "جمال" على إبقائها كما هي، دون إدخال أي من عناصر الحداثة المعمارية عليها، والتي بلا شك ستشوِّه جمالها الثري

شرد للحظات، عندما انفرد بنفسه أمام مرآة الحمام، التي شغَلت أكثر من نصف الحائط فوق الحوض الأبيض الصغير الجانبي، تأمَّل ملامحه متذكِّرًا ما حدث في الليالى الماضية بأسًى، تعامدت نظراته للمرآة على عينَيه لجزء من الثانية، فعاود الهروب منها، وخرج لتستقبله "عفاف" بمنشفة صغيرة ألقتها على كتفه:

- مليون مرة قلت لك تاخد الفوطة وإنت داخل الحمام؛ عشان ما تغرَّقش الأرضية وإنت خارج!

ابتسم وقال:

- باقصُد ما اخُدهاش عشان تلحقيني بيها يا عمري.

لم ترد على دعابته السخيفة، وتركته في غرفة النوم؛ ليكمل ارتداء ملابسه، وقالت وهي تتجه إلى الحمام:

- وطبعا سايب بواقي الصابون ومعجون الحلاقة، لما أروح أمسح وَرَاك!

قذفتْ الكلماتِ كطوفان من الحصى في وجهه وخرجت متأفِّفة، لوَّح بيدَيه وأسرع في ارتداء قميصه؛ لينهي هذا الصباح الباردَ مردِّدا لحن أغنية رقيقة، بترها صراخ "عفاف" المفاجئ، فهرول خارجا إلى الحمام، دنا منها محاولا رفعها عن الأرض، بعدما انزلقت على الأرضية المبتلَّة بالماء وبقايا الصابون.

يدرك جيدا أن هذا الصباحَ لن يمُرَّ مرورَ الكرام، حملها إلى غرفة النوم، وأسكنها برفق في السرير، حاول لمْس قدمها

المصابة؛ فصرخت في وجهه أن يتوقَّف، تعرَّق وجهه حرجا منها، لأنه المتسبِّب في ما حدث لها، كم من مرَّة حذَّرتْه من ترْك بقايا الصابون على الأرض بعد إتمام حلاقة ذقنه، لا يغيّر من طباعه مطلْقا، يتغذَّى على الإهمال، كما تقول عنه دائمًا!

اقترب، وطبع قُبلة حانية على وجنتها، وشرَع في تدليك قدمها برفق، فلم تمانع هذه المرة، تناسى ميعاد عمله، وألقى جسده بجانبها؛ فسألته:

- مش هتروح شغلك!

أجاب مغلِّفا حديثه بابتسامة:

- النهاردة إجازة ٤٨ يناير.

ضحكت؛ فقال:

- إيه رأيك نعمل هابي مول جديد.. هابي موت.. هما بيقولوها إزاي؟

لوَت شفتَيها:

- هاني مون ياسي جمال!

سمعها؛ فاقترب منها هامسا:

- طب يللا بقى عشان نعمل عريس وعروسة.

نهضت بتثاقل، وتأبَّطت ذراعه، فانحرف بجسده فجأة؛ ليقف أمامها مثبِّتا عينَيه على عينَيها، اللتين هربتا من النظر إليه قبل أن يغيبا في قُبلة، قطعتها هي، وقالت

بتوتُّر:

- أنا خايفة أدخل الحمام لوحدي.

ضحك وقال:

- عِزّ الطلب.

ضحكت، وانطوت بجسدها الضئيل في صدره، احتواها بذراعيه؛ فتنهَّدت، وتمسَّحت به كقطة تشحذ الأمان من صاحبها، صحبها إلى الحمام؛ ليَحضَرا معًا فقرة استحمام دافئة، اكتسبت دفئها من جسديهما المتلاصقين، ثم عادا إلى غرفة النوم، فتوقفت "عفاف" فجأة، وقالت بتردُّد:

- حبيبي، هغيب عنك دقيقة واحدة بس.

استفسر عما ستفعله؛ فأجابت بدلال:

- دقيقة بس يا بيبي.

قالتها وتسلَّلت من بين يديه، فاضْطَجع على السرير في انتظارها، خرجت وغابت نصف دقيقة، ثم عادت، وعلى وجهها ارتسمت ابتسامة واسعة، سألها عما كانت تفعل؛ فأجابته بقُبلة ساخنة أذابت أعصابه:

- مش وقت أسئلة بقى.

قالتها وتابعت قُبلاتها على عنقه ومقدمات صدره، تعلَمُ جيدا أن هذه القُبلات تذيبه، نظر في عينيها بعمق؛ فباحت العين بما لم ينطق به اللسان، همس في أذنها؛ فأغمضت عينيها واستسلمت، لمست بأطراف أصابعها عنقه،

فبادلها اللمسة بأضعاف أضعافها، مرت دقيقة وأخرى، وأخرى، وعشرة، وعشرون.. تسارعت الأنفاس، ملأ صدره بالهواء وطرده في زفرات حارة مرات ومرات، وقطرات العرَق تتساقط كالمطر الخائب على أرض جرداء لا تنبت، تململت "عفاف"، وانزلقت من بين يديه، لتنهض بعصبية:

- هو فيه إيه!

من بين لهاثه أجاب بشرود:

- مش عارف!

قالها وصدره يعلو ويهبط بعنف، تكاثر عدد الفئران التي تقافزت في رأسه، تنهشها بلا هوادة، خبطات عشوائية شَعَرَ بها في كل ذرَّات جسده، أغمض عينيه محاولا مقاومة الدوار الذي أصابه؛ فأولته ظَهْرَها وقالت بحِدَّة:

- أنا تعبت يا جمال...

سمعها ولم يرُد، فهو لم يعهد نفسه هكذا من قبل، لم ينقطع سيل الرغبة عنه هكذا منذ بداية زواجه إلا في الفترة الأخيرة، نعم.. في الأسابيع الأخيرة لاحظ تراجُع الرغبة في جسده، وانعكس هذا على علاقته مع زوجته التي حاولت بشتَّى الطُرُق إيقاظَ كل ما هو كامن؛ فلم تجد إجابة، ولم يصلا إلى أي شيء، تكرَّرت المحاولات، وتكرَّر معها الفشل، حتى أصابهما فتور لم يكن لهما عهد به.

أغمض عينيه؛ فعاجلته بالقاضية:

- إنت تعرف عليَّ واحدة؟

التفت ليواجهها وقال بحدة:

- إنتِ هتخرَّفي يا عفاف؟

بحِدة مضاعفة أجابت:

- ما هو بصراحة عايزة أفهم، بقالك فترة مفيش خالص، كأن مبقاش لك رغبة فيَّ، لو ما بقِتش بتحبِّني؛ طلَّقني.

ارتجف لذِكْر كلمة طلاق على لسانها، وتعرَّق جسده، استنشق بعمق ليُحكِم السيطرة على انفعاله، وقال بصوت خافت:

- والله ما انا عارف، ولا بقيت فاهم حاجة، جايز ده ضغط عصبي أو توتُّر.

لوَّحت بيديها:

- ضغط عصبي وتوتر! فجأة كدة؟ ويستمر كل ده!

وصلت حرارة رأسه إلى الغليان، ودَبَّ فيها الصداع بأقدامه دبيبًا عنيفًا؛ فصرخ في وجهها:

- أمَّال هيكون إيه يا عفاف؟ قصدك إيه؟

أطرَقت برأسها للأرض:

- مش عارفة!

قالتها؛ ونظرا لبضعهما البعض، وقع نظره على مفرق صدرها البض، شعرت للحظة أنه غريب عنها؛ فاختبئت بجسدها في الملاءة الخفيفة المفروشة فوق السرير،

كأنها لا تريده أن يراها، لا تريد نظراتِه لجسدها، الذي لم يعد يستطيع فكَّ شفراته.

تراسلت عقولهم برسائل غير منطوقة، استشعر جمال رغبتها في الاختباء من نظراته، فأولاها ظهره، ومد يده ليحضر علبة سجائره، التي فضَّ بكارتها بعنف، والتقط منها سيجارة، أشعلها في صمت، وشرَع في تدخينها؛ علَّه يقرأ في دخانها المتطاير شيئًا يخبره بالحقيقة.. حقيقة ما يحدث!

في صمت انسحبَت، ونهضت ترتدي قميصها، لتذهب إلى الحمام، خرجت من الغرفة، وخَطَتْ خطواتٍ بسيطةً، ليوقفها شيء ما وسط الصالة في ذهول تام.

مرَّت ثانية.. وأخرى.. وأخرى.. حاولت الصراخ، فوقف صوتها في حَلْقها، جاهدت مرَّات ومرَّات، ليخرج صراخها مهزوزًا، كمن مسَّها تيار كهرباء، صرخت كما لم تصرخ من قبل، كأنها ترى أمامها الجحيم ذاته!

استفاق "جمال" فجأة من شروده على صوتها المشروخ؛ فخرج من الغرفة مهرولا، عاريا كما هو، لم يستر جسده، هرول ليرى ما جعل كل ذرَّات جسده تتصلَّب تماما، وبجانبه "عفاف"، التي سقطت مغشيا عليها.

* *

على طاولة الغُسل تسطَّح الجسد، ارتخَت الأعصاب، وانبسطت العضلات، كل شيء الآن يسيطر عليه السكون الأبدي، فلا لسان ينطق، ولا أُذُن تسمع، ولا عين ترى.. اتخذ كل شيء وضْع الثبات، عدا دمعة وحيدة، توقَّفت على عتبة عينه، لفظتها مجاري الدموع، كانت الأخيرة والمتمِّمة لسيل جارف، لم يتوقف عَقِب سماعه لكارثة لم يصدِّقها قلبه، تمنَّى أن تكون كذبا، فخذله التمنِّي، كارثة ضربت عودَه الضربةَ الأخيرة؛ فلم يقوَ على النهوض بعدها، توقَّف السيل، وترك آخِر دمعة على الحافة، لم تكد تسقط حتى سبقتها الروح، وصعدت إلى بارئها؛ لترى ما لها وما عليها.

لا أحد يدري صحة هذا القول.. أن روح المتوفَّى تحلِّق فوق جسده بعد الموت، تتأمل الجسد الذي كانت تسكن، تتفقده وتبكيه، تخبره بالحقائق التي غابت عنه أيام معاشه، وانكشف سترها بعد الممات.. لا أحد حقا يدري، كل شيء يدور الآن، منتهى العبث، الرجال يطوفون حول الجسد المسجَّى، أحدهم يمسك باللوفة الخشنة، يغمرها بالماء المختلط بالصابون، ويدعك بها الجسد، الذي استسلم للأيادي؛ تقلِّبه كيف تشاء، أغلب الظن أنه الآن يعتقد أنهم يحاولون إزالة الذنوب السابحة في بدنه!

في صمت مهيب، وقف الرجل بعدما انتهى من الغُسل، يتعامل مع مرافقيه ومساعديه بالإشارة، لا حاجة للحديث.. صمْت الموت يطغى الآن على كل شيء، أشار

الرجل إلى مساعده؛ فحمل إليه الرداء الأبيض الأخير للجسد المسجَّى أمامهم، النظرات مثبَّتة ككاميرات تسجل اللحظة، كلٌّ يسجل المشهد الذي سينتهي إليه ذات يوم يعلمه المولى.. مِن خلفهم وقف "راضي" كتمثال مِن قَش، نظراته خاوية، وروحه كأنما صُنعت من بخار، يهرب بنظراته من عينَي أبيه المُغلَقتين للأبد، يشعر بأنهما سهمان خامدان، لو تحررا؛ سيخترقا أعماقه.

انتهى الرجل من تكفين الجسد وتطييبه، ومن خلفه شرع أحدهم في تجهيز ورقة صغيرة مكتوب عليها بالحبر الأسود (جنازة المغفور له بإذن الله الحاج "طاهر عبد الباسط القرشي" وشهرته "طاهر السوهاجي" بعد صلاة العصر من مسجد الاستقامة.

ثلاث رجال أشداء، رابعهم "راضي" حملوا الجثمان، ومن خلفهم سارت جموع الناس؛ يشيِّعون "طاهرًا" إلى مثواه الأخير، عشرات الرجال زحفوا كالجراد، تبعهم بعض النسوة، تقدَّمهن اثنتان، إحداهما ثلاثينية، والأخرى تخطت الأربعين بعام، افترشتا الأرض باكيتَين عدة مرات، تكاد أعينهما تسقط من فرط نزف الدموع، رفعهما النسوة عن الأرض حتى وصلن إلى المقابر لإنهاء مراسم دفن والِدِهن.. الحاج "طاهر السوهاجي".

طاهر السوهاجي...

زحف "طاهر" من باطن الصعيد، أحكم لثامه جيدا، عازما على مواصلة حياته في أبعد نقطة عن مسقط رأسه سوهاج، هربا من ثأر كان لأخيه، ثم انتقل إليه بحُكم العادات العقيمة في صعيد مصر آنذاك!

لفَظَه القطار في القاهرة؛ فجلس على أقرب رصيف للمحطة، دافنا رأسه بين كفَّيه.. لا يدري أين يذهب، ومن أين يبدأ حياته الجديدةَ، التي يجهل ملامحها، لم يرُقْه أن ينالَ الضعف منه، انتصب بجسده الذي يقطر عافية، متحسِّسا الحزام المربوط بإحكام تحت طيات ملابسه، والذي يخفي بداخله عشرين قطعة ذهبية ثقيلة الوزن، هي كل ما استطاع جمْعَهُ في غفلة من أهله، هاربا من حكمهم المجحِف، تلفَّت حوله، فوجد الكل يسير في طريقه، لا أحد يلتفت لأحد، قاسية هي المدينة.. حُرم أهلُها من دفء القلوب، قادته قدماه إلى إحدى الميادين الرابضة في بطن العاصمة، أطل برأسه؛ فرأى عشرات العُمال يجلسون على الرصيف، يرتدون الجلابيب، بعضهم يتوسَّد جانبًا من الرصيف في نوم عميق، والبعض الآخَر يجلس القرفصاء محتضِنا بضع قطع حديدية صغيرة، مربوطة ببقايا مهترئة من الخيش، يستخدمونها في أعمال المعمار، اضطرب لمرأى هؤلاء الرجال؛ فآثر المُضِيَّ بعيدا.

استوقفه أحدهم:

- بتدور على حاجة يا ابو عمو؟

بثبات أجاب:

- والله يا ابو عمو جايين ناكلو عيش.. ربك يرزق.

تأمله الرجل وعبث بشاربه، فهيئته البسيطة تشي بأنه لايملك قوت يومه مثلهم، جحوظ عينَيه، وشحوب وجهه فضحا أمر الجوع الشديد الذي ضربه بقوة، جذبه من ذراعه بعشم من يقتسمون العيش في أرض غريبة، ناوله كوبًا من الشاي، وقطعة جبن دهسها بإصبعه في قطعة الخبز المبسوطة أمامه، قبل أن يدسها في كفه ويسأله:

- تشتغل معانا في الفاعِل؟

راقته الفكرة تماما، وقال وهو يهرس الطعام:

- أشْتِغِل.

تقافز قلبه في سعادة، وسار بصُحبة الرجل، الذي أجلسه وسط جماعة من العمال، ينتظر الرزق بصحبتهم، دعوه للطعام مرة أخرى؛ فاعتذر بلُطف، يدرك جيدا كم يكمن الكرم في قلوب البسطاء متشققي الأيدي.

تشارَك معهم مسكنهم المتواضعَ في إحدى ضواحي القاهرة، اقتسم معهم كل شيء عدا سِرَّه، دفنه في أعماقه، وأهال عليه أكوام التراب.

كحركة الموج أصبحت حياته، يتحرك معهم ولا يبرحهم

لحظة، كنقطة مياه ألقت نفسها في تيار جارف يحركها كيفما شاء، ينام ليلا ليبدأ يومه مع شروق الشمس، يصحبونه فيجلسون في جماعات على رصيف الميدان الواسع، ليأتي من يقصدهم في هَدْم أو ترميم أحد المباني.

لم يقنع "طاهر" بعمله، وأراد أن يصل إلى مرتبة أعلى؛ فتقرَّب إلى أصحاب المقاولات، والتقط الخيوط سريعا، ليصبح مقاول مبانٍ خلال سنوات قليلة، مشتهِرا باسم "طاهر السوهاجي".

ذاعت شهرته في أوساط المقاولين، واستطاع الحصول على مناقصات ضخمة، بعدما باع القِطع الذهبيةَ، التي ظَل سنوات متكتما أمرها، دافنا إياها في الحزام العريض حول خصره، وحررها من الأسر في النهاية.

تضخمت ثروة السوهاجي، الذي اقترب من منتصف الأربعين، وتذكَّر أنه لم يتزوَّج حتى الآن، غامت الدنيا في وجهه عندما تخيَّل للحظات انقطاع سيرته ونسله بعد وفاته؛ فقرر الزواج سريعا من ابنة أحد المقاولين، وقرر ألا يتم الزواج إلا في منزل يتحاكى به أهل القاهرة أجمعين.

خصَّص مبلغًا ضخمًا اقترب من نصف ثروته التي جمعها لبناء المنزل، فالشرفات الخشبية المطعَّمة بالقِطع النحاسية اللامعة، والأرض مكسوة بقطع معشقة من أحجار سوداء وأخرى بُنِّية، في تقاسيمَ هندسيةٍ بديعة.

اكتمل بناء ثلاثة طوابق من الإبداع المعماري على مساحة مائتي متر، فوقف "طاهر" يوم زفافه محدِّثا والد العروس بفخر:

- عروستنا هتسكن في قصر من الجنة يا آبَا.

ربت الرجل على كتفه:

- راجل من يومك يا طاهر.. ربنا يوفقك.

ابتسم وحمل عروسه في زهو، وقوة شاب في منتصف العشرينات، ليصل بها إلى عش الزوجية، الذي أثثه بأغلى وأفخر قطع الأثاث في ذلك الوقت، وكان قد خصص غرفة، حرص على تجهيز كل محتواياتها بنفسه، وأعدَّها لتكون مفاجأة للعروس، التي طالما حدَّثها عنها، فتاقت لرؤيتها، وها هي الآن سترى وتشهد بنفسها على حُسن صنيعه.

أدخلها الغرفة الفسيحة؛ فوقفت تغلِّفها رقائق الحيرة، التي أزالها عنها عندما قال:

- دي أوضة وليّ العهد إن شاء الله.

قالها وأردف:

- ولدي يا روحية.. ولدي اللي هيشيل اسمي بأمر الله.

أومأت في صمت، فتلذَّذ بخجلها، وشرع يعرض عليها ما تحتويه الغرفة في فرح طفولي، عشرات من الجلابيب صغيرة، ليرتديها طفله في طفولته، وعصا صغيرة مطعَّمة بالأصداف، وشال صعيدي باهظ الثمن ليصبح وجيهًا كما

يريد أن يراه.

تبسَّمت "روحية" في خجل؛ زادها فتنة؛ فسلبت عقل "طاهر"، الذي جذبها برفق إلى غرفة النوم، ليقضيا أول يوم في أيام العسل، التي غرس خلالها بذوره متوسِّلا إلى الله أن تثمر سريعا بما يبغي، وبعد ثلاثة أشهر نزلت قطرة من أول الغيث، عندما شعرت بمقدمات الحمل، فأخبرته بدلال:

- عايزة اروح للحكيم يا سي طاهر.

تهلل وجهه فرحا، واقترب من بطنها يسترق السمع لصوت بذرته بداخلها، فربتت على رأسه بحنو، قبَّلها عشرات القُبلات وقال:

- نجيبولك حُكَمَا مصر كلها لحد عندك.

طلب منها أن تستريحَ تماما، غاب ساعتين، ليعود وبصُحبته خمسة أطباء، أصر أن يحضروا معًا لتوقيع الكشف علي زوجته، وبالفعل أقر جمْعُ الأطباء بوجود نقطة نور في هذا الرحم؛ فتساقطت دموعه بعدما فشل جاهدا في إخفائها أمامهم.

مرت شهور الحمل على "طاهر" كأنها عقود طويلة، يعد الأيام.. يودُّ لو تحدُث معجزة تدفع بصخرة الوقت، لتنقضي أشهر الحمل سريعا، حتى أذِن الله بسطوع شمس جديدة، كتب في شهادة ميلادها اسم الأب "طاهر عبد الباسط القرشي" واسم الأم "روحية فوزي العبد".

* *

وقف "جمال" في منتصف صالة الاستقبال، يحاول استيعاب ما يرى، مسحت عيناه المكان في فزع سيطر عليه تماما، لازال يقف عاريا، تتلاعب به رعشة نبعت من أعماقه، حتى طغت على سطح جسده، وقف في مواجهة جثة قط ضخم، منتفخ البطن كأنه معبأ بالهواء، تداخل مع سواده الفاحم لونٌ لم يستطع تمييزه، اقترب بحذر ليكتشف أن هناك أجزاء في جسده عارية من الفراء!

بذهول جالت عيناه ليرى بقع الدم الطازج التي ابتلعتها السجادة؛ فارتجف، توقفت إشارات المخ للحظات عن إعطاء الأمر للأعضاء بالعمل، فبدا كتمثال لا يمكنه التحرك خطوة، تكالبت الأفكار على عقله، تخبره بأن هذا القط تعرَّض لحالة وحشية من التعذيب، ففقد أجزاء من طبقات الجلد، والأهم من ذلك أن رأسه مفصولة تماما عن جسده.

مر وقت لا يدري هل هي ساعات كاملة أم مجرد لحظات قصيرة، وهو على نفس الحالة التي طغت عليه فأخضعته لها، جال ببصره ما بين القط الأسود مفصول الرأس، الذي لا يعرف من أين جاء، وبين زوجته، التي غابت في إغماءة طويلة، لا يدري حقا ماذا يفعل الآن!

استفاق من غيبوبة عقله بصعوبة، فنظر إلى نفسه، ليكتشف أنه عارٍ كما ولدته أمه، انسحب إلى الغرفة، ليرتدي ما يسترٍ جسده، تحرَّك بهستيريا متفحصا كل

نوافذ الشقة وأبواب الغُرف والحمام والمطبخ وغرفة الخزين، فلم يجد منفذًا واحدًا يمكن لهذا القط أن يدخل منه، وإن وجد.. فكيف لقط مفصول الرأس، وقد تعرَّض لهذا التعذيب، أن يصل إلى منتصف الشقة!

تعرَّق جسده بغزارة، وهو يطوف كل شِبر في الشقة بلا عقل، كأنه يبحث عن اللاشيء، حتى وصل به الإنهاك إلى درجة الغليان، ليتوقَّف فجأة أمام الحمام، سال خيط من العرق بمحاذاة عموده الفقري.. وصل إلى نصفه السفلي كثعبان يتحرك بخبث، توقف فجأة، وخلع قميصه بعنف، فتمزق ذراعه الذي جذبه بعنف مضاعف، وقف محاولا تمالُك أعصابه، لا يدرك كيف لبعض العرق أن يثير غضبته هكذا.. كأن عقله يريد الهروب بأي طريقة من التفكير في المصيبة الكبرى التي هبطت عليه!

تناهَى إليه صوت في الصالة، فهرول يبحث عن مصدره، ليرى "عفاف"، التي استفاقت من إغماءتها، وجلست منزوية في أحد الأركان ترتجف في بكاء مكتوم، ضامة يدَيها إلى صدرها في رُعب حقيقي، دنا منها، وجلس بجوارها لينطق لسانها بآلية:

- هو إيه اللي بيحصل ده!

اختلجت ملامحها، تريد الصراخ.. النشيج.. اقتلاعَ لسانها من قوة الصراخ.. لكنها فقدت القدرة على أيٍّ من هذا، ليفاجئها "جمال"، الذي ربت على كتفها متظاهرا بالهدوء:

- فيه إيه يا بنتي، ده قط عادي دخل من شباك أوضة الخزين، والظاهر كان متخانق مع مراته ولا حاجة فهرب هنا!

وزَّعت نظراتها بين "جمال" والقط منزوع الرأس في عدم تصديق، وقالت:

- أنا باقفِل شبَّاك أوضة الخزين دايما.

غاص في أعماق عقله؛ ليخترع كذبة أخرى ورَدَّ بهدوء:

- أنا فتحته عشان البصل ما يعفِّنش، ونسيت أقولِّك.

هزَّت رأسها في عدم تصديق، فتحامل على نفسه، ونهض بهدوء؛ ليحضر جوالا من الخيش الملقى في غرفة الخزين، وخرج إلى الصالة ليقترب من القط، ضربته ارتجافه غادرة وهو يمسك بالجاروف البلاستيكي، ليحمل رأس القط النائمة بجوار الجسد بحذر، وألقى بها بداخل الجوال، اقترب من جسد القط، الذي خُيِّلَ إليه أنه سيصحو من موته لينقَضَّ عليه في غفلة، وينشب أظافره في لحمه، مقتلعا عنقه، فألقى بالجاروف، والتفت إلى "عفاف":

- ماتيجي تساعديني يا بنتي نشيل النيلة دي من هنا!

قالها محاولا إضفاء نبرة الجمود على صوته؛ فغلبت عليه هزَّة، تخلل صداها أعماق "عفاف"، التي وقفت مبتعدة تتابع ما يفعله، استدار ليكمل مهمَّته؛ فوقعت عيناه على الأجزاء العارية من جسد القط، فطِن أن هذا القطَّ تعرَّض لتعذيب يفوق احتمال أيِّ كائن حي، تعذيب

وحشي بشكل يَدَوي دون استخدام أي سلاح، فالعنق بدَت كأنها مكسورة بقبضة يد إنسان منزوع القلب.. حتى موضع الرأس بدا كخريطة متعرجة من الكسور.

تكالبت الأفكار والاحتمالات على عقله، وانتهت جميعها إلى الفشل في استخلاص أي احتمال، ربما يوصله إلى الحقيقة، فحمل القط بصعوبة، وأدخله في الجوال، الذي ربط أعلاه جيدا، والتفت إلى "عفاف" قائلا بسخرية مفتعَلة:

- أنا هانزل أفسَّح الضيف التقيل ده في أقرب صندوق زبالة، وجاي.

لم ينتظر منها ردًّا على ما قاله، ودخل إلى غرفة النوم ليبدِّل ملابسه، وتركها وحدها في الصالة، عيناها كأنهما سهمان يخترقان الجوال البني المربوط، الذي ينام بداخله جثة قط مجهولة المصدر، قفزت من اللامكان لتشاركهم شقتهم.

انتهى سريعا من تبديل ملابسه، وخرج ليراها على نفس هيئتها؛ فاقترب منها يساعدها في الجلوس على مقعد صغير، أحضره لها وقال بحنو:

- اهدَى بقى يا حبيبي، ما حصلش حاجة.

بخوف قالت:

- أهدى إزاي يا جمال، أنا مش عارفة أتلَمّ على نفسي.

اقترب منها، وطبع قُبلة حانية على كتفها:

- والله زي ما قلتلك، هو أكيد دخل من شباك أوضة

الخزين.

قالها واحتضنها ليهرب من نظراتها خوفا من أن تكشف الخوف، الذي يعبث بأعماقه، شعَر حينها باقتراب القط منه يبتسم في مكر، ويمد يده ليخترق بطنه، منتزعا أحشائه في انتقام لا يدري سببه، أغمض عينيه، ونفض رأسه ليطرد هذه التخاريف فقالت:

- إنت متأكد إن الحضن ده بريء؟

أفلتت ضحكة مغصوبة من شفتيه:

- مش عارف، مفيش حاجة مضمونة الأيام دي.

قالها وتسرسب من بين ذراعيها، فاستقبل صدره هواء الصالة الباردَ، ليشعر بافتقاده حرارة صدرها النافر، فقال:

- بذمِّتك حد يشبع من الحضن ده؟

زامت بشفتيها وقالت معاتبة:

- ما انت مقدَّره وبتدِّيله حقه كويس يا اخويا!

تذكَّر ماوقع بينهما قبل دقائق؛ فتلجلج لسانه وقال:

- أنا هانزل أرمي الزفت ده، وهاجي بسرعة.

بخوف قالت:

- هتسيبني لوحدي!

ابتسم وقال:

- لا يا حبيبتي، حاولي تنضَّفي السجادة من الدم، وأنا مش هاتأخَّر.

قالها وهو يفتح باب الشقة، بكلتا يدَيه حمل الجوال، الذي ينام بداخله لغزٌ يكاد يهتك عقله، تبدَّلت ملامحه بمجرد خروجه من الشقة، تاركا خلفه زوجته، التي خدعها بأنه فتح شبَّاك غرفة الخزين، التي لم يقترب منها من الأساس!

داهمت عقله الهواجس بلا رحمة، اعتصرت كل خلية فيه، لتقطر تساؤلات كالسيل، فكيف حتى إن وجد القط منفذا ليدخل إلى الشقة أن يصل إلى منتصفها وهو مفصول الرأس، التي وجدها بجوار جسده، هناك شيء خفي لا يدركه، شيء خارجٍ نطاق التفكير المنطقي، هذا الجوال يحمل بداخله شيئًا، ربما يكون فاتحة لباب يحمل خلفه مصائب لن تنتهي، شيء لابد أن يصل إليه قبل أن يصل إلى درجة غير قابله للمواجهة.

هكذا تلاعبت الأفكار السوداء بعقله، حتى وصل إلى صندوق القمامة، ليقذف بداخله الجوال الذي ربطه بعناية، ثم اقترب ليتأكد من استقرار الجوال في باطن الصندوق تماما، وفي صدره تدافعت الدقات، التي بَدَتْ كقَرْع الطبول، كأن صدره يحبس خلفه شيئًا يجاهد الخروج للتحرر، كأن خلف قفصه الصدري قط أسودُ، ضخمٌ، شرِس، محبوس، ينهش بأظافره وبأسنانه ليخرج، تنفَّس بعُمق ليُخرس ألسنة التوتُّر، التي صرخت بداخله، وتأهَّب للعودة إلى منزله ليفكِّربهدوء...

****

وقف "طاهر" متلهِّفا على رؤية مولوده، يوَدُّ لو يتوقَّف الزمن عند هذه اللحظة، التي طالما حلم بها، وعاش في انتظارها، يتوق إلى الحديث إليه، يخبره أنه طالما انتظره ليكون سنده.. خطه الممتد في هذه الدنيا التي لا ذاكرة لها، مرَّت الدقائق ثقيلة، كأنها تضغط بثقلها على صدره، الذي ضاق من الانتظار والترقُّب، ليزيح ثقلها صوت الصراخ الأول لمولوده، معلنا تشريفه إلى الدنيا.

استقبله الطبيب الذي خرج، وعلى يديه حمل قطعة لحم حمراء تبكي بلا انقطاع، اقترب وقال له:

- بسم الله ما شاء الله بنت زي القمر يا حاج.

سمعه "طاهر"؛ فانقطع نور وجهه، وحَلَّ الليل على ملامحه، التي تجهَّمت فجأة، وهمهم بأصوات غير مفهومة:

- كيف بِتّ يا دكتور؟.. كيف؟.. أنا رايد واد.

ابتسم الطبيب وقال:

- ربنا يدِّيك الصحة والعمر وتجيب الواد يا حاج.

انخرس لسان "طاهر" ودخل على "روحية" غرفتها الخاصة بعد الولادة، وضع المولودة بجوارها وهَمَّ بالخروج، رفعت وجهها فانكسرت نظراتها أمام سهامه القاسية، التي صوَّبها ناحيتها كمن قامت بارتكاب جُرْم لن يغتفر، حاوَلَتْ تلطيف الأجواء، وقالت بوَهن:

- هتسمي البِتّ إيه يا حاج؟

بحِدَّةٍ أجاب:

- ما باسمِّيش بنات، سَمِّيها إنتِ!

قالها، وصام لسانه عن الكلام؛ فانزوت في مخدعها، تبتلع حسرتها، يرافقها صمت الجبال، صمت يطوي بداخله كل مشاعر الحسرة والحزن، فكيف لها أن تتحكم في إرادة الله لترضي زوجها، هل كان بإمكانها مد يدها إلى صفحة القدر لتبدِّل المكتوب في السماء بما يريده منها!

طال مكوثها على سرير المرض، تعافى الجسد وبقيت الروح غارقة في مستنقع الألم، تذكَّرت كم مرة أخبرها أنه يحرص على سلامتها، وسيخالف كل العادات والتقاليد ويأتي بالأطباء ليشرفوا على حملها وعملية الولادة، فالأطباء في عُرفهم غرباء، لايجوز لهم كشف ستر إناثهم، رفض إحضار الداية، وأخبرها بحنوٍّ أن أمنها وسلامتها أقوى من الأعراف كلها، فلتذهب جميعها إلى الجحيم، تقلَّبت على السرير، فهاجمتها الآلام.. لا تدري أهي آلام طبيعية لما بعد الولادة؟ أم نتيجة طعنات النظرات التي غرسها "طاهر" في جسدها الناقص كما أصبح يراه!

هجرها وانغمس في تيه العمل، فتجاوزت قسوته، وقامت بتسمية المولودة "زينات"، تلك التي قضت سنواتها الأولى لا تسمع كلمة طيبة من الأب، تلتقم ثدي الأم، فلا يقطر في فمها سوى قطرات شحيحة من حليب ممتزِج بالحزن، تحاول التقرُّب من والدها ببراءة فتصطدم ببرودة روحه، وخشونة كفه، لا حب.. لا رعاية.. كأنها مصيبة هبطت على

رأسه، غير مرغوب في وجودها.

اقتسمت الطفلة مع والدتها كل شيء، صارت تشاركها طعامها وشرابها وسيول الإهانة، التي لم تنقطع عن لسان الأب، يمتد غيابه عنهما لساعات طويلة، ويعود ويراها؛ فيتذكر مصيبته التي تنمو في واديه وترعى، وجهها المليح يذكِّره بأخته التي لم يعد يعرف عنها أيَّ شيء بعد هروبه من بلدته، حتى وجود هذه الطفلة يذكره بما يجاهد لنسيانه!

حاولت "روحية" إذابة جليد العلاقة بين الأب والابنة؛ فقالت:

- زينات ما شاء الله بقت أربع سنين يا حاج.. ما تخلِّيها تقعد في الأوضة الفاضية دي.

بعصبية أجاب:

- دي لولدي وبس.. فهمانة يا روحية؟.. لولدي.

ارتفع صوتها:

- ودي بتك يا حاج، مش بنت حرام!

سمعها فتبدلت ملامحه، ولطمها بقوة لتسقط أرضا:

- اتعدلي يا بت المركوب، اتعدلي لأساوي جتتك بالأرض.

أطاحت اللطمة بجسدها وقلبها معا، فنزفت روحها سيلًا من الألم، لينسحب الوعي من جسدها تدريجيا، وعيناها مثبَّتتان على طفلتها، التي وقفت في أحد الأركان تبكي،

دنا منها وهزها؛ فلم تستجب، كأنها أبت أن تتلقَّى المزيد من الإهانة والألم.. يكفي ما فعل.

نهض غير مبال، وغاب بضع ساعات ليعود وبصحبته الطبيب، الذي أكَّد له أنها في الشهر الثالث من حمل جديد، لم يصدِّق أذنيه، فأكد الطبيب عليه الحقيقة، أعطاه أضعاف ما يستحق فرحا بهذه المفاجأة، التي تقرِّبه من تحقيق الحلم، واقترب من "روحية"، لمس كفها برفق، فسالت دمعاتها، كطفل نادم على حماقة ارتكبها، نكس رأسه وقال:

- سامحيني يا ست الناس، كانت ساعة شيطان.

ابتسمت بحنو، وقالت من بين دمعاتها:

- أنا فداك يا حاج.

جلس بجوارها وجذب كفَّها الدافئة، ليطبع عليها قُبلات.. لا تدري هل ندم على ما فعله معها؟ أم لحاجته لشيء من دفئها، جاهد هذه المرة ألا يغضبها طوال فترة الحمل؛ لتأتي بالمولود في سلام، حتى أذِن الله بميعاد الولادة، عندما صرخت في منتصف إحدى الليالي الباردة:

- مش قادرة يا حاج، انجدني.

في ثوانٍ ارتدى ملابسه، وذهب بها إلى المشفى، فأدخلها الطبيبُ غرفة العمليات مباشرة وجلس.. يفصله عنها باب الغرفة الخشبي، وعشرة أطنان من القلق، الذي نشب مخالبه في قلبه، ليخرج الطبيب هذه المرة وبين يديه

لفافة تحوي مولوده الثاني:

- مبارك يا حاج، بنت زي القمر.

صاح في عصبية مفرطة:

- كيف بِتّ تاني يادكتور!

ابتسم الطبيب محاولا تهدئته:

- طب خلِّيني أكمِّل كلامي يا حاج.

أشاح بيديه، وانسال من فمه سيل من البصاق المتطاير المختلط بالشتائم لهذه السيدة الناقصة، التي لا تنجب سوى الإناث الناقصات مثلها، أقسم أن يقتل هذه البهيمة، التي لا نفع منها - قالها - فنطق الطبيب بما أخرس لسانه:

- المدام جابت توأم، بنت وولد، والولد بيلبِّسوه جُوَّه، وخارجين به.

لفظها الطبيب في وجهه ممتزجة بالتقزُّز من سيل كلماته المقيتة بحق زوجته؛ فصمت "طاهر" في غير تصديق، حتى خرج طبيب آخَر، حاملا لفافة بيضاء بداخلها قطعة سمراء من الجمال، ارتجف قلبه، وهرول ناحية الطبيب ليحمل ولده بذراعيه القويتين وقال:

- قمر يا وِلْد ابوك.

قالها وطاف بالطفل في الرواق المؤدي إلى الغرفة، التي تنام بها زوجته، لاحظ تجمُّع الأطباء أمام الغرفة، فاستئذن

منهم أن يُحضِروا الطفلة أيضا، ليدخل بهما يطمئن على صحة الأم، نظر الأطباء لبعضهم البعض، وأحضروا له الطفلة، واقترب منه كبير الأطباء ليخبره بأمر مهم:

- يا حاج.. انت راجل مؤمن بقضاء ربنا.

- إيه الخبر يا دكتور؟

أطرق الطبيب برأسه للأسفل وقال بأسًى:

- المدام نزفت كتير، و للأسف ملحقناهاش، البقاء لله.

تحجَّرت الدموع في عينَي "طاهر"، الذي اقتحم الغرفة بالقوة، وجثا تحت قدمَي "روحية"، التي غابت روحها، هزَّها بعنف علَّها تجيبه..

- يا روحية شوفي ولدك.. يا روحية..

كالمجذوب بدا "طاهر"، الذي وقف يصرخ فيها، ينتظر ردًّا منها على كلماته، وضع الطفلين جانبا، وشرع يتحسَّس جسدها، لا يصدِّق أن الروح فارقته للأبد..

- ليه يا بِتّ الأصول تعمليها، ارجعي.. أنا اتعلَّمت واتربِّيت..

من حوله وقفت جموع الأطباء وفريق التمريض، يحاولون إخراجه؛ فلا مجيب، وقف يبكيها كما لم يبك طوال حياته، اقترب منها، وكشف وجهها لترى التوأمين، قرَّب الولد منها وخاطبها:

- سامحينى يا بت الأصول، أنا ما كُنتش فهمان، بالله عليكِ لتسامحيني،الواد اهَهْ يا روحية، هاسمِّيه راضي،

والبِتِّ آهِي، هاسمِّيها صافية، صافية زي روحك يا بت الأصول.

قالها وألقى جسده بجوارها، كأنه يريد أن يلحق بها، يقبِّل قدميها، ونشيجه قد زادت حِدته، دخل كبيرالأطباء وأخرجه بحذر، حاملا عنه الطفلين، فبدا مستسلما ككيان أجوف منزوع الروح، خرج متكئا على حزنه، مودِّعا "روحية" التي غادرت الدنيا، بعدما أدت رسالتها كما أرادها.. ليصبح "أبو راضي".

****

في طريق العودة إلى شقته، تباطأت خطوات "جمال"، الذي حاصرته أفكار لانهائية، صبَّت كلها في عدم وجود تفسير لأي شيء، فإنه إن استطاع خداع زوجته كذبا لن يستطيع خداع نفسه! عشرات الشكاوى صدحت بها زوجته؛ ولم يُعرها اهتماما، دائما كان يهرب من تحليل الأمور بالهروب من التفكير فيها، لامجال للهروب الآن، شيء ما يلوح في الأفق، ينبئ بشرٍّ مجهول المصدر، كارثة دبَّت في جسده، فقطعت عنه سَيل الرجولة، وأخرى نشبت في شقته، فألقَت له بجثة قط، رأى من الأهوال ما رأى، كأنه رسالة تنذره بما سيراه عمَّا قريب!

تقافزت الأفكار أمامه، حتى حجبت الرؤية الصحيحة؛ فقرر أن يحلل الأمور بهدوء، لتتضح الحقيقة، على مقهى قريب

جلس متوحِّدا مع نفسه، يحدِّثها أحيانا بصوت مسموع، محاولا تهدئة الضجيج الذي يعبث بأعماقه، فما يظهر وما يخفى في الشقة لابد وله من تفسير، وله بالتأكيد حل حتى لو اضطر إلى مغادرتها بلا رجعة، إلى أيٍّ مسكَن، أما عن فحولته التي تبخَّرت، فكيف له أن يُدرك سِرها!.. هكذا حدَّث نفسه، وهو على وشك الوصول إلى المنزل، صعد إلى شقته؛ فاستقبلته "عفاف":

- اتأخَّرت ليه؟

بابتسامة هادئة أجاب:

- كنت باشتري سجاير، وعدِّيت على واحد صاحبي.

أومأت بصمت، فدخل ليجد أرضية الشقة عارية بالكامل من كسوتها، والقطع الصغيرة الموضوعة في الممرات ألقتها "عفاف" أمام الحمام؛ تمهيدا لغسلها جميعا، فضحك:

- دي حملة نظافة شاملة بقى.

بحِدة علَّقت:

- يعني قصدك إني ما كنتش نضيفة قبل كده!

تنفَّس بعمق ليتسنَّى له استيعاب تقلُّباتها المزاجية الحادة، يدرك جيدا كم الضغط النفسي الذي تعانيه، فأقرب تفسير لما يحدُث يصُبُّ في دائرة سوداء، تذهب بالعقل إلى الجنون.

جلس على أحد المقاعد المواجهة للمكان الذي رأى فيه

القط المذبوح، وعقله في وادٍ آخَر، هل يمكن أن يوجد للأحداث اللامنطقية منطق يربطها ببعضها البعض؟ هل لتراجع قدرته الجنسية مع زوجته علاقة بالأشياء الغريبة التي تحدث في الشقة؟ هل هناك أمر ما متعلِّق بالمكان ذاته؟ أم بالأشخاص؟ أم أن كل هذه الافتراضات تصب في اللاشيء؟ عشرات الأسئلة التي اجتاحت رأسه، فعصفت بها لينتشله منها صوت "عفاف":

- سرحان في إيه؟

- ....

- جمال!

- ....

- جمال باكلِّمك!

قالتها بعصبية مفرطة، وهى تجذب السيجارة التي أشعلها من بين شفتيه، عندما سقط رمادها، فكاد يحرق قميصه، وهو لا يشعر بأي شيء، انتفض فجأة كأنه لم يكن يراها من الأساس، ليرتفع صوتها هذه المرة أكثر:

- بتفكَّر فيها.. صح!

أجاب بشرود:

- في مين؟

غلَّظت من صوتها:

- الهانم اللي شاغلة بالك يا سي جمال، ومخلِّياك مش

حاسس بيَّ، ولا شايفني ولا سامعني!

تعالت وتيرة صوتها، فأصبحت كالمسامير، التي وقفت فوق رأسه، تدكُّها مطرقة حديدية ضخمة، أفقدته صوابه، فتخلَّى عن هدوئه، ليصيح في وجهها:

- هانم مين؟.. إنتِ بتخرَّفي باين عليكِ!

برقت عيناها:

- باخرَّف عشان عايزة أفهم.. عشان عايزة أعرف جرالك إيه.. عشان عايزة أحافظ على بيتي.. صحيح.. أنا بنت كلب وأستاهل ضرب الجِزَم.

أجابها بالصمت، فحدَّقت في عينيه بعناد، أغمض عينيه؛ ليسيطر على انفعاله، لم تفلح محاولاته أمام إصرارها على إشعال غضبه بمزيد من العصبية التي سكبتها على ناره، بلا رَدٍّ تركها ودخل إلى غرفة نومهما، التي شهدت تفاصيل لقائهما الحميمي ،الذي انتهى بصفر مُخزٍ، مجرد محاولات لاهثة غير مجدية، صبَّت نار اليأس فيً قلبه، وشقَّت ألف أخدود يفصل بينها وبينه.

هو بالفعل لايدرك ما حَلَّ به، في الشهور الأخيرة لاحظ أنه لا يميل مطلَقا لزوجته، فلا يحرك ساكنه ما تفعله من جنون لإثارته، أصابه شك قاتل في رجولته، فنفض هذ الخاطر عن نفسه، وبَّرر ذلك بأنه ناتج عن الضغوط النفسية التي مر بها في الفترة الأخيرة، وهذا ما لم يقنع "عفاف"، ولو أقسم لها ألف عام.

تمايل يمينا ويسارا.. أمسك رأسه بكلتا يديه، خشية أن تسقط من فوق كتفيه، لتتدحرج أرضا هربا من عصف الأفكار بها، لتفاجئه "عفاف"، التي ركلت الباب بقدمها، وقد حملت حقيبة ضخمة ألقتها جانبه على السرير، وفتحت دولابها:

- أنا هاروح عند ماما.. وابقى خلِّي بقى الهانم تنفعك!

- ....

- باكلِّم نفسي أنا يا جمال!

- ....

- شكرا، ومش هتشوف وِشِّي هنا تاني.

- ....

قذائف لاهبة أطلقها لسانُها، قابلها بالصمت التام، لا يدري هل فقد الشعور بها حقا؟ أم أنه تحت تأثير شيء ما يمنعه من الكلام؟ زادت من حِدة قذائفها؛ فخرج تاركا لها الغرفة، حتى لا ينفجر في وجهها، ليحوِّلها إلى أشلاء لا تصلح للحياه، فلا هي تدرك ما بداخله، ولن تفهم ما يقوله، تابعها من الخارج في صمت، وهى تلملم أغراضها الخاصة بداخل الحقيبة، التي أغلقتها بصعوبة، كأنها بالفعل لن تعود إلى هنا مرة أخرى، انتهت مما تفعل، وحملت الحقيبة بكامل قوتها، حتى خرجت من الشقة، ليجد نفسه وحيدا، تسيطر عليه فكرة راوغها كثيرا؛ فهاجمته بضراوة، حتى نجحت في فرض سيطرتها؛

فالتقط هاتفه بحثا عن اسم "حودة العفاش"

****

سحبته الصغيرة بكفِّها اللين، استشعره؛ فكأنه خُلق بدون عظام، أو أنها من نبْت جديد، لا ينتمي إلى عالم البشر، تبعها كالضرير، الذي سيق كما أراد دليله، يرى الغرفة الضيقة بعينيه كأنها لا تسع سواه وهي.. بينما تتلاحق خطواته اللاهثة خلفها، كمن يقطعا صحراء لا تنتهيَ!

خطَتْ بخِفة، ومن خلفها هو يجُر الخطى، كأنه فقد السيطرة على أعضائه، لتجذبه بعنف، فأوشك على الانكفاء كدلو مملوء بالضعف.

وقفت عند نقطة، والتفتت لتثبِّته في موضعه بنظرة حاسمة، تحسَّس جسده ليتأكد من بقاء روحه بداخله حتى هذه اللحظة، هذا الوعاء الجلدي الذي يحْوِي بعض العظام والشحوم، وتلال من الألم اللامنتهي، والذى ازدادت حِدته عندما أشارت الطفلة إلى نقطة في أحد أركان الغرفة، نظر إليها؛ فبدت كأنها فجوة تسمح له برؤية عالم آخَر، يجهله.. يخشاه.. فجوة تحمل في باطنها ما لم يتخيل حدوثه في أبشع كوابيسه....

****

الفصل الثاني

ثلاث مكالمات فائتة، ورسالة نصية، تلقَّاهم هاتف «كوبرا»، الذي غاب لسويعات في غرفته السرية، كَسَتْها سحُب دخانية زرقاء، تكبَّد في سبيلها وريقات نقدية ليست هيِّنة، ضحَّى بها ليحصل في المقابل على قطعة أصلية من الحشيش الأفغاني.. قطعة بجحم كفٍّ صغيرة، تكفى لقضاء ليلة أو اثنتَين بصحبة الرفاق، ليصلوا معًا إلى السماء بدون أجنحة، لا حاجة للأجنحة!.. فالقدرة على التحليق ممكنة، يفعلون حتى تمتلئ خزائن النشوة، فيهبطون على الأرض مجددا، بحثا عن تأشيرة أخرى لتكرار الرحلة.

لكزه صديقه برفق؛ فانساب السباب من فمه، ليطال كل عزيز وغالٍ لديه:

- سيبني قلت لك لحد ما الدماغ تاخد حقها.

أخبره أن هاتفه لم يكف عن الرنين؛ فالتقط "كوبرا" الهاتف من جيبه، ونهض بعصبية ليلقي به من النافذة، ثم توقَّف لثوان محاولا استيعاب الأمر.. ألقى نظرة على شاشة الهاتف، ليرى رسالة نصية قصيرة (كلِّمنى) من رقم مسجل على الهاتف بإسم "رقما".. لعنه في أعماقه، وشرع في الاتصال به، وهو يتراقص مع الأدخنة المتطايرة، ليأتي

الرد الصارم سريعا من محدِّثه:

- هاتصل بك مليون مرة يا سي كوبرا!

عشرات الاعتذارات نطق بها "كوبرا"، فتطايرت كما الدخان، ليرد محدِّثه بخشونة:

- فين الحاجة اللي اتفقنا عليها.. انت عارف إن الباشا ما ينفعش يستنَّى.

- يومين بس.. الوارد اليومين اللي فاتوا ما كانش هيعجب معاليه.

نصف دقيقة مرت في صمت، لا يجرؤ على إنهاء المكالمة، ولا النطق بكلمة قبل أن يرد محدِّثه، تنحنح؛ فقذفه الرجل بسباب لاذع، طال شرفه ووالدته، يدرك جيدا أنه لا يملك إلا الصمت، وإنْ حاول الرد بكلمة واحدة، ربما تكون آخِر كلمة ينطق بها في حياته، اختتم الرجل المكالمة بالتشديد عليه ألا يتخلَّف عن اتفاقه معه، فأومأ بخضوع تام، لينهي محدِّثه المكالمة بضغطة زِرٍّ شعَر "كوبرا" بها، كما لو كانت سكين حادة تخترق صدره.

- هيترسم عليا ابن الشر****، ده أنا أترسم على عشرة زيُّه هو واللي مشغَّله!

قالها "كوبرا" وهو يلقي بالهاتف على المقعد المقابل، اقترب منه صديقه، فدفعه بكلتا يديه في صدره، وهو يهذي بكلمات مغموسة بالشراسة:

- أنا أحسن منهم كلهم ولاد الوس** دول، كل فضايحهم

عندي، لو عايز أفعصهم زي الصراصير هاعملها.

رعشة يديه، وهروب اللعاب من فوق لسانه اتَّحدا مع انقباض أمعائه ليشكِّلوا معًا لوحة سوداء طلَّ منها القلق، والخوف المختلِط بترقُّب شيء ما!

كوبرا...

هذا الشاب النحيل، متوسط الطول، لحيته المرسومة، وشَعْره الفاحم، كفيلان بتحويله إلى معشوق الفاتنات، ورث سواد العينين من والدته، التي يقال إنها كانت ملكة جمال الحي! ملامحه الدقيقة، المرصوصة بدِقة فوق صفحة وجهه الأبيض، والغابة الناعمة التي تطل من فتحة قميصه؛ أعطياه ثقة بأنه أكثر رجال الأرض وسامة.. وأشدهم جاذبية أيضا.

بالرغم من صغر سِنه، الذي لم يتعدَّ الثلاثين، إلا أنه مهيب الطلة، يتعامل معه الجميع بحذر شديد، فلا يأمن أحد له، ولا هو أيضا يفعل، أسماه أحد أساتذته في المهنة "كوبرا"؛ ليُكسبه مهابة الناس، وكثيرا ما بث في أذنه نصائح ذهبية، ساعدت في تكوين شخصيته العملية..

- اغرف من الدنيا بكل قوِّتك عشان محدِّش هيحطِّلك لقمة في بُقك.

تعلَّم الدرس جيدا، تعلَّم واستثمر كل ما يملكه في سبيل الوصول إلى شيء واحد.. الأموال، الصكوك التي تمكِّنه من عبور الأماكن المغلقة، الأوراق الملوَّنة، التي يسيل

لها لعاب أضخم شارب، ويسلِّم أمامها أعتى الرجال راياته، البوابة الوحيدة التي يسقط على عتبتها الشرف، والمثل، وكل الثوابت العارية من القوة كما يراها.

- اللي رايد يوصل ما ينفعش يبقى له إيد توجعه، ما ينفعش يبقى له مَسْكَة، ما يضعفش!

توطَّنت كلمات المعلِّم في ذهن "كوبرا"، لكنه هذه المرة أخفق في العمل بها، يدرك جيدا صِدْقها، لكن النفس البشرية كموج البحر.. هادرة، من الصعب تطويقها والسيطرة عليها، شيئان تملَّكا منه، ونجحا أن يحنيا رقبته، أدرك استحالة اجتثاثهما من أعماقه؛ فشرع في اختلاق الأعذار، ليتسنَّى له مواصلة طريقه، الذي رسمه بدِقة.. فكيف له أن يُقلِع عن تعاطي المخدرات، وهي الجنة التي تفتح له أبوابها في أي وقت يريد! دائما ما يقول لنفسه، ولمن حوله، إنه أقوى من هذا الأمر، بإرادته يفعل، وبها أيضا يمتنع، الشيء الآخَر الذي يعتبره النقطة الحقيقية المسيلة للعابه هو النساء، فلا ترى عيناه إلا نهدًا وفرْجًا، ولا يتذوَّق لسانه غير لعاب أنثى شهية يعتليها، يمتص رحيقها، ويطير إلى أخرى بلا كلل ولا انطفاء.

النساء.. مخلوقات شهية، طالما داعبت مخيلة "كوبرا"، يتأمَّلها كما التُّحف الفنية، فواكه ملونة، نجمات لامعة ثائرة، نجمات مهما كانت بعيدة، فلا يري صعوبة في الوصول إليها، كل نجمة لديه طريقة خاصة للوصول إليها،

وكل واحدة كخزينة مغلقة، يمتلك وحده مفاتيحها، كلص في حوزته سلسلة تحمل في عنقها ملايين المفاتيح، التي تفض قفل أي خزينة.

كلاعب شطرنج محترف، استطاع "كوبرا" تطويع نقطة ضعفه لصالحه، رَصَّ أمامه القِطَع على رقعة الشطرنج، واختار اللعب مع ذوي القوة والنفوذ والمال، فلا يوجد رَجُل لا يذيبه جسد امرأة، مهما بلغت سطوته ونفوذه، هو في النهاية مجرد ذكَر راكع لشهوته، ذَكَرٌ يرتدي ربطات العنق، وينطق لسانه بالكلمات المنمَّقة، ويلمع وجهه على الشاشات الصغيرة، أما في خلوته فهو مجرد لاهث على جسد امرأة أعجبته.

- فيه إيه يا عم كوبرا.. هتِقلِبها غَمّ ليه!

انتزعه صديقه من شروده، فتنهَّد بعنف، ملأ صدره بالهواء علَّه يهدأ، يعي أنه مهدد بالفعل من هذا الرجل، يتواصل معه من خلال مساعده، ليحضر له قطعة حدَّد مواصفاتها بدِقة، يريدها لقضاء أسبوع في إحدى الشقق الخاصة، مقابل عشرة آلاف جنيها، نصفًها للفتاه، والنصف الآخَر لـ"كوبرا" بصفته وسيط، أو بالتعبير الأدق، بصفته خازن الملذات.

التقط هاتفه، وبحث عن اسم إحداهن، ضغط على زر الاتصال؛ فجاءه صوتها ليعاجلها بسبَّة بذيئة صارخا:

- فين البِتّ اللي قلت لك عليها من يومين؟ الراجل مبهدِل

الدنيا وقالب علينا.

شهقت السيدة، وافتعلت الخوف لترد ساخرة:

- حوش حوش حوش، داخل علينا بزعابيبك يا سي كوبرا ليه، استنَّى هطلعهالك من التلاجة.

ثار "كوبرا"، وواصل سبابه، فسكبت المزيد من الوقود على ناره، عندما رنَّت ضحكاتها وأردفت:

- ما هو البيه بتاعك يا خويا مزاجه عجيب، هجيب له كل يوم بنت بنوت منين، قُلُّه يصبر شوية لحد ما نشوف الوارد اللي جاي، جايز نلاقى بنت طفشانة ولا أي زفت.

تنفَّس بعُمق محاولا إخماد ثورته، يدرك جيدا صعوبة ما يطلبه، فما أكثر العاهرات، بمختلف ألوانهن وأشكالهن، يعي جيدا أن البستان ممتلئ بالزهرات الفواحة، أما عما يطلبه الرجل منه فهي زهرة نادرة غالية، صمَت لثوانٍ، وأعاد توصية السيدة بأن تسرع في إحضار طلبه، حتى لو وصل الأمر لتركيب غشاء اصطناعي لإحدى الفتيات، ويحضرها إلى سيده علَّها تنال رضاه.

استحسنت السيدة الفكرة، وأخبرته بصرامة أن مبلغ الخمسة آلاف جنيه لن يسمِن ولن يغْنِي من جوع في هذه الصفقة، فحاول اقناعها بأن تصل إلى حل، ولن يقصِّر معها في أي شيء يخص الثمن، قاطعه صوت اهتزاز الهاتف في يده، وصوت ينبِّهه بمكالمة استقبلها الهاتف في انتظار الرد عليها، أبعد الهاتف عن أذنه ليرى على

الشاشة كلمة "رقم خاص"، أغلق المكالمة مع السيدة بلا تمهيد، ليرد على المكالمة الهامة التي وردته.

****

عاد "طاهر" إلى المنزل، وعلى كفيه حمل روحين، كتب الله لهما الحياة، وسلبه هو نصف روحه، التي طارت مع "روحية" إلى السماء، حاول تجاوز الحزن؛ فعصاه، كأنه يسلخ جلده بسكين غير مشحوذ.

جلدته نفسُه كل ليلة ألف مرة بعد وفاة "روحية"، فأقسم ألا يعيش إلا لتربية أولاده، ليصبح يومه مقسَّما بين العمل، ومتابعة المربيات في رعاية توأميه وابنته الكبرى "زينات"، التي اقتبست من زوجته الراحلة حُسنها، فأصبح يراها في وجهها وحركاتها وسكناتها وحديثها.

راجت أعماله وتكاثرت النقود في خزينته، التي اختزن فيها كل ما يملك، فقد كان يرفض التعاملات البنكية، ظنا منه أن أمواله لديهم غير آمنة، فأي أمان سيشعر به وهو الذي نزح من موطنه متلصِّصا هاربا من ذنب لم تقترفه يداه إلى القاهرة الشرهة، التي ابتلعته وهضمته في معدتها القاسية، فأقسم أن يُعِدَّ ولده ليشتد عوده، ويصمد في مواجهة طوفان الدنيا الذي لا يرحم.

الولد.. راضي طاهر

كعامود خرساني بدا، صلب العود، قوي البنية، على لهب الشمس نضج، ومن قسوتها اختزن في باطنه، أتم السابعة من عمره، فتذيَّل به "طاهر" في مشاريعه المعمارية، وأعمال المقاولات، ليشتد عضده، كظلِّه صار.. لا يجرؤ على مخالفة أمر، راودته أحلام الطفولة الملوَّنة؛ فاشتهى بفطرته وطلب..

- يا ابَا.. عايز أروح المولد اتفرَّج على الأراجوز.

نطق بها؛ فرَدَّ عليها الأب بلطمة حاسمة، رنَّت على وجهه أمام الجمع الغفير من العمال في ظهيرة أحد الأيام، دون أن يتبعها رَدٌّ من كَلِم، انزوى في أحد الأركان، ودمعت عيناه، فعاجله الأب بلطمة حاسمة:

- ابن طاهر ما يبكيش يا مَرَة.

قالها ولطمه مرَّة أخرى، توقفت على إثرها دموع "راضي" خوفا من تبعات ذلك، عندما يصلا إلى المنزل بعد انتهاء العمل، انتهى اليوم وعادا إلى المنزل، لتستقبلهم الخادمة التي انتهت من إطعام "زينات"و"صافية"، وأعدت لهما عشاءهما، لتغادر بعد وصولهما بلحظات.

أغلق "طاهر" الباب، ودخل ليتفقَّد أنثيَيه اللتين اعتادتا غيابه عنهما طوال اليوم، تمر أيام لا تريانه، كأنه زائر يأتي لتنعما برؤيته لحظات معدودة، قبل أن ينجلي الليل ويطلع النهار، فيسحب ولده إلى العمل، وتبقيان في

المنزل أسيرتَي الملل والصمت.

ابتهج الأب عندما وصل "راضي" إلى سن الالتحاق بالمدرسة، في قرارة نفسه يؤمن بأن الولد يجب تعليمه ليستنير عقله، دفع به في طريق التعليم؛ فتاقت نفس ابنته صافية توأم "راضي" إلى الحديث مع والدها في أمر ما و..

- يا بابا نفسي أروح المدرسة زي راضي.

- البت مكانها الدار، راضي ولد لازم يتعلم ويشتغل.

- بس يا أبا نفسي أنا نفسي أتعلم.

لطمة قوية من كف "طاهر" الخشن على وجهها، كانت هي الرد الحاسم، لا يعرف الأب سوى لغة اللطمات والركلات، ظنا منه أنه ينتهج هذا لتقويمهم، كسر الضلع يتعالج.. لكن اعوجاج العود لا.. هكذا آمن "طاهر"، وبذلك ربَّى بنتَيه ومعهما الولد!.. بكت "صافية" فلم يرِق قلبه، ولم يلتفت إليها، جرت لتدفن وجهها في صدر أختها "زينات"، التي أخفت دمعاتها، حتى لا يطالها عقاب والدها.

خمس أصابع تركت أثرها على روح "صافية" الرقيقة، لم تتزحزح من ذاكرتها، أو يخفت أثرها، الألم.. يشبع الخلايا بالأذى كتشبُّع قطعة من الإسفنج بالماء.. دائما يتكفل الوقت بتبديد الألم وينجح، إلا هذه المرة.. تجدد بخبث في أعماق "صافية"، كثعبان يتغذَّى على فئران صغيرة!

تتذكر دوما ما قاله والدها هذا اليوم..

- والله وشفت اليوم اللي البنت بدَّها تروح المدرسة!

علَّق "راضي" مستنكرا:

- المدرسة للولد يا ابا، البِت للبيت وبس.

قالها محاولا تغليظ صوته ليصل إلى أسماع أختيه، سمعتاه بالفعل، ووقفت "صافية" تراقبه بعين دامعة، وهو يبتسم بخبث، طواه والده تحت إبطه، وخرج قاصدا عمله، الذي اعتاد أن يصحبه فيه بعد انتهائه من اليوم الدراسي.

لوحة بيضاء ملطَّخة بالأسود، نسخة توطَّنت بداخل "صافية"، وأخرى استقرَّت في أعماق "زينات" منذ لحظة ميلادها، يزيد عليها بعض الثقوب الغائرة في روحها، يبرز منها قيح بنكهة الحزن والقهر، كأن الأب لم يُنجب سوى الولد، بقيتا أسيرتَي الملل والصمت، وفوق كل هذا لا تجرؤ إحداهما على تمنِّي شيء، فمجرَّد التمني والحلم عليهما محرَّم، شرعتا في تعلم الحياكة، وفنون الطهي على يد المربية التي أحضرها "طاهر" لترافقهما منذ وفاة زوجته، رُبيتا على الصرامة، لا أحد يجرؤ على مخالفة أمر، أو اختيار شيء في هذا البيت.

حرث الأب تربة ولده بمعول الشدة، ليزرع فيها ما يريد، حجرية كانت، يهوي بالمعول فتصدمه صلابتها، تعلَّم الابن زرع الفخاخ فشرع في دسِّها تحت جلده ورأسه وعقله، تعلَّم الحساب فأمسك بالقلم، وخطَّط لكل شيء

جيدا وبالأرقام، سحبه والده؛ فسار معه حتى نما شاربه على استحياء، وفى باطنه حمْل ما، لم يخطر للوالد على بال، لم يفارقه طرفة عين، حتى وصل إلى مرحلة التعليم الجامعي، فأخرج الورقة وقرأ ما خطَّه على والده، وقعت الكلمات والحسابات على الوالد بما يخالف هواه، فثارعندما فاتحه "راضي" و...

- رايد أسافر بلاد برَّة يا ابا أتعلَّم في كلية الهندسة.

- بدك تسافر كيف وتهمِّلنى يا ولدي..

- ده مستقبلي ومن حقي اختاره واحدِّده

- كيف هتفارقني يا ولد وأنا اللي باتسند عليك!

- يا أبا للضرورة أحكام.

- لا يا ولدي.. يعز عليَّ أقولهالك.. لا.

ثورة مكتملة الأركان قامت، ولم ينطفئ رمادها، فكيف لهذا الأب أن يرفض ما طلبتُ، كيف - وأنا ابنه الوحيد - يخالف ما رغبت، أنا.. أنا الباقي، وهما فانيتان، أنا ذو الأثر، وهما فاقدتان ومفقودتان، ستذهبان إلى بيتَي زوجاهما، فلا نفع منهما، النفع في يدي ومن يدي وبين يدي، كيف وأنا الرهان الوحيد الرابح أن يرفض ما طلبت، ويمنع عني ما اخترت..

هكذا حدَّث "راضي" نفسه ليصل بركانه إلى ذروته، نطق بها فخرجت مغمَّسة بنيرانه.. حسنا يا والدي، فليس لك عندي سوى العصيان منذ هذه اللحظة!

* *

- معالي الباشا.. أوامر يا باشا والله.

قالها "كوبرا" عقب ضغطه على زر بدء المكالمة مع صاحب الرقم المجهول، يعرفه بالتأكيد ويدرك أنه يعد الكلمات، لا ينطق بغير المفيد، لا وقت لديه لإلقاء التحايا والسلام، بصوت حاد مصقول رد محدثه:

- هاشوفك الساعة سبعة في فيلا الشيخ زايد.

نطق بها وقضم الكلمات، فهَزَّ "كوبرا" رأسه وهو يقول:

- أوامر يا باشا.

سمعها محدثه؛ فأنهى المكالمة بضغطة زر، ليتنفس بعدها "كوبرا" بعمق، ودَسَّ هاتفه في جيبه، فسأله صديقه عندما لاحظ احمرار وجهه:

- فيه إيه يا برنس؟

بحيرة من الصمت سقط فيها؛ فغمرته حد الغرق في عمقها، حاول صديقه انتشاله، فقاوم بشراسة صارخا في وجهه:

- وإنت مال أهلك، مش ضربت السيجارتين.. غور بقى!

منهج اتبعه "كوبرا"، التكتم على أي شيء يخصه، تعلم أن الخسارة تبدأ من البوح، لا يأمن لأحد حتى لو كان ظله، تعلم دفن كل شيء بداخله، فأضحي كجحر يختبئ بداخله عشرات الأفاعي والثعابين الخامدة، والتى لو خرجت لتسمَّم العالم بأسْرِه.

نهض صديقه متأففا، وتأهب للمغادرة، فنهره "كوبرا"، الذي دفعه بقوة للخارج، وأغلق الباب من خلفه بحِدة، وهو يتمتم:

- انت كمان ابن وس** زيهم.

تفقَّد الوقت، فتذَّكر أن عليه الذهاب لقضاء شيء مهم جدا قبل السابعة، ذكَّره به اتصال مبتور وارد من رقم مسجَّل باسم "الوردة"، تأمل شاشة الهاتف المضاءة، وعليها اسم المتصلة؛ فابتسم وهو يسبها سبة بذيئة على سبيل المديح!

بدَّل ملابسه سريعا، وتوجَّه إلى حيث تنتظره "الوردة"، بقميصها الوردي وعطرها النفَّاذ، يعشق "كوبرا" امتصاص رحيقها حتى الثمالة، رحيقها فقط.. أما هي فلا تعني له شيئا، مجرد آلة تمتلك مقومات أعجبته، فسعى لامتلاكها، نجح في ذلك، فطرقت عقله فكرة شيطانية، لن يُكتب لها النجاح سوى بمعاونتها، والتي عن طريقها سيلج أبواب الثروة.. بقوة...

الوردة:

يانعة، مورِقة، مشبَّعة بندَى الرغبة، يقضي معها "كوبرا" أوقاتا، ينبت له خلالها جناحان، يرفرف بهما في سماء اللذة، ليست فقط مجرد لذة جنسية مداها دقائق، وإنما لذة أخرى يستشعرها وحده، لذة تكسير الثوابت، والحصول على أي شيء مهما كان بعيدًا، أو يبدو الوصول

إليه مستحيلًا.

نظرته الأولى في عينيها أفصحت له بالكثير مما تكنُّه، اختزن ما وصله منها في أعماقه، وحبسه خلف أسوار رغباته المؤجَّلة، (العين بتفضح صاحبها) مثلٌ يؤمن به، ويستخدمه دوما في فهْم وكشف حقائق البشر المتوارية خلف ستائر التجمُّل والإنكار والهروب وغيرها.

فطن إلى حقيقة "الوردة".. تعشق المال حد العبادة، قرأ ذلك في نظراتها عندما برزت عيناها، حتى كادتا تسقطان من وجهها، عندما رأته يسكب الأوراق المالية على جسد الراقصة البض في العُرس، وللدقة في عرسها هي.. "الوردة"!

اندمج جسده مع جسد الراقصة في رقصة ماجنة، وعقله يدور بسرعة سيارة، أعجبته العروس التي تجلس بجوار عريسها في حفل زفافهما، أعجبته ولن يهدأ له بال إلا وهو يضطجع في فراشه، وهي ترقص له عارية كما تخيلها..

الوقت.. العدو الأول ل"كوبرا"، دائما ما يتحالف مع كل الأشياء ضده، اعتبر أن هذه المؤامرة ربما تكون كاذبة، لم لا يكون الوقت كالمضاد الحيوي، يقوم بمهاجمة الفيروسات المختبئة في الأوكار، يعرف جيدا أن هذه المعركة تنتهي بتكسير الجسد، لكنها في النهاية تؤدي إلى أشياء طيبة، أبسطها كشف الحقائق، الوصول إلى

العلة واجتثاثها من جذورها.

فارِق بسيط في التوقيت، تسبب في اكتشافه خيانة الوحيدة التي ذاب في حبها قبل عشر سنوات، والتي ربما لو استطاعت إحكام أقفال الخيانة على أبوابها لما تحوَّل "كوبرا" كل هذا التحول.

انتهى إلى نتيجة واحدة، هي.. كل نساء الأرض خائنات، حتى التي لم تخن.. ليست شريفة، إنما لم تفلح في الخيانة، أو لم تستغل الفرص جيدا، بهذا المنطق عاش، حتى أصبح من كبار مؤجري الأجساد، فطالما الأنثى بطبيعتها خائنة عاهرة؛ فلم لا يلتقط الجنيهات من عرَق عهرهن!

حتي "الوردة" لم يثنها عرسها عن إرسال شذاها إليه، شعَر بها كما لو كانت رغبتها ذات رائحة فواحة، التقطتها حاسة الشم لديه بسهولة، هي بالتأكيد موهبة لا ينعَم بها أحد سواه، مر الشهر الأول من زواجها، واندمجت مع المحيط من الأقارب والأصدقاء، لتجد "كوبرا" في طريقها، أظهرت في البداية من الصلابة ما يشي باستحالة وقوعها في فخ العسل، لكن الصياد لا يعرف اليأس.. أدرك النقطة الصالحة التي ستسهِّل عملية التلاقي، فلكل أنثى نقطة معيَّنة يسهل من خلالها الإيقاع بها، أو بمعنى أدق؛ يسهل من خلالها تسليم راياتها، التي هي بالطبع رايات خالية من العفة!

الهدايا الذهبية هي الحل الوحيد، ميزانية محددة وضعها

"كوبرا" بدِقة، وراهن نفسه أنه لن يتجاوزها حتى يحصل على هذه الوجبة الشهية في فراشه، مرة ساعة ذهبية، ومرة أخرى عقد أهداه لها في عيد ميلادها، تزيِّن به عنقها، ويتدلَّى ليصل إلى صدرها البض، طلب منها أن ترتديه أمامه؛ ففعلت، أرسل بصره إلى مفرق صدرها؛ فابتسمت، مد كفه خلسة من الحاضرين ولمس وجنتها؛ فنهضت وأخبرته أن ليس هذا هو الوقت، ولا المكان المناسب، طارت كعصفور شقي، فتنفَّس، وتأكد أنها ستطير وتعود إلى عشه هو.. "كوبرا" الذي لا يعرف الفشل و.. توالت اللقاءات الخاصة جدا...

- اتأخَّرت ليه.. مش متفقين نتقابل خمسة يا سى كوبرا!

قالتها بدلال وهي تخلع عنها حجابها أمام "كوبرا"، الذي جلس على السرير يدخن سيجارته، ينتظرها تنتهي من تبديل ملابسها، هزّت رأسها فتراقص شَعرها على ظهرها، والتفتت بجسدها دفعة واحدة، فتلألأ نهداها أمام عينيه المتَّقِدتين، اقترب يستنشق عطرها، فدفعته بدلال:

- ابعد.. انت وحِش، هترجَّاك عشان نتقابل يعني؟

بحِدة سألها:

- أخبار اللي اتفقنا عليه إيه؟

زاغت عيناها؛ فقبض على معصمها بقوة وأردف:

- اللي اتفقنا عليه لازم يتنفِّذ بالحرف، وإلا كل حاجة

هتضيع...

- أنا خايفة يا كوبرا.

جذبها بقوة إلى صدره، وهمس في أذنها بشراسة، أخبرها أن ما يفعلانه سيفتح لهما بابًا خلفه سيل من النقود، سيعجزان عن عدها، أغمضت عينيها وهي تتمسح في جسده كالقطة، فانقضَّ عليها كالفهد، يدرك جيدا أنها في الظاهر تبدو قطة وديعة، وفي أعماقها تسكن لبؤة شرسة، تعشق الافتراس.

انتهيا، وهدأت ثورة الأجساد، فعادت الأمور إلى نصابها، وقفت "الوردة" أمام المرآة ترتدي ملابسها على عجَل، ومن خلفها وقف "كوبرا" يكمل ارتداء ملابسه، ليلحق بميعاده في السابعة مع الرجل المجهول، سارت خطوات، ثم أدبرت، فاندهش منها عندما طبعت على شفتيه قُبلة حارة، وهمست له بنعومة:

- هتفضل معايا للآخر ولا هتسيبني؟

- إنتِ شريكتي، وهنتجوز لما كل حاجة تخلص يا مزتي.

- بجد يا كوبرا؟.. إحلف!

كشيطان آثم بدا وهو يضحك، فبرزت أسنانه وهو يسخر منها:

- أحلف إيه يا بنت الهبلة، هو إحنا شيوخ!

- لو اتكشف الموضوع هنروح ف حديد وهنخسر كل حاجة.

جذبها من ذراعها مثبتا نظراته على عينيها مباشرة، ونطق بحِدة كإنسان آلي منزوع الشعور:

- كوبرا ما يعرفش الفشل، واللي يتسبب في فشله تبقى قصادها روحه.

بكف يده أشار إلى رقبتها، في تهديد صريح بالذبح إن كررت ما نطقت به، فنكست رأسها باستسلام، قبل أن يأمرها بالانصراف سريعا، حتى يتسنَّى له الخروج بعدها بدقائق، كي لا تلتفت إليهم أنظار العامة من المتطفلين.

نفَّذت ما أمر، فأشعل سيجارته وشرع في تدخينها بهدوء، نظر في ساعته حتى لا يتأخر عن ميعاده، وفي عقله تدور ذكرى أهم حدث في حياته، الحدث الذي يعتبره كالمشي على خيط دقيق، لو انحرف عنه مليمترات قليلة؛ سيسقط في نيران أبدية سوداء كجهنم.

****

- مش هاشتغل في المقاولات تاني!

خرجت من فم الابن، تخترق أذن الأب، الذي صحا من غفوته القصيرة، لدقائق حاول استيعاب ما نطق به، وسأله مستفهما:

- كيف يا راضي اللي بتقوله؟

- ده قراري يا آبا.. مش هاشتغل في المقاولات تاني.

بحِدة قالها الابن؛ فاتكأ الرجل على عصاه خوفا من سقوط غادر، ران الصمت في الغرفة، وكلاهما يقف في مواجهة الآخَر، كُتل من الضجيج ضربت أعماق الأب، وكأن للصدمة صوتًا وثقلًا، أحس بالضربة في منتصف ظهره تماما، ها هو عماده الوحيد يلفظه بجحود، امتدت حبال الصمت، فقطعها "راضي"، الذي همَّ بالخروج، فلحقه بحنكة عجوز داسته حوافر الأيام وقال:

- اللي تشوفه يا ولدي.. في إيه بدك تشتغل؟

وقف "راضي" بمحاذاه باب الغرفة، من خلفه أختاه تجلسان على مقاعد الوهن، واحدة تغزل خيوط الصوف لتصنع جوربًا صغيرًا يقيها البرد القارس، والأخرى تتابعها في صمت، أجاب وهو يهم بالمغادرة:

- لما أفكر هابقى أبلّغك يا حاج طاهر.

أيام طويلة قضاها بلا عمل، يتفنن في استحلاب الأموال من الأب، الذي توزعت ضربات الزمن على جسده وروحه على حد السواء، يتسكع في الطرقات، من مقهى لآخَر، كذبابة لا تمل من الحركة، استشعر الأب حينها أنه قد سقط تماما في هوة بلا قاع، هو الآن يتجرَّع عصارة الثمرة التي غرس بذرتها، أصبح مجرد عجوز، يتناثر الشيب على ملامحه وروحه وقلبه على حد السواء، يحاول استمالة الولد للعودة إلى كنفه مرة، ويبكي وحدته وضعفه مرات،

من قال إن البكاء يغيِّر شيئًا.. البكاء فقط يقي الإنسان من خروج الروح عقب كل حسرة، أصبح رفيقه في الليالي التي طالت، حتى قطعه ذات ليلة صوت "راضي"، الذي دخل عليه، وأخبره أنه يريده في موضوع مهم..

- التجارة يا آبا.. هاشتغل في التجارة.

انحنت الأيام، ليخطو من فوقها الابن كالفهد، وذابت السنوات كذوبان قطعة ثلج سقطت في قرص الشمس، افتتح له "طاهر" وكالة ضخمة لتجارة المواد الغذائية والعطارة، ليصبح في سنوات قليلة من كبار التجار، كأنها تِركة يتسلَّمها الابن من الأب، استوى جسده، واشتد عوده، لتنحسر الصحة عن جسد "طاهر"، الذي نهشه ثعبان المرض بلا رحمة، لتنهزم قوته أمام سطوة الألم.

لم يكتفِ الابن ببعض الدماء التي ضخَّها والده في شرايين تجارته، التي راجت، فشرع يمتص كل دماء تجري في جسده حتى جفَّ تماما، انقطع العجوز عن العمل وسط حسرة ابنتيه، تريان دمعاته الحارة حزنا على ما وصل إليه، يصارع وحده المرض والفَلَس بعدما نضبت صحته، فأصبح "راضي" هو العائل له ولأختيه!

جلس العجوز في كنف أنثيَيه، كلما نظر إلى وجهيهما الصابحَين؛ تذكَّر فيهما "روحية"، وبكاها كأنها غادرته منذ أيام معدودة، نضجت ثمرتا التين، وفاحت روائحهما الشهية، فجذبت كل مشتهٍ.

تقدَّم إلى "طاهر" شاب يعمل في دبغ الجلود، لخِطبة ابنته البكرية "زينات"، وبالفعل تمت الخطبة ليرقص قلبه فرحا بعد أعوام طويلة من الحزن.

حيرة وترقب لما هو قادم.. للمرة الأولى يشعر "طاهر" بعجزه التام، فهو الآن بلا قوة ولا معين، يجلس في انتظار ولده ليحدثه في موضوع مهم، طالت غيبة الابن، فامتد الانتظار حتى أذان الفجر، عاد "راضي" يتساقط من بين يديه رماد السجائر بلا خشية أو خجل كما كان يفعل سابقا، تحدث الأب إليه بغلظة:

- بقيت زي الكراكيب في البيت يا ولدي، ما عاد لي قيمة.

بلا مبالاه رد:

- مش هنخلص من الغنوة دي يا آبا!

ابتلعها الأب فلم يتحمل مرارتها، لينطق بصوت مهتز:

- دلوقت أختك قريب هتروح على بيت عدَلها، وبِدِّنا نجهِّزها.

- طب ما تجهزها يا حاج، أنا إيه دخَّلنى بجهازها!

صمت الأب لثوان محاولا استيعاب ما قاله الابن، الذي نهض ليدخل غرفته فاستوقفه:

- منين أجهزها يا ولدى، أنا صرفت كل مليم في وكالتك والباقي راح في علاجي.

لوَّح الابن بيده وقال بصرامة:

- لك مني مصروف شهري يا حاج، اتصرَّف فيه زي ما تحب.

من خلف باب الغرفة وقفت الفتاتان تسترقان السمع للحوار الدائر بين الأخ والأب، تبادلتا النظرات التي تفيض ألما من هذا الأخ الجاحد، فلم يكفه أنه امتص دم الأب ليصنع مستقبلا، والآن يعلنها صريحة، أنا وأنا ثم أنا ولا أحد من بعدي!

سياج من الصمت بناه "راضي" وبداخله سكن، لا يتحدث إلى أحد، كأنه يسكن مع غرباء لا تربطه بهم أي علاقة، يدس بعض الأوراق المالية في مظروف ورقي عند بداية كل شهر، ويضعه لوالده على المنضدة قبل خروجه، أشهر طويلة قضاها الأب حتى استطاع تجهيز ابنته ليحل عليه الوافد الجديد، لا يدري.. هل يسعد أم يسمح للحزن أن يرافقه عقب سماعه لهذا الخبر!

جاءه أحد الشباب لخطبة ثمرته الصغرى "صافية"، تبسم الرجل بمرارة، وطلب منه أن يمهله بعض الوقت، فألح الشاب عليه بأن يسرع في إتمام الزيجة، أخبره بما سمع عنه وعن أهل بيته، يتحدث الناس عن طيب أصله وكرمه الزائد.. استشعر الرجل الحرج وهو يستمع إلى حديث الشاب المغلف بالحماسة والفخر، فالبيت الذي يسكنه يشي بأنه من علية القوم، فكيف له أن يخبره بتعثُّره في تجهيز ابنته!.. الله وحده يعلم كم عانى ليشمل ابنته

البكرية بالستر في زواجها، والله وحده من سيتمم هذه الزيجة، تلاعبت الحيرة بعقل العجوز، الذي جلس بصحبة الشاب، يناوله قدح القهوة ويسأله عن بعض التفاصيل الخاصة، فأجابه بكل صدق ليجد الأب أنه لا مفر من الموافقة على هذا الشاب، وليقدِّر الله الخير أينما كان.

علت الزغاريد، وتزينت العروس، تأملها العجوز كأنها حورية سقطت من الفردوس الأعلى، انحنت تقبِّل يده، فالتقط كفَّها وقبَّلها بحنو، قُبلة خلفها مئات الاعتذارات، يوَدُّ لو يوقف عربة الزمن، ويعود بها قبل خمسة وعشرين عاما، ليعيد حسابات كان الخطأ هو مسارها الوحيد.

الخطأ.. تلك الكلمة التي حذفها "طاهر" من قاموسه منذ بداية حياته، فهو لا يخطئ، يرى الأمور تسير وفق رؤيته، هروب، ثم عمل، ثم زواج، فإنجاب مرة وأخرى، حتى توفت الزوجة، يفكر.. يرى الأحداث كأنها ارتسمت على شريط سينمائي يسير أمامه ببطء، كل شيء كان من اختياره الحر، لم يجبره أحد على شيء.. إذن، أين الخطأ!.. ما الذي أوصله إلى هذه النتيجة، أهذا ما كان يحلم به ويرنو إليه!.. يجلس وحده ليلا، ينتظر ولده الذي عاد ليتكرر نفس المشهد..

- طبعا هتقولِّي أساعد في تجهيزها!

رد الأب بعصبية مفرطة:

- إياك تكون فاكر إنك بتصرف من حُر مالك، كل اللي إنت

فيه ده من خيري.

أولاه الابن ظهره وتركه يكمل حديثه مع نفسه، ليتوحَّد الأب مع دموع حسرته، التي لو انسكبت على قطعة من حديد لصهرتها، اقتربت منه "صافية"، وربتت بحنان على كتفه، وهي تخبره أنها لا تريد مساعدة أخيها، فقد تعلَّمت الحياكة من أختها، وأنعم الله عليها ببعض الصديقات اللائي يقصدنها لتفصيل بعض الملابس، مقابل مبالغ ليست هينة.

سمعها الأب فتضخَّم ألمه، احتضنها وسالت دموعه، فطمأنته "صافية":

- ما تحملش هم يا آبا، بناتك ما يتخافش عليهم.

قالتها ومسحت دمعاته بأطراف أصابعها، ربت على كتفها؛ فطمأنته وغابت دقائق، أعدَّت كوبًا من اللبن الدافئ، قرَّبته بخفة من شفتيه، فبللتها ليبتسم، تعلَم جيدا أنه كان يعشق هذا الأمر عندما كانت تقوم به الأم الراحلة، لطالما حكى لها عنها، كم كانت رقيقة، حنونة، ولطالما تجرَّعت الظُلم على يديه، بكى وهو يخبرها عما فعل بها، وكم كانت متسامحة، احتضنته "صافية"؛ فقبَّل يديها، وهو يطلب منها أن تسامحه على أنه لم يكن لها ولأختها أبا مثاليا.

****

فى تمام السابعة وقف "كوبرا" أمام فيلا الرجل المجهول في الشيخ زايد، استقبله أحد مساعديه وأدخله حيث ينتظره مضيفه، لم يرفع بصره عن الأرض قبل أن يشير إليه الرجل بحسم أن يتحدث إليه، فنطق "كوبرا":

- الباشا يؤمر.

خرجت الكلمات من الرجل بلهجة رصينة:

- سبق وطلبت تتعامل معانا، وافقنا نرفعك بس واضح إنه كان قرار مش مظبوط!

تلجلج لسان "كوبرا" الذي حاول اختلاق الكلمات من الهواء؛ ففشل، كأن الرجل قد سحب الهواء من المكان بإشارة من يده وأردف:

- غالبا إنت حابب تفضل حتة معر* ما لكش كرامة.

نكس "كوبرا" رأسه عقب سماعه لهذه الكلمات، فأكمل الرجل ساخرا:

- إلا قُلِّى.. لسه بتجيب البنات لعبد العال بتاع المجلس المحلي؟

قالها وضحك، فاضطر "كوبرا" أن يجاريه بالضحك، الذي أظهر الرعشة الكامنة في أعماقه، قطعها الرجل وأردف بصرامة:

- إحنا هنا عارفين انت بتعمل إيه.. وبتكلم مين.. وإيه

أولك.. وإيه آخرك..

كأن كلمات الرجل تتحول إلى أحجار تسقط على كتف "كوبرا" ورأسه، فكلما نطق بكلمة يزداد انحناء جسد "كوبرا" أمامه، حتى كاد يصل إلى الركوع، تأمله بنظرة متفحِّصة وهو يشير إليه أن يجلس؛ ففعل، صوَّب نظراته مباشرة إلى عينيه وقال:

- شغل الكوكا اللي طلبت تشتغل فيه محتاج فلوس، وإنت عارف من الأول، وقلت هتتصرف، بس ما قولتش إمتى ومنين.. هو التعر** بقى بيجيب فلوس وأنا معرفش!

- يا معالي الباشا والله الفلوس هتجهز قريب، أنا بانهي موضوع كده هيطلع لي من وراه قرش حلو.

قالها "كوبرا"، فجاء الرد نظرة لاهبة أخرسته، داعب كلبه الشرس، الذي تدلَّى لسانه، وهو ينظر إليه كأنه يريد الفتك به، هرب بنظراته بعيدا عنه، فظهر في مجال رؤيته إحداهن، دخلت على غفلة، فأعاد تنكيس رأسه، ليعود الرجل إلى الحديث ساخرا:

- لايق عليك الكسوف يا بتاع الوردة!

سمعها "كوبرا" فاتسعت عيناه، ودبَّت في جسده قشعريرة، كادت تسقطه من فوق مقعده، أدرك أن هذا الرجل يراقب أنفاسه، يعلم عنه حقا ما يخفي وما يعلن، هو الآن قد سقط في فخ محكم، إما أن يطيع أو يفقد كل شيء، وأول الأشياء التي سيفقدها... حياته.

تركه الرجل يصارع أفكاره، يدرك أنه في هذه اللحظة يختنق، الحبل يضيق بمرور الوقت، طرفا الحبل يقبض عليهما إثنان لا يعرفان الرحمة.. الطرف الأول في يد الرجل، والطرف الآخَر في يد الوقت، كلاهما يجذب من ناحيته، بعدما أحكما تطويق عنق "كوبرا".. لا سبيل للمهادنة أو الهروب.

للحظات عاتب نفسه، لم لم يقنع بالأموال التي يحصل عليها من مهنته، التي أجادها وبرع فيها.. القوادة! عشرة آلاف من هنا، وخمسة من هناك، قطعة من المشغولات الذهبية يسرقها أحدهم من زوجته، ليعطيها له مقابل ليلة في أحضان عاهرة، تساعده على اكتشاف طريق آخَر للَّذة.

عشرات الآلاف من الجنيهات قبض عليها بيديه، كالعاهرات كانت.. لا تبيت معه سوى ليلة واحدة، يحصل عليها من مصدرها، لتذهب إلى مصيرها المعلوم، فالحشيش الأفغاني الذي اعتاد عليه صدره لا يعرف مهادنة، لم يعرف يوما شيئًا عن الادخار، حتى جاء اليوم الذي شعر فيه بأنه جرذ عديم القيمة، مجرد قواد لا كرامة له، أراد حينها القوة.. النفوذ.. أن يشعر بقدرته على إحناء الرقاب، وللدقة.. يريد ذات يوم أن يجلس على نفس كرسي الرجل، الذي يحدثه الآن بكل احتقار!

انتشله الرجل من سيل الأفكار الجارف وقال بخشونة:

- شهرين يا كوبرا.. شهرين وتكون فلوسك جاهزة، وطبعا مش محتاج أقولك ده لو ما حصلش هيكون مصيرك إيه.. انت اخترت تدخل الجنة وقبلناك، بس لو رجلك خطت برة منها انت عارف الباقي.

بإشارة من يده نهض "كوبرا" رافعا رأسه، صوَّب نظراته في عين الفتاة، التي وقفت بجوار الرجل، متفحصا منحنيات جسدها بوقاحة مقصودة، فازداد نباح الكلب عليه، أشار له أن ينصرف، فخرج تتقاذفه الأفكار، هو الآن يسير في نفق طويل له اتجاه واحد، إما أن يكمله حتى يصل إلى النور، أو يتراجع فتتلقفه الكلاب والثعابين والأفاعى المنتشرة في بداية النفق، ويصبح مصيره بين أنيابهم.

خرج "كوبرا" من الفيلا، وملأ صدره بالهواء، شعَر بأنه قضى نصف دهر في هذا اللقاء اللاهب، تحسس جيبه ليخرج هاتفه، الذي أغلقه قبل اللقاء، ضغط مطولا على زر تشغيل الهاتف، فأضاءت الشاشة، ليظهر الوقت، إنها التاسعة مساء، أوقفه بعض الرسايل النصية، التي وصلت دفعة واحدة، تفيد بأن الهاتف تلقَّى ثماني مكالمات في فترة إغلاقه، تجاهلها وتوقَّف عند رسالة من "الوردة".. فتحها وقرأ نصها (بكرة الساعة تلاتة بالظبط.. ما تتأخرش)...

****

خطا أمامها ببطء مقتربا من الفوهة رويدا رويدا، ثم توقف فجأة، يفصله عنها سنتيمترات؛ فأشارت له أن يسكب بصره في الفوهة ليري ما يجهل.

على غفلة منه، دفعته الفتاه بكلتا يديها، ليعبر الخط الفاصل، ساقطا في باطن الفوهة، فترك نفسه مستسلما، يمارس جسده السقوط في غير المعلوم، دون وعي، أو إرادة، أو إدراك.

كمن يسبح في بحر عاصف أصبح، تتدافع ذرات الهواء لتدكَّ صدره بعنف غير مبرَّر، كدبابيس فولاذية مسنونة، تعشق شَقَّ الجِلد واللحم وسيلان الدماء، مختلطة بقذائف رملية، أَرسلها له من يريد إكمال بهاء المشهد، والتعجيل بنهايته....

الفصل الثالث

مشاعر متضاربة بين الرغبة في خوض التجربة والخوف منها، ضربت أعماق "جمال"، الذي ضغط على زر الاتصال، فجاءَهُ صوت رنة الهاتف المتكررة على وتيرة ثابتة، أبعده عن أذنه حتى لا يصيبه بالمزيد من التوتر، وهو يفكر في شيء كفيل بإغراقه في بحر من التوتر والقلق، فكر للحظات في إلغاء الاتصال، والتراجع عن الفكرة، قط مجهول المصدر آنسه في مسكنه، لا يدري كنهه، هل هي رسالة مقصودة أم شيء غير ذلك.. ربما تتجلى الحقيقة عما قريب، أما عن الكارثة الأكبر، والتي - بلا شك - ستؤدي به إلى الجنون، فلا سبيل لمواجهتها سوى خطوة جريئة، لم يفكر في خوضها من قبل.. بين الإقبال والإدبار تأرجح، فقطَع تردُّده صوت "حودة العفاش"، الذي ردَّ بصوته الجهوري:

- عم الناس وسيد الناس.

سمعه "جمال" فأجاب:

- حودة العسل، مسا الجمال يا برنس.

تنحنح وأردف بصوت خافت:

- انت فين يا اسطى حودة، أصلي عايزك في موضوع مهم.

ضحك "حودة"، وقال بلهجة ذات مغزى:

- انت موطِّي صوتك ليه كدة يا عم الناس؟ هى المودام جمبك!

افتعل "جمال" ضحكة، ثم قطعها فجأة :

- عايزك تشوف لي حاجة من عندك يا حودة.

- حاجة إيه يا باشا، مش إنت لا مؤاخذة متجوز؟

- عندي شوية ظروف يا حودة مش لازم تعرفها، هتتصرف لي ولا لا!

تعالت ضحكة "حودة":

- خلاص يا باشا ما تزُقِّش، قولِّي عايز واحدة ولا تحب تغيِّر ونجيب لك عيل صغير لوز؟

برقت عينا "جمال" من فجاجته؛ فرد بصلابة:

- واحدة يا حودة، أي واحدة وشوف لي مكان الليلة.

- آمين يا باشا، الساعة تمانية عدِّي عليِّ على القهوة، ونخلَّص المصلحة دي.

قالها؛ فأومأ "جمال"، الذي أغلق المكالمة، حتى دون أن يلقي السلام عليه، بدأت معرفته به في إطار العمل، يعمل"حودة" سمسارا للعقارات، وهو أيضا أحد الشركاء في بعض المشروعات التي لها علاقة بمصلحة المساحة، التي يعمل بها جمال، في إحدى اللقاءات، أعطى له رقم هاتفه وأخبره غامزا بعلاقاته المتشعبة في عالم اللذة، رفض "جمال"، وأخبره أنه متزوج، فألحَّ عليه مقرِّرا بأنه لابد

أن يخدمه في هذا الأمر، فشكره وانتهى الأمر، إلى أن جاءته اليوم هذه الفكرة، لماذا لا يجرب تذوُّق طعامًا آخَرَ غير الوجبة التي اعتاد عليها منذ زواجه، فربما تتيسَّر الأمور، وتعود الماكينات المعطَّلة إلى العمل.

هكذا حدَّث نفسه خلال الدقائق الفاصلة، قبل اللقاء في المقهى، انتظارا ل"حودة" الذي جاء في ميعاده ملوِّحا له بيديه:

- تمانية بالدقيقة يا عم الناس، مواعيد بنوك دي.

تأهَّب "جمال"، ووضع يديه في جيبه ليبرز ورقة من فئة المائتي جنيه، وقبل أن يمد يده بها ل"حودة"، هب فيه صارخا:

- انت بتعمل إيه يا بييييييييييييييييييه؟

تلفَّت "جمال" حوله، وقال بصوت مرتعش:

- دي حاجة بسيطة عشان الست اللي هنروح لها، مش لك والله يا حودة.

لاحظ "حودة" توتُّره؛ فأخفض من صوته وهو يقول:

- دي باعملها خدمة لحبيبي جمال بيه، حط فلوسك في جيبك ويللا بينا، البيت في آخِر الشارع.

دسَّ "جمال" أمواله في جيبه، حتى يُخرس لسان "حودة"، الذي اقترب من إعلان ما سيفعله في مكبرات صوت، ليسمعها أهل الشارع، والمدينة، ومصر بأكملها، عرج فجأة إلى أحد الشوارع الجانبية، فتبعه ليدخلا أحد البنايات

الآيلة للسقوط، توقَّف "جمال"، فضحك "حودة"، الذي جذبه من ذراعه مشجِّعا:

- تعالى يا بيه ما تخافش، البيت حديد بس بيتهز من النشاط.

توسَّل إليه بنظراته أن يخفض من صوته؛ فأوما مكملا حديثه:

- الشقة في الدور التالت، أنا مفطَّم البِت على كل حاجة وهتشوف مزاج مزاجك.

قالها وودَّعه بصمت، فصعد وحده، تأرجح بين التراجُع والتقدُّم، إلى أن حسم قراره وضغط جرس باب الشقة الكائنة في الدورالثالث، استقبلته فتاه تدثَّرت بإسدال فضفاض، استفسرت منه بأدب عما يريد، فأخبرها أنه من طرف "حودة" لتدخله في صمت وتغلق الباب.

تأمَّل المكان، فلفت انتباهه تلك اللوحة المؤطَّرة بإطار مذهَّب، مكتوب عليها عبارة تحُث على إتقان العمل!.. تعلَّق بصره بها في اندهاش واضح، قطعه لمسةٌ ناعمة من أصابع بيضاء، لكف مكتنزة لينة، التفت ليرى تلك التي استقبلته على الباب، وقد خلعت عنها إسدالها، ليرى منها ما لم يخطر على قلبه.

تكحَّلت؛ فبَدَتْ عيناها كقمر يحيطه ليل مبهج، زلزله أحمر شفاهها، الذي برق متَّحِدًا مع بياض بشْرَتها الشاهق، كقلب ثمرة جوز الهند، دارت حول نفسها دورات كاملة،

لتُسكِر عينيه بمفاتنها الثرية، أدرك حينها أن هناك من يملكن كنوزًا من الجمال، لا يجرؤ حتى على تخيُّلِه، اقتربت وهمست في أذنه:

- عجبتك؟

سال لعابه:

- قوي قوي قوي.

جرَتْ بخِفة ناحية دولاب خشبي، فتحت أحد أدراجه، وهي تسأله بخلاعة:

- بانجو ولا حشيش؟

كمن لدغه عقرب أجاب:

- لالا كله إلا ده.

ضحكت، فأفقدته صوابه:

- انت وكيفك، يلا يا شبح.

قالتها، واستلقت أمامه على سرير، مفروش بمفارش حريرية ناعمة، ووسائد صغيرة، منقوش عليها رسوم مثيرة، فخلع ملابسه كأنه مغيَّب، التحم بما أمامه، كأنه يريد أن يبتلعها بداخله، يريد أن يصرخ فيها.. يزأر.. تفور الدماء في عروقه، فيدك عظامها، ويدهس لحمها، الذي اختلط بحبات العرق المتساقطة من جيبنه، سلَّمته مفاتيح حصونها، التي لم تكن منيعة أبدا، كمزار سياحي كان جسدها البض، الذي وطأه عشرات العابرين والزوار، كلٌّ

له نكهة تختلف عن غيره، عدا هذا الرجل الذي يعتليها الآن.. كماكينة عاطلة عن العمل كان.. حاولت تحريك تروسه، علَّها تستجب وتدور، فأعلنت عدم قدرتها بعد عشرات المحاولات، توقَّف للحظة، يلتقط أنفاسه، فأصابه دوار أسقطه رغما عنه بجانبها، فأعطاها ظهره مغمِضًا عينيه.

مرَّت لحظة، فشعَر بحركتها بجانبه، فلم يحرِّك ساكنا، انقضت ربع ساعة، فالتفت ليتفاجأ باختفائها من خلفه، كأنه غفا ولم يشعُر، نهض وارتدى ملابسه، ليخرج من الغرفة، فرآها جالسة على مقعد بجوار الباب، متدثِّرة بإسدالها الفضفاض، تنظر له باستهانة واضحة، وقالت:

- حودة جايب لي واحد كسْر باين كده!

قالتها، ورنَّت ضحكتها، فكأنما لسعته على قفاه، بعدما فشل تماما معها، تسارعت خطواته إلى الباب، فخرج مهرولا حتى وصل إلى حوش البيت، ليتوقَّف لحظة، تساقطت فيها دموعه على رجولته، التي فقدها بغير سبب معلوم، انتهى هطول دمعاته من سماء عينيه، لتفور أمعاؤه معلِنة حالة من التقلُّب الرهيب، الذي انتهى بقيء غزير، غير منقطع، كأنه يتقيَّأ أمعاءه ذاتها.

****

تزوَّجت الأنثيان، وبقي "طاهر" وحيدا بصحبة ولده، الذي اعتزل كل الأشياء، لم يعد يهتم بأمر أي شيء سوى تجارته وأمواله، التي أراد لها أن تحيا وتتكاثر، كأنها من نسله وذريته، يتحدث لسانه بلغتها، وتتحرك أصابعه فقط لعدِّها، وترتيبها وحسابها!

ضاق بما يفعله ابنه الوحيد، فانتظره ذات ليلة، يود لو يربطه من رسغيه وقدميه، ويُجلسه أمامه، ليلقِّنه درسًا من دروس الحياة، طال انتظار الأب، حتى عاد "راضي" قبل انجلاء الليل بدقائق، فاستوقفه:

- رايد أتكلم وياك يا ولدي.

بتعجُّل دخل ليخلع عن جسده ملابسه، التي امتزجت بملح العرق، لا يطيق أن تمس جسده أكثر من ذلك، بلا مبالاة رد على العجوز، وهو يسرع إلى غرفته:

- الصباح رباح يا آبا.

بعصبية رد الأب:

- باقولك رايد أتكلم معاك يا ولدي، ولا ما بقاش ليَّ كلمة!

بنفاد صبر أجاب "راضي":

- خير يا آبا.. قول، أنا مش طايق هدومي وتعبان طول اليوم في الوكالة.

- يا ابني أنا رايد أفرح بك، وأشيل عيالك قبل ما أموت.

- لما يجيلي مزاجي هاتجوز يا آبا، بكيفي...

كلمات كالصفعات خرجت من جوف الابن، خلَّفت كُتلًا من الأذى، الذي اصطدم بروح الأب المهترئة، فتنهَّد وابتلع ما تبقَّى من الحديث بداخله، انسحب"راضي" محدِّثا نفسه بأن الزواج شيء يخصُّه وحده، وإن أراد الزواج؛ فلن يطلب من أحد بأن يتكفَّل بمصروفاته!

زفرة حارة خرجت من صدر العجوز، الذي جلس وحيدا، يبدأ يومه بالاستماع إلى صوت المقرئ بإذاعة القرآن الكريم، ترمِّم آيات الله المنزَلةُ شروخَ روحه، وتلملم شتاته، يود لو كان يجيد القراءة؛ لَمَا كان يترك كتاب الله لحظة، هذا النبع الرباني المنزَّل لتشذيب الروح، وتهدئة القلب.

اقترب من منتصف العقد السابع، جالسا على كرسيه، زاهدا في كل شيء، فلم ينفع المال، ولم يشفع الولد، لم يبقَ له سوى زهرتين، رفضهما في شبابه، ولم يجِد سوى أيديهما، تربت على كتفه في هِرمه، تتبادل ابنتاه الزيارات، فلا يمر يوم إلا وإحداهما بجواره، ترعاه وتطبِّبه، وتعود إلى منزلها آخِر اليوم، تغادر فيعود إلى وحدته.. رفيقته التي لم تمل منه أو تشكو، يتجاذب أطراف الحديث معها، يشكو من ولده، يخاف أن يشكوه إلى الله فيعاقبه، يرتعش بدنه لمجرد تخيُّل هذا الخاطر، فيقاوم التفكير فيه حتى لا يتحقق، لا يغمض جفنه، قبل أن يطمئن على عودة ولده فجرا من عمله، يلقي عليه التحية مرَّة ولا يفعلها

مرات، تقبَّل الرجل هذا الأمر أو للدقة.. اعتاد عليه.

يأتي "راضي"، فيدلف إلى حجرته مهرولا، لتتقيَّأ جيوبه مئات الأوراق المالية، حصيلة تجارته خلال اليوم، يعدّها ويرتِّبها، ثم يلقي بها في خزينة صغيرة بجوار سريره، ثم يخرج إلى الحمام، ويعود إلى سريره، روتين يومي اعتاد الأب أن يراه، حتى جاء اليوم الذي رأى "راضي" قد عاد من الوكالة مبكرا، وارتدى من الملابس أفخرها، متهيئا للخروج مرة أخرى، فسأله ساخرا:

- خارج من جحرك يعني.. أصلها إيه!

بعدم اهتمام أجاب:

- رايح مشوار.

قالها وصمت، رفع الأب عينيه يستحِثُّه على الحديث، كأنه يجذب الكلمات من فمه، تعلَّم "راضي" أن يقتصد في كل شيء، حتى في كلماته، وقف لثوان والتفت إلى والده قائلا:

- رايح أخطب يا آبا.. ارتحت!

ذُهل الرجل لمَّا سمع، وثارت ثورته، فزعق في وجهه:

- رايح تخطب لحالك.. مالكش أهل إياك..؟!

بنفاد صبر رد:

- لا يا آبا.. دي مقابلة واتفاق، وفي الحفلة هتيجي معايا أكيد.. ما تقلقش.

تقزّز الرجل من منطق ولده، وسأله ساخرا:

- والعروسة بقى تبقى بنت مين من أشراف البلد اللي رايح لهم بطولك من غير أبوك!

تردد لسانه لحظات، ونطق بصوت مهزوز:

- بت بحراوي يا آبا.

انتفض الأب عندما نطق الابن اسم "بحراوى"، الذي يعرفه جيدا، فهو مرابٍ باقتدار، لا يفارق يده كأس الخمر، ولا تنقطع قدمه عن زيارة بيوت البغاء، فطن الأب أن "بحراوي" أحكم قبضته على "راضي"، بسلاح لا يخطئ هدفه، وابنته بالطبع لن تختلف طباعها عن والدها، فصرخ في وجهه:

- يا زين ما اخترت.. فاجرة بنت فاجر.

بنظرات خاوية واجه "راضي" عاصفة والده، يعلم أنه لن يوافق على هذه الزيجة، ولكن من أخبره أنه ينتظر موافقته!.. سبق وأخبره بأن قرار زواجه خاص به وحده، وسيتَّخذه في الوقت الذي يريد، وسيختار الزوجة التي تروق له، نفض كلمات والده عن أذنه، فازاده الرجل صارخا:

- بينك وبين بت الفاجر رضايا يا ولد..

نفذَت كلمات الأب إلى أذن الابن، وخرجت من الأخرى، دون أن تمر على قلبه، فذهب وحيدا إلى "بحراوي"، وتمَّت الخطبة على غير رضا الأب، الذي بكى حتى فقد بصره، وصرخ حتى اختفى صوته، ليأتي يوم الزفاف، ويحضر

"راضي" عروسه "هانم"، التي صعدت إلى المنزل، الذي طالما حلمت فقط بالمرور من أمامه، ليراها "راضي"، هذا الشاب الذي يقطر جسده عافية، وتفوح منه قوته وعنفوانه، فيمرقا بداخلها كالنسيم، صعدته هذا اليوم، وهي سيدته، كما قال لها "راضى":

- نوَّرتِ دارك يا ست الستات.

نظرت حولها في انبهار، كمن دخلت الفردوس الأعلى، فمن بعد السكني في إحدى البيوت المتهالكة، كضمير والدها، أصبحت الآن السيدة الأولى لهذا المنزل الشامخ، أغمضت عينيها غير مصدِّقة لهذا الحلم، فاقترب منها "راضي" هامسا:

- الملكة تؤمر.

بدلال قالت:

- شيلني يا راضي.

انحنى وحملها بذراعيه المفتولتين صاعدا إلى شقة الزوجية، مارا على الشقة التي ينام بها الأب، الذي لم يحضر العُرس، توقف للحظات أمام الباب، فنما إلى سمعه صوت بكاء، تجاهله في صلَف، وصعد إلى شقته، وبين ذراعيه عروسُه، التي صنعت له ليلةَ عسل؛ أسكرته حتى فقد عقله، وكامل حواسه، فصار تحت قدميها عبدا، ينتظر الأمر فقط ليجيب بلا ذرة تفكير.

تمددت بجسدها على السرير، وبجانبها "راضي"، الذي

فقد ذاكرته الفائتة، ومزَّق صفحاتها بعنف، نظر إليها كأنه اكتفى بها، اقترب منها، ونثر قُبلاتٍ عشوائيةً على صفحة وجهها، وفي أذنيه يرن صوت بكاء أبيه، الذي سمعه؛ فنفض رأسه، كأنه يطرد هذا الخاطر، ونهض فجأة، ليغطس بكامل جسده في بحر أنوثة "هانم" الثائر.

****

المؤامرات.. لا تنتهي في هذا الكون الواسع، تتخيَّر فريستها جيدا، وتعد العدة؛ لتحكِم السيطرة عليها، تفعلها وترافق الضحية بخِسة، فعلَتْها هذه الليلة عن كثب، اتفق الليل الذي انتصف مع موجات البرد القارس على «جمال»، الذي سار أعلى أحد الكباري، تخللت سهام البرودة خلايا جسده، فانكمش بداخل قميصه الخفيف، الذي تواطأ مع البرودة ضده، تحسس نصفه العلوي بين الفينة والأخرى، ليتأكد من أنه لم ينفرط بعدا!

عشرات من مكبرات الصوت الفاحشة، صرخت بداخل رأسه، الذي أوشك على الانفجار، جر الخطى إلى حيث لا يعلم، هرول على غير هدًى، لا يعي تماما ماذا يفعل، هل يسعى للوصول إلى شيء ما؟ أم يهرول هربا من شيء ما يلاحقه؟ لا شيء في الحقيقة يلاحقه، هو للدقة يرافقه.. يسكنه.. يستوطنه.. يحتلُّه!.. ملايين الأفكار الهائمة في

سماء عقله ترتدي الأسود؛ فتزيد من حِدة الهلع لديه، ماذا حلَّ به.. كيف يُقبل على خيانة «عفاف» بهذه السهولة!.. لم يفكِّر في هذا الأمر من قبل، الكارثة الكبرى أنه فشل في هذا! ما سر هذا الفشل، يكاد التفكير يفتك بعقله المتهتِّك، انتهى اليوم بانتكاسة أحنَت رأسه، حتى وصلت إلى أسفل سافلين، لا يدري حقا حقيقة ما حلَّ به، هل لسائل الفحولة أن يتبخَّر بين ليلة وضحاها؟ هل انتهى عند هذه النقطة بلا أمل في العودة؟!

عصفت الأفكار برأسه، التي امتلأت بالضجيج، هزَّها بعنف عندما رنَّت في أذنيه ضحكات العاهرة، التي سخرت منه، تسارعت خطواته، حتى وصلت إلى الهرولة، جرى، وجرى، وجرى؛ فازداد تكتُّل موجات البرودة، التي اجتاحت جسده، ليتوقَّف فجأة من الإنهاك، توقَّف بجانب أحد أعمدة الإنارة في نهاية الكوبري، فاستند إليه، تلفَّت حوله؛ فلم يرَ أثرًا لأي مخلوق في هذا الوقت، هرب الناس إلى بيوتهم اتقاء البرد، الذي هز الأبدان، وانزوت القطط والكلاب في الأركان، تستمد الدفء من التفافها حول نفسها كالقوقعة، وحْده وقف في نهاية الكوبري، مسندا ظهره لعامود الإنارة، الذي انطفأ نوره في تلك اللحظة.

حاول مقاومة الآلام، التي اتَّحدت مع البرد في عداء واضح ضد جسده، فلم تفلح محاولاته كأنه الطرف الأضعف في معركة، بطلاها يريدان النَّيل منه وإذلاله، وكسْر أنفه بكل الطُّرق الممكِنة، فتحامل على ما تبقَّى

من قوَّته ليحاول فقط الوقوف، خانته قدمه، فانزلق ملتصقا بعامود الإنارة، الذي أصبح ونيسه في تلك الليلة، حدَّث نفسه أنه لا فائدة من عودته إلى المنزل، فليس هناك من ينتظر عودته، فزوجته غضبَى، وتركت المنزل، فضلا عن المصائب التي هطلت على رأسيهما في الشقة، مصائب مقذوفة من المجهول بدَّلت كل شيء!

استكان تاركا جسده يرتخي تماما على الرصيف، لا يعرف هل ما يحدث حقيقي؟ أم مجرد حلم سخيف؟ سينتهى عندما يرن هاتفه في الثامنة صباحا ليذهب إلي عمله، تحسس جيبه ليُخرج هاتفه، الذي فقد كل طاقته هو الآخَر، وأظلمت شاشاته، فدسَّه في جيبه ليُكمل نومه، ظَلَّ على هذه الحالة حتى بدَّد نور الشروق قسوة الظلام، ففتح عينيه بتكاسُل، لينهض فجأة من رقدته الغريبة، ويجُرُّ قدمه، التي قادته إلى منزله.

وصل إلى المنزل في السادسة صباحا، فصعد إلى شقته، وأخرج مفاتيحه بآلية ليفتح الباب، دخل ليجد الشقة مفتوحة النوافذ، تفوح منها رائحة معطِّر محبَّب إلى قلبه، وصوت أم كلثوم يغرِّد من المسجِّل، فاندهش للحظة عندما خرجت إليه «عفاف»، مرتدية قميص أبيض، مكشوف الصدر لتفاجئه:

- اتأخَّرت ليه يا حبيبى كل ده؟

شرد للحظة، ولم يرُد، فاقتربت منه في ذهول، عندما

اصطدمت عيناها بهيئته الرثة:

- جمال.. إيه اللي عمل فيك كده؟

- ....

- مالك؟.. رُد عليَّ!

- ....

تلجَّم لسانه بلجام أخرسه تماما، تقدمت منه «عفاف»، وخلعت عنه ملابسه البالية، ألقت بها بعشوائية في أحد أركان الصالة، ليستند على ذراعيها بكامل قوته، كأنه خارجٌ للتوِّ من معركة أفقدته كل قواه.

صحِبتْه حتى غرفة النوم، وأجلسته برفق على حافة السرير؛ لتخلع عنه جوربه:

- إنت رُحت فين بعد ما سِبتني؟

سألَته؛ فرَدَّ بصوت مهزرز:

- سِبتك فين؟

- لما جيت لي عند ماما وصالحتني وكده!

- ....

توقَّفت نظراته على اللاشيء دون إجابة؛ فأردفت:

- جمال.. انت نسيت؟

- نسيت إيه!

- مش انت قلت لي خلِّي أخوكِ يوصَّلك؟

- يوصَّلك فين؟

- يوصَّلنى هنا...

- هنا فين؟

- جمال.. إنت شارب حاجة أو بتهزر.. صح؟

انتصب جسده فجأة، وصرخ في وجهها:

- إنتِ بتقولي إيه.. عايزة تجننيني!

تراجعت للخلف خوفا من رد فعل غير محسوب، وقالت ذاهلة:

- جمال، إنت جيت لي امبارح الساعة تسعة عند ماما، وصالحتني عشان أرجع البيت.

نظر إليها مليًّا، وسألها بتوتُّر:

- جيت لك الساعة كام؟

- تسعة، وساعتها كنت لوحدي في بيت ماما، عشان هي عند خالتي بتزورها في المستشفى، وإنت حتى كنت غريب قوي!

سمعها فضربت رأسه موجات قوية من الألم، فهو يدرك تماما أنه قضى الليلة الفائتة في أحضان العاهرة، التي أوصله إليها «حودة العفاش»، وقضى ليلته عندها من الثامنة حتى العاشرة، ثم خرج من عندها شاردا إلى شوارع لا يعرفها، حتى أطل الفجر، فعاد إلى هنا الآن.

توقفت أنفاسها، عندما اتسعت عينا جمال، الذي اقترب

منها:

- كمِّلي..

تدافعت دقات قلبها:

- أكمل إيه؟

أجابها بجمود:

- كمِّلي اللي حصل إمبارح لما جيت لك!

استرسلت مندهشة:

- لما ما لقِتش ماما؛ فرِحت قوي، وأنا زعلت منك ساعتها، فإنت قلت لي دي فرصة نبقى لوحدنا وكده.

برقت عيناه:

- كمِّلي.

أردفت في خوف:

- استغرَبت منك ساعتها، لانك كنت ملهوف قوي، وقلت لك ما بيحصلش ليه في شقتنا ده!

أغمض عينيه وسألها:

- ملهوف على إيه بالظبط.

أجابت بخجل:

- ملهوف عليَّ، إنت امبارح كنت حاجة مختلفة، لدرجة إني قلت لك لما نحب نغرفش نيجي عند ماما.

قالتها وهي ترتجف وأردفت بإلحاح:

- جمال، هو إنت مش فاكر بجد ولا بتهزر.. قول إنك بتهزر.

دوامة.. دوامة لفت روحه بعنف، يشعر بها تدور في أعماق جسده دورات عنيفة مجنونة، تسحبه معها إلى الأسفل، يتنفس بعنف كمن يغتصب ذرات الهواء، يستدرجها إلى داخل صدره ويجثم عليها، يفرغ طاقته بعنف ويزفرها بعيدا، ليعيد العملية مرات ومرات ومرات، اقتربت «عفاف» تنظر في وجهه، تريد أن تفهم، ماذا يعني هذا الخرف! وقف في مواجهتها ولطمها بعشوائية على وجهها وصدرها، جَرَتْ؛ فقذفها بالهاتف الملقى على السرير، صرخت وحاولت الخروج من الغرفة، فوقف أمامها بحِدة يمنعها من الخروج، قبض على ذراعها وهو يلهث، بصوت مبحوح نطقت:

- إنت مجنون.. أنا عايزة أتطلَّق.. إنت مجنون... مجنون.

قالتها وتوقَّعت منه الأسوأ.. أن يطبق بكفَّيه على عنقها، حتى تغادر روحها بغير رجعة، أن يمزق جسدها، ينهال عليها باللكمات، حتى يتهشم أنفها، لكنه لم يفعل.. فقط تركها وترك معها دموعه تسيل على وجهه.

باستسلام ترك جسده ينزلق أرضا، يرتعش كما لو سقط عليه دلو مملوء بالثلج، أشفقت عليه؛ فحدثته بهدوء مشوب بالحذر:

- حبيبي.. قولِّي بس كنت فين؟ واتأخَّرت ليه؟ جمال.. إنت بتتعاطى حاجة؟ صارحني!

بنظرة تحمل كل ألم الكون صرخ:

- إنتِ بتخرَّفي!

- ما انت مش عايز تفهِّمني، راجع لي الفجر مش طبيعي، وهدومك وسخة، وتليفونك مقفول، وبتقولِّي أنا اللي باخرَّف!

- ....

- جمال، أرجوك فهِّمني!

طال صمته لدقائق، فجلست بجواره شاردة، لا ينظر أحدهما ناحية الآخَر، تسرسبت دموعها في صمت، ليقطع سيلها كلمات «جمال»، التي جمَّدت كل ذرة في جسدها:

- أنا ما جِتش عندك إمبارح أصلا!

- أمال مين اللي جالي إمبارح عند ماما؟

- معرفش.

- يعني إيه متعرفش!

- ....

ابتلع الصمت كلماته عنه، فوقفت أمامه تنظر له بريبة، تأمَّلها كمن يراها لأول مرة، وهي ترتجف أمامه، فقالت بخوف:

- إيه اللي بيحصل ده، إنت أكيد بتتعاطى حاجة!

أجابها بصمته المميت، فتحولت قطرات دموعها إلى أمطار هطلت، لتروي فدادين الخوف العطشَى، وهو على نفس

هيئته الصامتة الذاهلة.

بحِدة نهض وتوجَّه ناحية الباب المغلق، عندما استشعر وجود شيء ما يحدث خارج الغرفة، تغلغت ذرات الهواء برائحة غريبة احتلت صدريهما، اقترب من الباب وفتحه بعنف، ليرى ما جعل كل شعرة في جسده تنتصب، تراجع خطوات إلى الخلف ذاهلا، في غير تصديق لما يرى.....

****

تربَّعت "هانم" على عرش بيت طاهر، فلا كلمة تسبق أمرها، ولا حدَث يُقام حتى ترضى، منذ وطأت بقدميها هذه العتبة، لا يشغل بالها سوى هدف واحد.. لطالما راودها في أحلامها، وكلمات أبيها "سمعان بحراوي" ترن في أذنيها:

- الواد ده عين أبوه يا بت يا هانم، شاغليه وحايليه؛ تكسبيه، ويبقى خدام تراب رجليكِ.

بخبث ردَّت متسائلة:

- إزاي يا أبو هانم؟

بنبرة أقرب لبائعي اللحم الحرام أجاب الأب:

- بشقاوتك يا بت، إنتِ زينة بنات الحتة، يتهز لك أجدعها شنب ويركع لك.

ابتسمت في مكر، وهزت رأسها وهي تتحسس بكلتا

يديها كنوزها الدهنية الثرية أمام مرآة مشروخة كضمير والدها، تنهَّدت ودسَّت جسدها بدلال في المقعد اللين المقابل للمرآة؛ فانحسر قميصها عن ما تيسر من نصفها السفلي، اقترب الأب منها، وبأطراف أصابعه أشار إليها وقال:

- راضي ديك البرابر، مش عايز السنة دي تعدِّي إلا وإنتِ ست بيته.

حفرت الكلمات في ذهن "هانم"، التي نفَّذت وصايا أبيها بكل تفاصيلها، فما من طريق يسير فيه "راضي" إلا ويراها أمامه، صارت الوكالة التي يمتلكها هي الكعبة التي تطوف حولها يوميا، تزورها بسبب مرة، وبغير سبب مائة مرة، رآها لأول مرة فتبسَّمت، بادلها البسمة، فتصنَّعت التجُاهل، حاصرته كبالون الهواء الضخم، الذي يحيط قطعة صغيرة من الحصى، فلا تكاد تلمس أي من أطرافه، لكنه يشعر بها من حوله، تغمره.. تنعش روحه كلما مرَّت، تهز ما استقر من جسده، كلما اشتم عطرها، صارت في أحلامه لها اليد العليا، كما هي في الحقيقة، إلى أن بادرها يوما واقترب منها:

- ست الستات تؤمر بإيه؟

تصنعت الدهشة:

- بنفسك هتبيع لي يا حاج راضي؟

عدل من هندامه وقال:

- وأوصلهالك لحد عتبة البيت يا غزالة.

ضحكت، فاهتز أمامها كبندول ساعة، لا يدرك يمينه من يساره، أحضر لها ما طلبت، فالتقطتها منه، وبدلال قالت:

- كام يا حاج؟

بغمزة من عينه اليمنى أجاب:

- من غير فلوس يا ست الستات، اعتبريهم هدية.

انتفضت، وتبدلت ملامحها فجأة، وقالت بصوت جاهدت ليبدو غاضبًا في رقة:

- إنت فاكرنى إيه يا حاج؟!.. شكرا مش عايزة حاجة.

ارتعش "راضي"، وانكمش في جلبابه كذكر البط، الذي سقط في بركة ماء:

- قسما بآيات الله ما أقصد حاجة.

أومأت في صمت، ونقدته ثمن ما طلبت، وخرجت في عجالة من الوكالة، وعلى شفتيها شبح ابتسامة، وتنهيدة حارة، أطلقتها عندما التفتت فجأة لترى "راضي"، الذي اخترقها بنظراته، وعلي جبينه سال خيط من العَرق، حتى وصل إلى شفتيه، فادركَت أنه سيركع كما قال والدها، قريبا.. قريبا جدا...

تبدَّل حال "راضي"، الذي حرص على هندامه في الأيام الأخيرة، فلا بد أن ينجح في الإيقاع بهذه الحوراء الشهية، هكذا تحدث إلى نفسه، وهو ينتقي أفخر الثياب، ويتعطر

بأرقى العطور الفرنسية، التي أحضرها خصيصا من بورسعيد، في زياراته التجارية لها، لتدخل عليه ذات يوم "هانم"، وقد وصل به الهيام ذروته، فاقترب منها متوددا:

- هو الحاج سمعان فاضي إمتى نشرب معاه الشاي؟

تصنَّعت الدهشة وقالت:

- هتتشاركوا في شغل؟ ولا عايز منه سُلفة؟

تنحنح وقال:

- عايز منه أغلى ما عنده.

تورَّدت وجنتاها، فوصلت بالفتنة حد السماء، حاول استمالتها لتتحدث؛ فلم تنطق بالكلمات، وإن فضحت ابتسامتها ما تكِنُّه في أعماقها، استأذنته في خجل، وغادرت تسبق خطوتُها الأخرى، لتخبر أباها بما حدث.

تعاقنت يد "راضي" مع يد "سمعان بحراوي"، الذي تهلل فرحا لقدومه، أخبره برغبته في الزواج من ابنته، فكاد يفقد وعيه من فرط السعادة، وقرأ الفاتحة على الزواج، دون أن يفكر "بحراوي" في سؤاله عن موافقة وحضور أبيه، فمجيء "راضي" اليوم بمثابة معجزة تمنَّى أن تحدث يومًا ما بأي ثمن، وتحت أي ظرف.

تذكرت "هانم" هذه الأيام، التي بدَّلت مسار حياتها، ورفعتها من أسفل سافلين إلى أعلى عليين، تمايلت بجسدها أمام مرآتها الضخمة، التي احتلت نصف الحائط، فبدت أنوثتها أمام عينيها كالأسلحة الفتاكة، تعمَّدت

إبرازها بارتداء كل ما شف وخَفَّ؛ لتضمن دوام احتلالها عرش "راضي"، الذي دخل على غفلة، واحتضنها من الخلف:

- الملكة سرحانة في إيه؟

رفعت ساقًا على الأخرى، فسقط بصره عليها، لترتعش شفتاه كأنه يراها للمرة الأولى، أذهب عقله بياضها المرمري؛ فجثا على ركبتيه يقبِّل الظاهر من بياضها، فجلجلت ضحكتها، وتدللت:

- عايزة خدَّامة يا راضي.

من بين لهاثه قال:

- أخدمك أنا.

سحبت ساقها من بين يديه، فكاد يتعثر ليسقط على وجهه، تمالك نفسه، واعتدل فقالت بجدية:

- عايزة خدامة، أنا تعبت من شغل البيت، وكمان ...

صمتت لثوان، فاقترب يحثها على الحديث، فتحسست بطنها المنحوتة:

- كمان أنا... حامل.

أصغي السمع كأنه لا يصدق، فكررتها هامسة:

- أنا حامل يا راضي، حامل.

قالتها وتمددت على السرير النحاسي المفروش بملاءة، داعبتها نعومتها، تقلبت بدلال، فبرزت أنوثتها الناطقة، هرول ناحيتها، فأوقفته بطرف إصبعها ليتجمد كالتمثال،

عندما قالت:

- لا.. انسى، دلوقت فيه حمْل، ولازم أحافظ عليه.

سمعها؛ فانخرس صوته، وجف حلقه، جذبته من كفه، فأصبح وجهه مقابلًا لوجهها، أمرته بعينها قبل لسانها:

- بكرة تجيب لى إتنين يخدموني وينضفوا البيت.

أومأ في صمت، واسنحب من أمامها كتلميذ بليد، أمرته معلمته بالوقوف في مواجهة الحائط، خرج من الغرفة، وتحسس شاربه بزهو قبل أن يغلق خلفه باب الشقة، ليذهب إلى الوكالة لمباشرة عمله، وصل وهو في حيرة من أمره، فمن أين يأتي بخادمات ليخدمن زوجته، ولو تأخَّر في الاستجابة لِما طلبتْ؛ ستحيل أيامه إلى ليل لا فجر له، لتقفز أمامه فكرة صفَّق لها بيديه، فانتبه أحد العمال الذي هب واقفا أمامه:

- عايز حاجة يا حاج؟

شرد مقلِّبا الفكرة بملعقة الذهن وقال:

- آه عايز.

استفسر العامل عن حاجة "راضي" فأجاب بلا تركيز:

- مراتك.

برقت عينا العامل، الذي تقلصت ملامحه ورد بضيق:

- إنت بتقول إيه يا حاج!

تنبه لما قاله، فبدَّل نبرته بشيء من الاعتذار الخفي:

- ياض يا حمار عايزها تروح تساعد الحاجة في شغل البيت.

سمعها العامل، فوافق طمعا في أجر إضافي يساعده على سد جوع جيش الأفواه، الذي يرعاه، لتذهب زوجته ومعها أختها في صبيحة اليوم التالي لخدمة سيدة البيت؛ حرم الحاج "راضي"، التي تفرغت في شهور الحمل للتحضير للمولود، الذي جاء إلى الدنيا، فسلب عقل كل من رآه لشده جماله، فكيف لا يكون جميلا، وهو وليد رحم فاتنة فاتنات الحي، جاء الفتى وكان أول الغيث.

****

غيوم رمادية كثيفة احتلت الصالة الفسيحة، وانتشرت في كل أرجاء الشقة، رفع "جمال" يديه في ذهول لكتم أنفاسه، مانعا تلك الأدخنة الكثيفة من النفاذ إلى صدره، تراجع بخطوات عشوائية، فتعثَّر في "عفاف"، التي انسحبت الدماء من عروقها، وتبدَّلت بسائل الخوف، الذي دفعها بعنف، لتسقط أرضا من خلفه.

النيران النهمة تتجشأ بصلف، كلما ابتلعت في جوفها شيئًا، نيران مجنونة تندفع من غرفة الخزين، استطاع "جمال" تحديدها عندما خرج من الغرفة ببطء، التصق بإحدى الحوائط مبتعدا عن الأنسجة الحمراء الفاحشة، التي لو طالته لن ترحمه.

تذكَّر "عفاف"، التي تلحَّفت بالخوف فصرخ فيها أن

تساعده ليتخلَّصا من هذا الكابوس، فهرعت إلى الحمام، وتبعها يتلقف منها الأوعية الممتلئة بالماء، واحدًا تلو الآخَر، يريد إرواء ظمأ ألسِنة النيران علها تهدأ، تحفزت كل حواسه في هذه اللحظة ليوقف زحفها خارج غرفة الخزين، حتى لا تلتقطها المفروشات، ويصبح من المستحيل السيطرة عليها.

جاهدت "عفاف" لتلتقط أنفاسها بعيدا عن فلول الأدخنة الهاربة من الداخل، والتي احتلَّت كل ذرات الهواء في الشقة، لتتحول إلى غيمة خانقة مخيفة، جال بعقلها خاطر لحظي أنها لو كانت تعرَّضت لهذا المشهد وهي وحدها؛ لماتت رعبا، فلا تستطع مواجهة شعلة تافهة يُحدثها عود ثقاب أصغر من عُقلة إصبع، فما بالها بحريق ضخم، غرس أنيابه في كل محتويات غرفة الخزين، تنهَّدت بعمق عندما انتهى "جمال" من السيطرة على النيران، ليتبقَّى أثرها الخانق.

تطايَرت بقايا الأدخنة في فضاء الشقة، فشرع "جمال" في فتح كل النوافذ، ليطردها جميعا، تحرَّك بهستيريا كالمجذوب، بينما تسمَّرت "عفاف" في موضعها كتمثال منزوع الروح، ازدردت ريقها وهي تشير خلفه.. خلفه تماما.. قرأ في عينيها كل معاني الرعب قبل أن يلتفت بآلية ليرى ما جعل قلبه ينقبض... تراجَع ببطء ليلتصق جسده بالحائط، وهو يشير إلى شيء ما في منتصف الصالة تماما.

تبادلا نظرات تحمل بين طياتها ملايين الأفكار السوداء، فمن حريق مجهول المصدر انتقلا إلى كارثة أكبر، تجلَّت أمامهما عندما انقشعت غيوم الأدخنة تدريجيا، لتعود الرؤية ممكنة مرة أخرى في الصالة، التي لو كانا يعرفان أنهما سَيَرَان هذا المشهدَ؛ ما تمنَّيا أن تنجلي غيوم الحريق!

أشار "جمال" إلى ملابسه المتكومة، التي خلعتها عنه "عفاف" عندما وصل إلى الشقة، وألقت بها في أحد أركان الصالة، ودخل بصحبتها إلى غرفة النوم، ليدخلا في نقاش خرجا منه على حريق غرفة الخزين، ملابسه التي خلعها منذ ساعة، تقطر دماء كأنها نُقعت في وعاء يفيض بالأحمر، لم يصدِّق ما رأى وسألها في ذهول:

- إيه ده؟

- ....

- هو فيه إيه؟

- ....

تكوَّمت "عفاف" بجانبه عاجزة عن النطق، صوَّبت بصرها تجاه ملابسه الغارقة في الدماء، مجهولة المصدر، تلفَّتت حولها في صمت، لترى الحوائط الملطخة بالدماء، كُتل من الدماء الطازجة، كأن هذا المكان قد شهد منذ لحظات قليلة حفلات تعذيب، انتهت بفوران الدماء وانفجارها من عروق الضحية، لتلطخ الحوائط بفجاجة.

انكمش الجسدان في بعضهما؛ ليسودهما صمت صاخب، نظرا إلى بعضهما البعض، ليرى "جمال" صورتَه في مُقلة عينيها قد ارتسمت، وهي تهتز بسرعة ألف مرة في الثانية، كأنه يتعرض إلى موجات كهربية عنيفة، التصق جسداهما، كلٌّ يبغي الاختباء بالآخَر، تمنَّيا أن ينصهر جسداهما، فتذهب مع دخان الحريق، ويخبو أثرهما ليتخلَّصا من هذا البلاء.

طال الصمت، ففض "جمال" غشاءه على استحياء:

- إيه اللي بيحصل!

- ....

لجام من الصمت أحكم وثاقه على لسان "عفاف"، فمنعها النطق، خالفها "جمال"، الذي انطلق لسانه صارخا بهستيريا، تشي بأنه سيفقد عقله لا محالة:

- لييييييييييه... لييييييييه إحنا.. ليييييييه..

اشتعل فتيل حيرته، فاقترب من الحائط، يتلمَّس الدماء، التي تلطخت بها، تشممها.. لعقها.. عقله يقف على حافة يبلغ ارتفاعها ألف كيلو متر، يقترب ببطء ليلقي بنفسه في هاوية مستقرها الجنون، صرخات متقطعة اطلقها حلْقُه، انتقل أثرها إلى "عفاف"، التي صرخت بدورها:

- لازم نسيب البيت ده...

اقتربت، فدفعها بعنف، تعثرت في الكرسي الواقف خلفها ببرود، فسقطت أرضا، بلا مبالاة نظر لها، كأنه لا

يعرفها، تكوَّمت كالجنين في الأرض، تئِنُّ من الألم، تركها وهرول إلى الحائط القريب، وشرع يدكه برأسه حتى أدماها، يقترب رويدا رويدا من الجنون، يتبقَّى سنتيمترات معدودة ليسقط بلا رجعة في هوَّة الجنون.

القاع يغوص في الظلام، فكَّر للحظات، من ظلام إلى ظلام، لن يحدث فرق، فليجرب ظلامًا آخَرَ، علَّه يكون أرحم به مما هو فيه، أرسل قدمه لتخطو الخطوة الأخيرة ...

****

اتَّحدت الرمال الحمراء المتطايرة مع تيارات الهواء المجنونة؛ ليشكِّلا ثنائيا عاشقًا، اتخذا من مسام جلده مسكَنًا، يقضيان فيه أوقات نشوتهما، غير عابئين بسمِّ الألم، الذي انتشر في كل ذرات جسده.

تبسَّم الألم، وأخرج لسانه المشقوق كثعبان خبيث، زحف مقتربا من أذنه، ليخبره بأن يتهيأ.. النهاية تقترب.. تبدَّلت الابتسامة بضحات مجنونة، وهو ينشب أنيابه بين ثنايا جسده.. النهاية تقترب.. الارتطام سيحدث بعد لحظات.. الألم يبتلعه في جوفه بشراهة

****

الفصل الرابع

الدماء كأنها طفحت من عروق خفية في الجدران، بقع لزجة متفرقة كانتشار القيح في جسد عليل، تشبثت عينا "عفاف" بما رأت، ليُحكم الخوف سيطرته عليها بنذالة مفرطة، فقدت تماما القدرة على التحكم في كل الأشياء، سال بولها رغما عنها، فلم تشعر أو بالأحرى لم تكترث، بالقرب منها أوشك "جمال" على السقوط في هوة سحيقة، ينام في قاعها قوارض مجنونة ستنهش عقله.

انغرس جسدها في الأرض، كأنها أصبحت جزءًا منها، بأنين أقرب للمواء تسلل الصوت من حلقها؛ فتنبَّه لها "جمال" الذاهل، انتشلته من ذهوله، فاقترب منها ليرفعها عن الأرض، رفض جسدها الانصياع لفكرة الانفصال عن الأرض، وتشبَّث بها بعناد، كأنها تزن ثلاثة أطنان.

ماذا يحدث.. لماذا نحن.. ما نهاية كل هذا؟.. تردد صدى الأسئلة في أعماق "جمال" بعنف، وقف أمامها كتلميذ خائب، ينتظر السماء أن تمطره بالإجابات، يوشك على البكاء.. العويل.. يستجدي كل الأشياء من حوله، علَّها تشي له بما خفي عنه، توحَّدت نظرته مع "عفاف" المنكمِشة بجواره، يود لو يخبرها بما يتردد في ذهنه، فأشفق عليها من تحميل روحها ما لا تطيق، أدرك أن الإجابات لن تولد من العدم، لابد من البحث عنها، قبل

أن تسقط المقصلة فوق عنقه بلا رحمة.

نهض بما تبقَّى له من قوة، أمسك يدها يساعدها على النهوض، فنجح هذه المرة، همس في أذنها بضرورة مغادرة هذه الشقة، تلفَّت حوله بريبة، يشعر بأن شيئًا ما يراقبه.. يتتبع أنفاسه.. يلاحق خطواته.. سحبها إلى الحمَّام، اغتسلا سريعا ودلفا غرفة نومهما.

تقافزت عشرات الأسئلة في عقل "جمال" أثناء ارتداء ملابسه، فكادت تفقده إياه، كيف وصلت النيران إلي غرفة الخزين المغلقة على الدوام؟ كيف اشتعلت من الأساس؟ ما مصدر هذه الدماء التي تلطخت بها الجدران، وغمرت ملابس قد خلعها عن جسده قبل ساعة؟.. لابد من وجود تفسير لما يحدث، وإلا فقد يقرر عقله الذهاب بغير رجعة!

انتهت "عفاف" من ارتداء ملابسها، لتقف أمامه شاردة كجسد منزوع الروح، متجهمة.. ذاهلة.. فأمسك كفها برفق، وغادرا الشقة دون أخذ أي متعلقات سوى الهواتف المحمولة، وحقيبة صغيرة بها بعض الملابس، سحبها من بين يديها ليحملها، وخرجا من الشقة في ثوان لينغلق الباب بقوة من خلفهما، كأنهما قد خرجا توًّا من سجن خلف أسواره كل ألوان العذاب.

من الطابق الثالث، الذي تقع فيه شقتهما، هبطا مارَّين

على شقتَي الأخوين اللذَين لا يشعران بما يجري، كمن يسكنان في كوكب آخَر، توقفا فجأة أمام عتبة البيت فسألها:

- هنروح على فين؟

أجابت بجمود:

- هنروح على ماما.

سمعها فقصف شعرة الحديث، فلو كان يهرب من جحيم مجهول، فهو بلا شك يتوجَّه الآن إلى جحيم معلوم.. لا يدري لماذا تكرهه هذه السيدة، التي أنجبت زوجته، هل لأن هذا هو العرف السائد بين الحماة وزوج الابنة؟ أم لأن هذه السيدة - على وجه الخصوص - رضعت في صغرها سائل الكراهية؟!

بحذر همس في أذنها:

- هو لازم نروح عند أمك!

كمن لدغها عقرب صاحت:

- هو ده وقته يا جمال.. مش هتبطل طريقتك دي!

تلفَّت حوله في حرج عندما لاحظ نظرات المتطفلين من المارَّة تخترقه، فابتلع لسانه وآثَرَ الصمت، استقلا سيارة أجرة، أوصلتهما حتى منزل الأم، وصلا فسبقته، وتباطأ هو في خطواته على السلم، طرقت باب الشقة لتستقبلها الأم، وهي سيدة مفرطة البدانة، ترتدي بيجاما زوجها الراحل، فلم تستوعب دهون بطنها، التي ترهلت وبرزت

من بين أزرار القطعة العلوية للبيجاما، فتحت الباب دون أن ترتدي نظارتها الطبية؛ فلم ترَ "جمال"، الذي وقف خلف "عفاف".. استقبلتها وقالت بصوتها الذي يفيض بالتقزُّز:

- هو غضَّبك تاني المأسوف على شبابه!

تلجم لسانها، فعاجلتها الأم قبل أن ترد:

- هبِّب إيه المرَّة دي يا بِت، هبِّب إيييييييييييييه؟

احتضنتها ابنتها وهمست في أذنها:

- جمال معايا يا ماما، واقف أهه!

جاهد "جمال" ليُبقي على لسانه داخل فمه، حتى لا يخرج ليلتف حول رقبة هذه السيدة، ليقتلع روحها الخبيثة، دخلت "عفاف"، وخلفها دخل لتستقبله السيدة بملامح وجهها، التي تراكمت عليها أتربة الزمن، وسواد قلبها الذي طفح حتى وصل إلى وجهها، تصنَّع البرود، فبدأت السيدة جولاتها اللسانية الحادة:

- أصلها إيه مشرفنا يا سبع البرومبة، لعل اللي مانعك عنا كان خير!

تنحنح محاولا اختيار أقل عدد ممكن من الكلمات ليرد عليها فقال:

- مشاغل يا حاجة، وآدينا هنقعد معاكِ حبَّة وندوشك أهُه.

تجاهلت السيدة ما قاله، وقامت لتبحث عن نظارتها الطبية، فارتطم إصبع قدمها بأحد الكراسي، لتصرخ كمن رشق سكينًا في قلبها، فأفلتت من "جمال" ضحكة كتمها، حتى لا تتسبب في فقدان روحه ذاتها، هرولت "عفاف"، التي لمحت النظارة موضوعة على المنضدة، فأعطتها لأمها، وضعتها السيدة على عينيها؛ فاصطدمت بملامح ابنتها المنتفخة من أثر البكاء:

- أنا قلت من الأول فيه مصيبة!

هتفت الأم فطمأنتها "عفاف":

- مفيش والله يا ماما، ده بس حصل حريقة بسيطة في الشقة، وهنقعد عندك يومين لحد ما نظبَّطها.

سمعتها الأم، فصرخت في وجهه:

- هو أنا لاقية بنتي، عاوز تموِّت لي البِت محروقة!

جزع "جمال" من الغباء الذي رآه بعينيه يسيل من ملامحها، فقبض على فكِّه حتى لا ينغرس في رقبتها، ليفصلها عن جسدها، فتدخَّلت "عفاف":

- يا ماما دي حريقة بسيطة، بس ريحة الشقة صعبة وكدة.

هزَّت السيدة رأسها، وهي تنطق بما اخترق سمْع "جمال":

- إلهي اللي يأذيكِ يا بنتي؛ ينقصف عمره، ويهلك بدنه!

قالتها وتوجَّهت إلى المطبخ، لتعد لابنتها وجبة الغذاء، لأنها كما قالت: وجهها لا يسُر عدو ولا حبيب، تركتها

"عفاف" واقتربت من "جمال"، الذي جلس على أحد الكراسي مطرِقا رأسه للأسفل، بعد حفلة استقبال أمها لهما فقالت:

- ما تزعلش يا جمال، ما انت عارف ماما!

لم يرفع رأسه، كأنه منوم مغناطيسيا لينطق بآلية:

- أنا بافكر في المصيبة اللي إحنا فيها.

تلفتت "عفاف" في ذُعر، كأنها تذكَّرت فجأة ما حدث في الشقة، لتظل دقائق على هذه الحالة قبل أن تدرك أنها الآن في شقة أمها، فاقتربت منه لتمده ببعض الأمان، الذي تفتقده هي ذاتها:

- كل حاجة ولها حل يا حبيبي.

رفع رأسه فتلاقت أعينهما:

- مش لما نعرف ونفهم الأول يا عفاف نبقى ندور على حل، إحنا أصلا مش فاهمين فيه إيه!

قاطعتهما الأم التي هبطت فجأة كملاك الموت لتتدخل في الحوار:

- مصيبة إيه يا بت اللي بتقولي عليها!

برقت عينا "جمال"، الذي صعقه تدخُّل حماته، فهي إذن لم تذهب لتعد الطعام لابنتها، إنما وقفت ترهف السمع لما يدور من حديث بينه وزوجته، فتناسى كل مصائبه ليتردد في أعماقه سؤال واحد "من أي نبات خبيث نبتت

هذه السيدة!"

صمتا كأنهما نسيا الكلام، فارتفع صوت الأم:

- ما هو أنا لازم أفهم!

نظر "جمال" إلى "عفاف" نظرات ذات معنى، فلو حكيا للأم ما يحدث في الشقة؛ فسوف تخبر كل من تعرفهم شاكية باكية، وإن نفد البشر؛ ستنتقل للحكي إلى الحجر والشجر، وتجلس في هدوء تشعل سيجارتها بعدما تتمم مهمتها في رضا!

صرخت الأم، فكان الرد صمت مطبق؛ أشعل ثورتها، التي زلزلت أعصاب "جمال"، فصرخ في وجهها:

- أنا والله إبن كلب إني واقفت آجي هنا.

تصاعدت ثورة الأم وقالت بصوت جهوري:

- السكة اللي تودِّي يا خويا، في ستين داهية لوحدك!

تدخلت "عفاف" لتهدئة الأجواء؛ ففشلت تماما ليحسم "جمال" الأمر:

- قومى، ما لناش قعاد هنا.

باستسلام نهضت لتحمل الحقيبة الصغيرة، فلحقتها الأم:

- إبقي خلِّيه ينفعك يا روح أمك، أنا غلطانة إني خايفة عليكِ!

في صمت خرجا تاركَين خلفهما الأم تلعن كل الأشياء، لتنظر إليه "عفاف" متسائلة:

- هنروح على فين دلوقت!

بلا رد جذبها من ذراعها ليسيرا معا على غير هدًى، تسيِّرهما أقدامهما إلى ما لا تعلم ولا يعلمان، مشيا حتى نال من جسديهما التعب، فتوقفا أمام أحد الأرصفة العالية، جلسا عليه، وكل منهما قد شرد ذهنه في وادٍ مختلف.

****

ذبلت صحة "طاهر"، سقم الجسد والروح معا، لم تفلح وصفات العطارين، ولا عقاقير الأطباء، في تبديد الألم، يؤمن بأن علاج الروح بيد رب الروح، أغلق عليه باب شقته.. فقط هو ووحدته، لا يد تمده ببعض الماء يرويه، أو بحفنة من الحنان ليضمد جرحه، لا تلج نسمات الهواء كهفه إلا عندما تأتي "صافية" أو "زينات" اللتان نظمتا فيما بينهما مواعيدَ لرعاية الأب القعيد.

ساءت حالة الرجل في الفترة الأخيرة وبدا ذلك على هيئته، تقوس ظهره بفعل ضربات الأيام المتتابعة، وجحود ابنه الوحيد، الذي أنجب من الصبية ثلاثة، لم يرَهم إلا مرات معدودة، بلغ أكبرهم ست سنوات، وأصغرهم لازال رضيعا ينهل من ثدي والدته المسموم.

حرك الرجل عجلات الكرسي المتحرك حتى وصل بجوار باب الشقة، جلس يستحلب مرارة الانتظار، تعصف

الذكرى برأسه فكادت تطيح بها، قبل ثلاثين عاما كاد حلمه يفتك به، يريد أن يطمئن على امتداده في الدنيا، ولده.. رسم ملامحه في مخيلته، شرع في تجهيز خطة مرتبة لمستقبله، أراد أن يجعل منه عودا متفردا لا شبيه له، أهدته "روحية" إياه، ورحلت عن طيب خاطر إلى عالم أكثر رحابة ورحمة.. تأثر بعض الوقت، وما لبث أن عاد لطبيعة حياته، تعامل مع ولده كما الكتل الخرسانية التي يصبها صبا، أراده صلبًا لا يتأثر فاتخذ الولد من المنزل ساحة للتدريبات على الصلابة، وكانت أول الضحايا أختيه!

نما الولد على رؤية والده يسبِّح بأفضليته عن باقي البشر، فلا أحد يجرؤ على رفض أمر "راضي".. كررها الوالد على أسماع الأختين ومعهما المربية؛ فجرى الغرور في الولد مجرى الدم.. والقسوة أيضا!.. كثيرا ما دخل على أختيه ليلا يوسعهما ضربا كما لو كانتا عاهرتين، ضبطهما في أحضان عشاقهما، لمجرد سماعه صوت ضحكة أفلتت من إحداهما، تسقط الدمعات على الوجنات الرقيقة، ولا يتوقف الكف الخشن عما يفعل، حتى يأتي الأب فلا يسأل.. فقط يجذب "راضي" ليهدأ، ويغلق الباب على أنثييه؛ لتبقيا مع الوسائد المبللة بدموع الحسرة.

الذاكرة.. خزينة بابها متواطئ، ينفرج لتتسلل أقسى الذكريات المختزنة على غفلة، تدمي القلب، وتشقي الروح، وتعود إلى موضعها بلا حرج، كلاعب حقير يستخدم أكثر الطرق دناءة، ليحرز الفوز على خصمه المصاب، فعلتها

معه.. خلعت بابها تماما، لتقذف الألم كُتلًا، ككرات اللهب متمثلًا في أقسى الذكريات، تلهبه ولا تميته، تلهو بروحه، ولا تنزعها من جسده، كأنها تتلذذ بتعذيبه، لم يحتمل الألم فبكى.. صرخ.. زادت في دناءتها؛ فارتفع صراخه، الذي قطعه صوت ولوج المفتاح في باب الشقة، يعلن قدوم إحدى ابنتيه، بطرف جلبابه مسح دمعاته قبل أن تراه ابنته، دخلت "صافية" مبتهجة، فرأت أباها على هذه الهيئة، هرولت تقبِّل يديه ورأسه:

- خير يا آبا.. مالك بس صلِّ ع النبي.

قسَّمت البنتان أيام الأسبوع بالتساوي لرعايته، واحدة تأتي يومًا لزيارته وقضاء حوائجه، ثم ترحل إلى بيتها، والأخرى تحضر اليوم الذي يليه، لتفعل نفس الشيء، حتى يأتي اليوم السابع، فتحضران معًا لقضاء اليوم معه، بصحبة صغارهما، دون أن يظهر ل"راضي" طرف، ولا زوجته أو أطفاله، نجحت "هانم" في اقتصاص جذور علاقة الابن بالأب، فلا يمر عليه إلا بإذنها، عندما يحين موعد إعطائه معاشه الشهري، الذي حدده له للإعاشة.

تنهد الرجل، وربت على كتف "صافية" الجاثية أمامه تقبل يديه:

- نفسي بتحاسبني يا بِتِّي.. أنا ظلمتك إنتِ وأختك.

ابتلعت "صافية" مرارتها، ورسمت ابتسامة وهي تقول:

- يا آبا مفيش حاجة، إطمِّن وخلِّي بالك إنت من صحتك.

قطع حديثهما صوت طرقات على باب الشقة المغلق، فنهضت "صافية" لترى من الطارق، فتحت الباب بحرص، فاصطدمت بأخيها "راضي"، الذي دخل راسما على وجهه علامات الضيق، ألقى عليها التحية؛ فردَّت ببرود، ودخلت غرفة الخزين لتحضر ثمار البطاطس، وبعض الأرز، لتجهيز وجبة الغداء، قبَّل رأس والده، ودس في جيبه مظروفًا صغيرًا قائلا وهو يتأهَّب للخروج:

- سامحني يا آبا.. اتأخَّرت عليك يومين، الظروف كانت مزنَّقة شوية.

هز الرجل رأسه، ولم يتخلَّ عن صمته، يدرك جيدا كذب ولده، نظر في وجهه مليًّا علَّه يقرأ ما يختبئ داخل رأسه.

قطع "راضي" الصمت بأن استأذن لقضاء بعض أشغاله، استوقفه الأب، فتعلل بأن الوكالة لازالت مغلقة، ولابد من فتحها قبل آذان الظهر، يدرك جيدا أن "هانم" تقف خلف الباب من الخارج، لتسمع الحوار الدائر، يخشى أن يدور الحوار حولها، فتنفتح طاقات النار عليه عقب عودته، يومان يحاول زيارة والده وتمنعه، مرة تخبره بأنها تريده بجوارها ورضيعها، وأخرى تخبره بأن يؤخِّر مصروف والده الشهري بضعة أيام، لأنها تريد شراء أشياء للمولود.. حتى نهض اليوم، وطوى المظروف الورقي في جيبه؛ فتأففت:

- مش هنخلص من مصاريف أبوك دي!

- الراجل هيعيش منين بس؟.. يللا معلش.

قالها "راضي" وهو يستعد للنزول، وقف ثوانٍ أمام منامة الرضيع، وشرع في حمله، فاستوقفته:

- رايح بالواد فين؟

- هانزِّله لأبويا يشوفه بالمرَّة.

رجعت برأسها للخلف ونطقت بما أخرسه:

- وهو أبوك لسه بيشوف!

سمعها فانخرس صوته أمامها، فالحاج "طاهر" قد فقد بصره بنسبة كبيرة في الأيام الأخيرة وكأن عينيه رفضتا رؤية الأشياء للأبد.

- سيب الواد يا راضي، ما تنزِّلوش لحَد.

صدَرَ الأمر؛ فوجب التنفيذ، انتهى من مهمته، وشرع في المغادرة، فاستوقفه الرجل:

- سمعت إن مَرَتك خلَّفت جديد يا ولدي...

تلجلج لسانه:

- آه يا آبا.. جابت أمين.

- مش كنت تجيبه أشوفه يا ولدي، إنت عارف إن صحتي متقدِّرنيش أطلع له فوق.

تنحنح "راضي" ولم يجد في الكلمات ردًّا يصلح، فعاجله الأب:

- ولا أشوفه كيف يا ولدي وعينيَّ بقت ضامرة، يادوب باشوف النور بالضَّنا.

ارتبك "راضي" وتلجلج لسانه كأنه نسي الأبجدية، ثم قال بخفوت:

- ربنا يديك الصحة والعمر يا آبا.

تبسَّم الأب وقال:

- إبقى وِدّ خواتك البنات يا راضي، دول ما لهمش غيرك.

قالها ولم ينتظر رد "راضي"، الذي أومأ في صمت، وتأهَّب للخروج، بعدما ضاقت أنفاسه كأن صخرة ضخمة تدحرجت من السماء، واستقرَّت في سفح صدره، وجثمت عليه ليستوقفه الأب:

- كمان رايد أخبرك بشيء هاعمله يا ولدي، عشان أخلِّص ضميري قصاد ربنا.

اقترب مستفسرا من الأب عما ينوي فعله، فأخبره بما أوقف حواسه عن العمل لثوانٍ... كأنه غاب عن الدنيا ثم عاد في ذهول تام، ليرد على الأب، وهو يزدرد ريقه في عصبية:

- كيف ده يا آبا..!، اللي رايده ده مايجيش أبدا.

رد الأب وقد أوشك على البكاء:

- رايد أخلِّص ضميري قصاد ربي يا ولدي.

- تقوم تيجي على ولدك!

- وإنت ناقصك إيه، عايش عيشة زينة، وبترميلي ملاليم كل شهر وما بافتحش خشمي!

نهض "راضي" لينهي الحوار بعصبية:

- اللي تشوفه يا آبا.

قالها وخرج دون أن يضيف كلمة، بينما تفور كل خلايا جسده في مزيج من القلق والانفعال والغضب، ليصعد إلى شقته مرة أخرى، فاستقبلته "هانم":

- مارُحتِش الوكالة ليه.. نسيت حاجة؟

أجابها بشرود:

- كل حاجة هتروح يا هانم.

ضيقت عينيها في عدم فهم، كأنها تقرأ ملامحه، فلم تشي بشيء غير القلق، فاستفهمت:

- خير يا راجل قلقتني، فيه إيه؟

خرجت الكلمات من حلقه كالجمر، أخبرها بالسر الذي انتوى والده فعله، تنفَّس بعمق كأنها آخِر أنفاسه في الدنيا، ثم زفر ليطرد موجة حارة عبرت جهازه التنفُّسي لتصل إلى وجهها، فضحكت وقالت ببرود مفتعَل:

- يا راجل إهدى ليطق لك عرق.

كمن سكبت مزيدًا من البنزين لتزيد من اشتعال الحريق، ازدادت ثورته حتى وصلت مداها عندما هب واقفا ليخرج، لا تعلم ما يدور في رأسه، فاستوقفته بنبرة واثقة:

- هاحلها لك يا راضي، بس قولِّي.. الحرباية أختك سمعته؟

تنبَّه للسؤال وأجاب:

- لا.. كانت في المطبخ.

صفقت وجذبته من ذراعه:

- محلولة يا روح هانم.

بيأس رد:

- دي مالهاش حل يا هانم.. دي حلَّها بالدم والموت!

بلمسة واحدة من إصبعها لشفتيه أخرسته، فتوقف سيل كلماته وهدأ تماما، بعدما قالت بصوت هامس:

- قلت لك هاحلها لك يا راجل، إسكت خاااالص وإسمعنى.

قالتها وصمتت لثوانٍ، فاستكان بجانبها على السرير، يتوسَّطهما رضيعها، الذي بكى، فحملته وأخرجت ثديها، الذي تدلَّى فالتقمه الطفل بجوع حقيقي، تقابلت عيناها بعينَي "راضي"، الذي أكلت صدرها، فجلجلت ضحكتها وقالت بخلاعة:

- إنت في إيه ولا إيه يا راجل؟

ابتلع ريقه بصعوبة:

- أنا هنا أهُه.

من بين ضحكاتها لكزته في كتفه:

- طب إسمعني بقى وركِّز كده يا سيد الرجَّالة.

قالتها وأخبرته بما جعل عينيه تلمع، كأنها نجمة سقطت من السماء، أكملت حديثها، فصفَّق بيديه وقد تحوَّلت ملامحه إلى ذئب يتأهَّب للانقضاض على فريسته، ولسانه

ينطق كالمخمور:

- الله يخرب بيت دماغك يا هانم.

****

كمن عثرت على كنز صفَّقت "عفاف"، فاستفاق "جمال" من شروده ليسألها بدهشة:

- إيه.. مالك؟

فركت مقدمة رأسها بخفة وقالت:

- شقة أختي هدى.

- مش فاهم!

- إنت عارف إن هدى مسافرة مع جوزها الكويت وسايبالي مفتاح شقتها، إيه رأيك نروح نقعد فيها؟

- طب وهدى لو عرفت مش ممكن تتضايق!

- يا جمال تتضايق إيه.. قوم قوم.

قالتها وهي تجذبه من ذراعه، فاستجاب بسهولة، كالمنساق دون إرادته لتردف:

- المفتاح معايا في شنطتي، مش عارفة إزاي فاتتني دي!

- هو احنا كان فينا دماغ نفكَّر!

قالها وهو يسير بجوارها كالإنسان الآلي، يشعر بالخواء،

كأن الأفكار تسرَّبت من ثقب خفي في جمجمته، التي أُفرِغت من كل محتوياتها، فبدا كالهيكل العظمي، مع الفارق أنه لم تغادره الروح بعد، توقَّفت "عفاف" فجأة، فأخرجته من تيه الذهول الذي سقط فيه لتسأله:

- فين شنطة الهدوم اللي كانت في إيدك؟

بنظرات زائغة أجابها أنه لا يتذكر، عندما رفع كتفيه في لامبالاة، فنظرت خلفها إلى الرصيف الذي غادراه منذ دقيقة، لتجد حقيبة الملابس لازالت في مكانها، تنظر إليهما ليرِقَّ قلبُ أحدهما ويصحبها معه، تركته وعادت تحمل حقيبة الملابس الصغيرة، وبإشارة صغيرة من يدها استوقفت سيارة أجرة، دست في مقعدها الخلفى جسدها، وبجانبها "جمال"، الذي جلس في صمت لتوجِّه السائقَ إلى عنوان شقة أختها.

أخبرته أن الشقة في الطابق الثالث، سمعها فتولَّد في باطنه تساؤل نطق به في سخرية:

- هو الدور التالت ورانا ورانا!

- الموجود يا سي جمال.

صعدا حتى وصلا إلى شقة مثبَّت على بابها لافتة صغيرة أنيقة، محفور عليها اسم المالك: المهندس "عباس عبد الناصر" زوج أخت زوجته، فتحت "عفاف" الباب، فبدت الشقة مظلمة مقبضة ككهف مهجور، أضاءت صالة الاستقبال، فتأمَّلها "جمال" لثوانٍ قبل أن يلقي بجسده

على أقرب مقعد، وجلست هي على المقعد المقابل، يتوسطهما منضدة بيضاوية عليها نقوش بديعة لروميو وجولييت، ابتسم فسألته:

- إيه اللي في دماغك؟

- أبدا، بس في ظروف تانية كانت هتبقى فرصة حلوة قوي.

- مش فاهمة!

- يعني أول ما قُلتِ لي مفاتيح شقة أختي معايا وفاضية وكده، افتكرت أيام خطوبتنا لما كنا بنخطف بوسة سرقة.

أغمضت عينيها كأنها تستحلب مذاق الذكرى الشهي، وقالت:

- كانت أيااااااام وعدت يا جمال.

انكسرت ابتسامته، وسقطت تحت قدميه بغير وداع عندما سألته في شرود:

- هنعمل إيه دلوقت؟

هز رأسه للخلف وأجاب:

- مش عارف.

قالها ودخلا في رواق طويل من الصمت، بدا أن لا نهاية له، قطعه رنين هاتفه، فأخرجه بتكاسل ليرى اسم المتصل، تأفف قائلا:

- ده حسين زميلي.

- طب رد عليه.

- لالا، هتلاقيه بيسألني ما جِيتش الشغل ليه، وبعدين ده رغَّاي رغي، وهيقرفني.

- يا جمال رد جايز فيه حاجة مهمة.

امتعضت ملامحه وهو يضغط على زر بدء المكالمة ليرد على زميله:

- حبيب قلبي، أخبارك إيه؟

سمعته "عفاف" فخرجت منها ضحكة رنانة رغما عنها، نظر لها معاتبا، فوضعت كفها على فمها، ليكمل المكالمة، فجاءه صوت زميله:

- انت فين يا جيمي.. مختفي ليه؟

- مشغول والله.. عندي مشكلة كدة.

- خير يا حبيبي، مالك ب...

قاطعه بنفاد صبر بعدما أبعد الهاتف عن أذنه:

- مفيش يا سِحْس، كله هيبقى فل، يومين كدة وأرجع الشغل، تؤمرني بحاجة!

- آه يا جيمى، لك جواب معايا يا عم شكله غريب كده.

- جواب إيه؟

- عيِّل صغير جه وسأل عليك الصبح، وساب لي جواب أوصَّلهولك، محطوط في ظرف أسود أول مرة أشوف زيه..

- ظرف أسود وعيل صغير!....

- انزل يا عم قابلني وشوف.

توتر صوته، فاستشعرت "عفاف" أن شيئًا غير طبيعي يدور الآن، لتشير له مستفهِمة، فلم يُعِرْها اهتماما، وهو يغلق المكالمة مع زميله "حسين"، الذي جلس ينتظره في المقهى حسبما اتفقا.

تأهب للخروج، فاستوقفته قلقة:

- جواب إيه وظرف أسود إيه؟

- مش فاهم والله، لما أروح لـ سِي زفت ده وأفهم منه.

بتوتر قالت:

- هتسيبني لوحدي!

ربت على كتفها، وأخبرها أنه لن يتأخر، أومأت في صمت، فتحرَّك بسرعة، كأنه يريد أن يسابق الزمن، ليصل إلى زميله، الذي أخبره بما أشعل القلق في أعماقه، فأي خبر يحمله هذا المظروف الغريب!

وصل إلى المقهى ليجد "حسين" الذي جلس في أحد الأركان، وأمامه ما لا يقل عن ثمانية أكواب فارغة، تجرَّع ما كان بها، وها هو يصفِّق للنادل ليحضر له مشروبًا آخَر، قاطع نداءه حضور "جمال"، فاستقبله بترحاب:

- جيمييي حبيب قلبي، تعالَ يا راجل فينك.

ابتسم بصعوبة وهو يبحث بعينيه عن الظرف الأسود،

الذي حدَّثه بشأنه، وفي أعماقه أقسم بأنه لو اتضح له أن هذه مزحة ابتدعها "حسين" ليقابله؛ فسوف يفصل رأسه عن جسده في الحال، احتضنه وجذب له كرسيًّا، ليجلس بجواره، فسأله عن المظروف، تنحنح وافتعل حركة مسرحية وهو يبرزه من جيبه، منكمشة أطرافه بفعل طريقة "حسين" الغبية في إخفائه بين أكوام الورق عديم القيمة في جيبه..

نظر له معاتبا، فضحك وهو يقول:

- ما انا كان لازم أخفيه يا عم جمال؛ أحسن المدام تفتكره جواب غرامي.

لم يعلِّق "جمال" على دعابته، وجذب المظروف بحده، بحجم كف اليد، مصنوع من ورق مقوى بطريقة يدوية، لمهام خاصة على الأغلب، تلون بالأسود غير المألوف، حتى لا يشي بما فيه، حاول نزع اللاصق القوي، الذي أحاط أطرافه، فاستوقفه "حسين":

- لا يا حلو، مش قبل ما تحاسب لي على المشاريب دي، ده أنا نازل لك مخصوص.

ابتسم "جمال" موافقا على طلبه، وتحسس جيبه ليصطدم بأن حافظة نقوده غير موجودة، تحسَّس جيوبه الخلفية بعصبية، فتدخَّل "حسين":

- إيييييييه، المدام بتقلِّبك يا جيمي!

- لا يا عم إنت لبختني في المكالمة خلِّيتني نزلت بسرعة

ونسيت المحفظة.

- طيب يا عم هادفع أنا وأمري لله، بس افتكر إن كدة ليَّ عندك واحدة.

- آمين يا عم، عينيَّ.

قالها وهو يفتح المظروف بحرص، وصديقه يتابعه كأنه يشاهد لعبة، يريد أن يعرف سرها، وجد بداخله ورقة صغيرة صفراء مهترئة، كأنها مطوية منذ ألف عام، كُتب عليها بخط مهزوز ما جعله ينتفض، سأله "حسين" عما به؛ فلم يُجِبْه، برقت عيناه وهو ينظر إلى الورقة التي قبض عليها بيديه، وغادر المقهى فورا، تاركا صديقه الذي نادى عليه عشرات المرات بلا رد!

تبعه "حسين" بهروله؛ فلفظه كأنه لا يعرفه، ليقف في منتصف الشارع ذاهلا من تصرف "جمال"، الذي انسحب من المقهى كأنه هاربا من شيء ما، تسارعت خطواته.. اقتربت من العدو.. هرول إلى أن وصل شقة شقيقة زوجته، التي يمكثان فيها بشكل مؤقت، فطرَق الباب بعنف لتفتح "عفاف":

- يوووووووووه يا جمال، رجعت ليه تاني!

لم يرد لتعاجله بالقاضية:

- هو انت لحقت، يا ترى نسيت إيه تاني؟

بصوت مبحوح جاهد في نطقه سألها:

- نسيت إيه تاني إزاي؟

بنفاد صبر أجابت:

- مش إنت رجعت أخدت محفظتك من شوية ونزِلت، راجع تاني ليه دلوقت!

سمعها؛ فارتعشت كل ذرة في جسده، كأنها انتشلته من آتون اللهب، لتلقي به في تلٍّ من ثلج، ابتلع لعابه بقوة وسألها:

- يعني إيه جيت أخدت المحفظة من شوية؟

بدا سؤاله غير مفهوم، يحمل خلفه علامة استفهام غير مريحة فسألته بتوجس:

- فيه إيه يا جمال هتقلقني ليه؟

كأنها تحدث كائنًا غير موجود، لم يَرُدّ عليها، وقد سافر عقله في مكان بعيد.. بعيد جدا وهو يطبق قبضته بقوة على الورقة الصفراء، وبجواره "عفاف"، التي شقَّت رأسه بعشرات الأسئلة التي لم تُولد لها إجابات.

****

مكثت الحية في مكمنها تتلوَّى، بجانبها اضطجع تابعها يدرس مواضع زرع الفخاخ، التي أمْلته إياها، لا مجال هنا لإضاعة الوقت، فكل ثانية تسير بهما إلى هاوية ليس لها قرار.. تنهيدة حارة خرجت من صدره، فهمست في أذنه أن ينهض؛ ليلحق بميعاد إفطار المرصود.

نهض "راضي" ومن خلفه زحفت "هانم" بغنج، وقف في انتظارها حتى خرجت من المطبخ، حاملة صينية تحتوى على أطباق صغيرة مزخرفة بها من الطعام أطيبه، فبراءة العسل الأبيض تنافس عنفوان الجبن القديم، وشرائح الطماطم المرصوصة، كما لو كانت وردًا بكامل ألقه، يزيِّنها قِطع صغيرة من الخيار المطعَّم بقليل من الملح، بجانبهم عبوات صغيرة مستديرة من الزبادي المصنوع منزليا، وأرغفة الخبز تتمدَّد بتكاسُل على الحافة، تتصاعد منها الأبخرة، لتتخلَّل أنْف "راضي" الذي قال متعجِّبا:

- الله الله الله...

بحِدة قالت:

- على الله يجيب نتيجة.

لم يعلِّق، اندفع خارجًا ليلحق بميعاد إفطار والده، طرَق الباب بيده الحُرَّة، ودلف ليحرِّر يده الأخرى من الصينية المكتظَّة بصنوف الطعام، طبع قُبلة على رأس والده الذي عاجله:

- غريبة يعني يا سِي راضي.. توَّك ما افتكرت إن لك أب.

تنحنح "راضي" وهو يدعوه لطعام الإفطار متجاهلا سهام الحيرة غير المرئية، التي أطلقها قوس العجوز، مضَغ الرجل الطعام؛ فتذوَّق لسانه حلاوة السكر ورزانة الملح، تعمَّق أكثر فتأذَّى من لسعة الحامض ومرارة خفية دبت في حلقه يجهل مصدرها، توقف فجأة عن مضغ الطعام

سائلا ولده:

- بس غريبة.. الست هانم راضية عليك وعليَّ.

- يا آبا هانم قلبها أبيض وطيبة، بس عيبها إن كلامها طوب.

فطن الرجل لوجود أمر غير طبيعي، فأجابه "راضي" على طوفان أسئلته غير المنطوقة:

- يا آبا.. أنا بقيت أب لتلَت عيال، وعرفت يعني إيه حتة من البني آدم تتنفّس وتتدب على الأرض.

ابتسم الرجل:

- ربنا يبارك فيك ويبارك لك فيهم يا ولدي.

جثا على ركبتيه مقبِّلا يدَي والده، الذي انفلتت دموعه:

- باوصِّيك على اخواتك البنات، أمانة يا راضي.

قاطعه كمن يحفظ ما يقول:

- في عينيَّ يا آبا، ربنا يطوِّل لنا في عمرك.

- لا يا ابنى.. أنا قريب هاروح عند اللي لا بيغفل ولا بينام.

احتضنه "راضي"، وأخبره أن كل شيء سيصبح على ما يرام كما يريد، واستأذنه أن يمهله بعض الوقت لأنه أعدَّ له مفاجأة سارة، تساءل الأب، فلم يجبه سوى بكلمات مقتضَبة، لم ترْوِ عطشه لمعرفة المفاجأة.

انتهيا من الطعام، فغاب "راضي" في المطبخ ليعد أكواب الشاي المطعَّمة بحبَّات القرنفل، تسلَّل إلى ذاكرته ذكرى

المرَّة الأولى، التي احتسى فيها الشاي، كان بصُحبة والده، ذات يوم أرسلت الشمس لهبها الغاضب فوق رؤوسهم، كان ملتصقا بطرف جلبابه كذيل صغير، وقف الرجل في أحد مواقع البناء حيث يعمل، وبجانبه وقف هو يتابعه، وهو يرتشف الشاي، ويدخِّن بلا انقطاع حتى ناداه أحد العمال، ألقى سيجارته المشتعلة في منتصفها، وركن الكوب على الكرسي، فانفرد به، التقط السيجارة يسحب منها دفقات من النيكوتين الممتزج بنشوة المغامرة، بيده اليمنى حمل كوب الشاي الأسود، ارتشف بصوت مسموع كما يفعل والده، وباليسرى حمل السيجارة التي طالما اشتهى مذاقها، انزوى في أحد الأركان بعيدا عن الأنظار، يستحلب المتعة ببطء، غاب في كهف اللذة، فتلهَّف عليه الرجل، الذي انتهى من حواره الجانبي مع أحد العمال، وشرع في البحث عنه حتى اصطدم به يفعل ما رآه، بلا تفكير جذبه من طرف جلبابه، وانتزع السيجارة التي اقتربت من قضاء نحبها، حالة من الثورة انتابت الرجل، بطرف إصبعيه أطبق على مؤخرة السيجارة المشتعلة، ووأدها في كف "راضي" ذي الثماني سنوات!

لا ينسى.. "راضي" لا ينسى، لازمه الألم طيلة اليوم، تهاوت كرامته، ككيس أسود مكتظ بالقمامة سقط من ارتفاع شاهق؛ فانفجر، وتناثرت محتوياته في كل اتجاه، طفل كان.. لكنه لم ينسى نظرات والده وهو يصرخ في وجهه...

انتهى من إعداد أكواب الشاي، فوضعها على صينية

فضية صغيرة، حملها وخرج إلى العجوز القعيد، الذي اكتوى بنيران الانتظار، وقف أمامه ينظر إلى ملامحه، عيناه الذابلتان كنجمتين منطفئتين، كانتا في السابق كعينَي صقر، ثاقبتين.. يخشاهما كعذاب الآخِرة، بنظرة واحدة كان يحيله إلى دخان يتطاير خوفا من الفتك به، أما الآن فلا حول له ولا قوة، مجرد قعيد يائس يجلس على كرسي متحرِّك نحو الموت، نظر له وأخرج علبة فاخرة، تنام بداخلها سجائره، التقط واحدة وجلس أمامه يدخِّنها بهدوء، وهو يحتسي الشاي بصحبته.. قطع الأب حبل الصمت:

- عملت إيه في اللي اتفقنا عليه يا ولدي؟

بهدوء أجاب وهو يربت على ذراعه:

- إطمِّن يا آبا، الأستاذ في الطريق، أنا اتفقت معاه على كل حاجة لَجْل أرضيك.

تنهد الرجل وهو يدعو لولده بصلاح الحال والرضا، تبسم الابن وهو ينظر في ساعته بين الفينة والأخرى، يريد ركل عقارب الساعة، حتى تحين اللحظة التي ينتظر، في صمت جلسا في انتظار الضيف، الذي دعاه "راضي" لينهي ما اتفقا عليه...

عربة خشبية بثلاث عجلات مكسوة بإطار كاوتشوكي، يجرها حصان يقطر عافية، بداخلها جلس "طاهر"، وبجانبه جلست عروسه "روحية"، يسرق النظرات لها خلسة، فيكسو

ملامحها خجل يذيبه، عاش معها من السنين خمس، لا يدري.. هل أحبها، أم فقط كانت مجرد أداة لجلْب الذرية من الملكوت، هل ظلمها، أم أنها فقط واجهت قدرها المكتوب قبل أن تلقاه، وهبه الله منها من الإناث اثنتين ومن الذكور "راضي"، كم تمنى أن يصبح امتدادًا له، عاندته الدنيا، وقفت في منتصف الطريق، ورقصت لولده؛ فانحرف عن الطريق المرسوم، تبدَّل الحال بالولد فأصبح يشير إلى ما يخالف رغبة الوالد، أيريد الله أن يكسر ظَهره عقابا له على ذنب اقترفه!.. أم أن هذه سُنة الحياة!.. تنهد الرجل فقطع عليه صوت جرس الباب سَيل ذكرياته.. نهض "راضي" ليستقبل الضيف بترحاب شديد:

- اتفضل يا أستاذنا.. يا مراحب يا مراحب.

دخل الرجل، مهيب الطلة، يحمل حقيبة جلدية، وضعها على المنضدة، فأشار له "راضي" بالجلوس، وعرَّفه بالحاج "طاهر"، شرح له ما أراده؛ فأومأ الضيف، وشرع في بدء مهامه...

دقائق معدودة وانتهى كل شيء، غادر الضيف وسط تحايا مُبالغ فيها من "راضي"، فخاطبه والده بحنو:

- هتنفِّذ إمتى يا ولدي.. رايد اطمَّن.

- من النجمة يا آبا هتحرك وأنفذ أوامرك.

قالها ولم ينتظر رَدَّ والده، الذي ابتسم ابتسامة باهتة، تسابقت خطواته في درجات السلم الفاصلة بين شقة

والده وشقته، ليجد "هانم" في انتظاره، احتضنها فسألته:

- حصل؟

تراقص حتى تشككت أنه فقد عقله عندما غنى:

- ده حصل وحصل ووصل يا عسل.

ردت بخبث:

- طبعا عارف هتعمل إيه؟

واصل الرقص :

- ده أنا هاعمل عمايل، عمااااااايل.. تشوفي؟

قالها وجرى عليها كالقطار الذي لا يرى، دهس جسدها دهسا، فشهقت وتأوهت بمجون، كأنهما في هذه اللحظة فقط قطعا آخِر شعرة في الحياء، أمام رضيعهم الذي لا يفقه شيئًا في دنياه.

نهل من نبعها حتى ارتوى، فانفرطت حبَّات القوة في جسده، ليجثو عليها بثقل جسده، فدفعته بقوة، وقالت بلهجة آمرة:

- زي ما قلت لك تعمل، عايزين كل حاجة تخلص من غير دوشة.

لمعت عينا "راضي" وهو يقول:

- أوامرك يا ست الهوانم...

****

كمن وقفت روحه في حلْقه، على وشك المغادرة بلا عودة، كان "جمال" الذي انحبس صوته، وارتعشت اطرافه، سألته "عفاف" عما به؛ فأخبرها كَذِبا أنه قلِق بشأل انقطاعه عن العمل، تلعثمت واختلطت الكلمات على لسانها، فالتفت إليها لتقول بتردد:

- هو إنت هتعمل إيه في موضوع الشقة؟

- شقة إيه؟

- جمال.. إنت فيك إيه.. مخبِّي عنِّي إيه!

- لا ولا حاجة، ما تشغليش بالك.

قالها ونهض فجأة ليدخل الحمام، انفرد بنفسه، ليبسط كفَّه عن الورقة الغامضة التي قرأ ما فيها عشرات المرات..

(عُدْ إلى أصل الأشياء؛ لتدرك حقيقة ما يحدث لك، وما ستراه لاحقا هو الجحيم ذاته.. إن أردت النجاة؛ فلتحضُر"وحدك" في تمام السادسة مساء يوم الاثنين الموافق ٨ يناير، ١٠ شارع عبد العزيز فياض، مساكن الأبراج.)

أعاد قراءتها، وطوى الورقة بحرص، عندما طرقت "عفاف" الباب، لينتفض فجأة:

- فيه إيه يا عفاف!

- بتعمل إيه يا جمال؟

- هاكون في الحمام باعمل إيه يعني!

- ....

أخرسها رده الصارم؛ فانسحبت تجنُّبا لمزيد من الانفعال، الذي بات رفيقهما المقيم، انزوت في أحد الأركان على كرسي صغير، تقبض على الكلمات، حتى لا تنفلت رغما عنها، خرج فرآها على هذه الهيئة، ليتبادلا نظرة يكمن في باطنها عشرات الأسئلة، أطال النظر في وجهها، كأنه يحاول قراءة شيء ما، فسألته بصوت خافت:

- بتبص لي كدة ليه؟

- ....

- جمال!

....

كمن تحدِّث قطعة حجر، وقف صامتا كمن نسي الكلمات، وفقد القدرة على النطق، يفصله ساعات عن الحقيقة.. عن الفهم.. عن النور الذي يشعر أنه غاب عن عينيه.

شرد حتى كاد يغرق في شروده، لتنتشله "عفاف" بنعومة:

- جمال حبيبى، تعالَ ناكل حاجة، ونِفْصل شوية.

- ....

- طب إنزل اشتري لنا أكل عشان التلاجة هنا فاضية أكيد.

بآلية أجاب:

- بفلوس منين؟

سألته مندهشة:

- وهي محفظتك فين!

صمت ثوان وأجاب:

- ضاعت.

بِحيرة سألت:

- هي ضاعت منك بعد ما رجعت أخدتها من هنا؟

أومأ في صمت وهو يقول كأنه يحدِّث نفسه:

- آه، وبكرة هاعرف هي ضاعت فين.

بعدم فهْم نظرت له؛ فاقترب واحتضنها بقوة، لتشعر ببرودة تسري في جسده، الذي ارتعش بقوة، قبَّلته على جبينه بحنو، فابتسم وسألها:

- معاكِ فلوس في شنطتك نشتري أكل؟

التفتت إلى حقيبتها، فأبرزت ما بداخلها، لتقيء الحقيبة عبوات مساحيق التجميل بأحجامها وأشكالها المختلفة، وبعض الأوراق عديمة القيمة فسألها بحِدة:

- يعني شنطة حمزة دي مافيهاش عشرين جنيه تودِّد ربنا!

قلبت الحقيبة رأسا على عقب، لتجد طرف ورقة حمراء اختبأت بين الأوراق، سحبتها لتفترش ابتسامة عريضة وجهها:

- خمسين جندي أهه يا عم مش عشرين.

- يلا البسي عشان ننزل ناكل سوا في أي مكان.

ارتسمت علامات الاندهاش على وجهها:

- ما تنزل تشتري شوية جبن وخلاص، الخمسين جنيه هتعشينا إيه غير كدا!

- قُلت إلبسي وهننزل سوا.

قالها بصرامة، فانسحبت تبدل ملابسها على عجل، ليصحبها خارجا من الشقة إلى الشارع، توجَّها إلى كشك صغير ابتاعا منه بعض الأطعمة المحفوظة، حرص ألا تتعدَّى عشرين جنيها، نقدها للبائع وهو يسأله:

- لو سمحت، مفيش حد بينسخ مفاتيح قريب من هنا؟

تأمله البائع العجوز بريبة، كأنه يسأل عن مكان لبيع الخمور، أعاد "جمال" السؤال؛ ليجيب الرجل بعد صمت، كأنه يستعيد ذاكرة الأماكن:

- بص يا هندزة، هو مش قريب ومش بعيد.

- يعني إيه يا عم الحاج؟

- عارف شارع شكري شكري، هو هناك ورا البنزيمة.

- مين شكري شكري ده يا عم الحاج!

قطعت "عفاف" الحوار:

- وإنت عايز تنسخ المفاتيح ليه؟ ما هو إحنا سوا أهه.

لم يُجِبها "جمال"، الذي صَبَّ كل قواه الذهنية مع العجوز، ليستفهم منه عن مكان نسْخ المفاتيح، حتى وصل معه بصعوبة إلى أبسط وصفة يصل من خلالها، وبالفعل بعد سؤال عشرات المارة وصل إلى المكان المنشود.

طلب منها مفتاح شقة الأخت، التي يقطنان فيها مؤقتا، ونسخ منه نسختين، أعطاها واحدة، ودسَّ الأخرى في جيبه، فاندهشت لما صنع، ولم تعلِّق ليعودا إلى الشقة صامتين.

دخلا معًا، وتناولا العشاء على مهل، كأنهما في جزيرتين معزولتين، كل منهما يشرد في عالمه... نطق "جمال" قاطعا حبل الصمت:

- لما أنزل هيبقى معايا نسخة المفتاح، مهما حد خبَّط ما تفتحيش، حتى لو كان أنا!

قاطعته:

- يعني إيه حتى لو كان إنت!

صارخا نطق:

- يعني زي ما باقولِّك تعملي.

مطَّت شفتيها في عدم فهم، فأكمل بصرامة:

- ما تفتحيش الباب لأي مخلوق، مفهوم؟

بخفوت أجابت:

- حاضر.

أومأ وعاد إلى جزيرة الصمت ثانية، حتى جاء طائر النوم، الذي رفرف على رأس "عفاف"، سألته إن كان يريد النوم، فطلب منها أن تستريح، تركته وحده بصحبة حيرته ومخاوفه، وتلال الأسئلة، التي تراكمت وتزاحمت على

عقله، الذي أصبح على وشك الذوبان.

انتظر طلوع النهار، بعدما قذف طائر النوم بحجارة الأرق، فلم يقترب منه ثانية، ليبقى معه - فقط - صمته ومخاوفه، عدَّ ما تبقى من النقود؛ ليكتشف أنها لن تكفي يومه، فدخل عليها ليوقظها، ويخبرها أنه سيذهب لاقتراض مبلغ مالي من أحد الأصدقاء، وبعدها سيذهب لقضاء مشوار مهم جدا، حاولت الاستفهام؛ فصدَّها بالصمت، لتدرك أنها لن تصل معه إلى شيء، أخبرها أخيرا قبل أن يغلق الباب:

- ما تفتحيش لأي مخلوق، مش هاكررها تاني!

قالها وغادر الشقة في تمام العاشرة صباحا، ليذهب إلى أحد الاصدقاء، الذي ذُهل من هيئته الغير مهندمة، كأنه قد تراكم على سنوات عمره عشرة سنوات إضافية، عليها طبقات من الأتربة والهموم، سأله عما به فأجاب بابتسامة مبهمة، وطلب منه أن يقرِضه مائتي جنيه؛ ففعل، ودَّعه في صمت، وغادر ليُخرج من جيبه الورقة مجهولة المصدر، وأعاد قراءة العنوان عدة مرات، ليقترب من أحد عساكر المرور:

- لو سمحت، أروح شارع عبد العزيز فياض منين؟

فرك العسكري أنفه الضخم، كأنه يريد اقتلاعها من مكانها، وتلفت يمينا ويسارا قبل أن يسأله:

- قلت لي شارع إيه؟

بنفاد صبر أجاب:

- شارع عبد العزيز فياض.

هز العسكري رأسه وأجاب بحكمة:

- هاقولك، إنت تركب تاكسي وهيوصلك للشارع.

جزع "جمال" لرد العسكري، الذي يقطر بالبلاهة المركَّبة، لم ينتظر رَدَّ فعله، واستوقف سيارة أجرة، ليخبر السائق بهدوء عن وجهته:

- شارع عبد العزيز فياض من فضلك

ابتسم السائق وتحرَّك بسرعة من أمام العسكري، الذي لوَّح ل"جمال"؛ فتجاهله تماما، وهو يترقَّب ما سيحدث بعد دقائق معدودة في "١٠ شارع عبد العزيز فياض، مساكن الأبراج" في تمام السادسة!

****

الشمس تقترب بجنون، "ماذا تريد!... ماذا فعلت ليحدث لي كل هذا، أين أنا الآن!".. هكذا حدَّث نفسه.. الشمس تقترب، ليست كشمس الأرض التي يعرف، تلك لا تعرف الرحمة، كأنها صُنعت خصيصا لتقوم بمهمة واحدة.. الفتك به!

قبضت الأرض الصخرية على قدميه كحيوان مفترس يقبض على فريسته.. الشمس تقترب فتخلل رئتيه رائحة شواء فجة، الجلد يذوب كالعرق ويسيل، الشعر يتقصف

من منبته ويسقط، تصاعدت أبخرة شواء لحمه سوداء، وسقطت العينان من محجريهما، طقطقت العظام وانفرطت ليتحول هيكله إلى رماد تطاير وتناثر و... انتهى كل شيء...

****

الفصل الخامس

تثاءبت الشمس، وأوشكت على الرحيل إلى مضجعها، فتبدد نورها بتكاسل من أمام عيني "صابرين"، التي وقفت تراقب الطريق من النافذة، انتظارا لعودة زوجها "خليل"، الذي ينتهي عمله في تمام الثالثة عصرا، أو بعد ذلك بنصف ساعة على أقصي تقدير.

تسربت الدقائق كالماء المنهمر، وأغلقت السماء منافذ النور، ليحل الظلام، دب القلق بأقدامه في أعماقها، فهرولت كالمجذوبة تجذب الهاتف للمرة العاشرة، لتُجري اتصالًا بزوجها الغائب، صوت الرد الآلي، الذي يفيد بأن الهاتف الذي تطلبه غير متاح حاليا، يفقدها صوابها أكثر، ألقت الهاتف على المنضدة وهي تسب الذي اخترعه.

وضعت على رأسها غطاء قماشيًّا، أحكمت تثبيته بمشبك خشبي صغير، وجرَت ناحية النافذة تنادي أحد الأطفال، الذين يلعبون أمام المنزل:

- واد يا عاطف.. ما شُفتِش عمك خليل؟

بغير اهتمام رد الطفل:

- معرفش!

- طب روح شوفه على القهوة اللي في أول الشارع.

- لا، مش فاضي.. مش شايفاني بَالعَب!

قالها «عاطف» فصرخت فيه:

- والله لو ما رحت هاقول لأمك يا قليل الأدب.

سمعها فالتفت إليها نصف التفاتة، ليُخرج لها لسانه ساخرا:

- تحبِّي آجي أوصَّلك!

قالها وجرى بعيدا، ليذوب وسط الأطفال، الذين ارتفع صياحهم فور إحرازهم أحد الأهداف في مرمي الفريق الآخَر، أعادت النداء على «عاطف» مرات ومرات، فكأنها تنادي كائنًا غير موجود، لتتنهد فجأة عندما لمحت «خليل»، الذي انعطف من ناصية الشارع عائدا إلى المنزل في خطوات متمهلة، وعلى وجهه ابتسامه، فاقترب منه «عاطف»:

- طنط صابرين شتمتني يا عمو.

بحنو ربت على رأسه وقبَّله معتذرا عما بدر من زوجته، أخرج من جيبه قطعًا صغيرة من الحلوى، فتجمع حوله جيش الأطفال فسألهم:

- ها يا كباتن.. مين اللي كسب في الماتش؟

في صيحة مختلطة من الأصوات الرنانة أجاب الأطفال:

- أنااااااااا.

أخفى الحلوى في جيبه وعلَّق:

- الفريقين كسبوا الماتش يا عفاريت، تيجي إزاي!

قالها وبسَط كفه الممتلئة بقطع الحلوى أمامهم، فالتقطوها في ثوان معدودة، لتعلو ضحكات «خليل»، الذي رفع رأسه قليلا، ليلمح «صابرين»، التي حدجته بنظراتها، وأغلقت النافذة بعنف، فقال بصوت خافت:

- إنا لله وإنا إليه راجعون.

قالها وعلى وجهه ابتسامة المُقبل على عراك، يبغي الخروج منه بأقل الخسائر، فهو يدرك تماما ما ستفعله زوجته، لحظة وصوله إلى الشقة.

خليل

يعمل في إحدى مصانع الورق المقوى، تزوجٍ «صابرين»، التي تخطت الثلاثين بأعوام قليلة، لم يمثّل له فارق السن بينهما أزمة عميقة، فهي تكبره ببضع سنوات، أو كما يراها هو.. عقله الذي يفكر به، وحائط الأمان، الذي يستند عليه، ليسترح من معارك الأيام الطاحنة، التي أحنت ظهره.

ركب قطار التعليم؛ فلفظه في المرحلة الثانوية، التي لم يكملها، ليلتحق بعدة أعمال حرفية، انتهى منها جميعا بالطرد، بحجة أنه لا يصلح، أو للسبب الحقيقي.. وهو تعرُّضه لتجربة السجن ظُلما في أحد القضايا، التي لم يرتكب جريمتها!.. إلى أن تعرَّف عليه بعض العمال في مصنع الورق المقوى، فضمُّوه إليهم كمن وجدوا كنزًا من ذهب، وألحقوه معهم بالعمل، ليتحمَّل عنهم الأعباء

الثقيلة والأحمال القاسية.

أحنت الأحمال ظَهره، فاعتادت عظامه، وتقوَّست، ليبدو وهو في مطلع الثلاثين كالشيخ الهَرِم، على امتداد ما عاشه من أيام، لم ينطق لسانه بغير كلمة (حسنا، نعم، أمرك مطاع)؛ فلقَّبوه في العمل، فيما بينهم، باسم «خليل الأهطل».

أمام باب المنزل وقف، أسند ظهره إلى الحائط، وهو يحاول ترتيب الكلمات، لتشكِّل عبارات تشفع له، حتى لا تقع عنقه تحت مقصلة «صابرين».. لا يدري كيف سيخبرها بالأمر الذي أوقع نفسه فيه منذ ساعات.

ابتلعت درجات السلم خطواته، وقذفت به في الشقة ليواجه «صابرين»، فرسم ابتسامة، وهو يجاهد للتخلص من انحناءة ظهره...

- كنت فين يا خليل!

بترقُّب أجاب:

- كنت في الشغل.

رفعت حاجبها وأخفضت الآخَر ساخرة:

- لا والنبي يا شيخ، باسألك كنت فين يا خليل بعد الشغل؟

تلجلج لسانه:

- هاكون رحت فين يا صابرينتي.. كنت قاعد على القهوة.

- وكنت بتهبب إيه في القهوة؟

- باشرب هباب.

- طب وماجتش تشرب الهباب في البيت ليه!

- عشان كان معايا ناس.

سمعتها فتحفزت وسألته قلقة:

- ناس مين يا سبع البرومبة؟

- زمايلي في الشغل.

لوت شفتيها وزامت وهي تنظر إليه بشك، ثم أردفت:

- وكنت قاعد معاهم ليه؟ خير يعني، ما إنتو طول اليوم في الشغل سوا.

بخفوت أجاب:

- أصلهم عاملين جمعية ودخلوني فيها يعني.

ارتفع صوتها:

- جمعية إيه يا سى خليل؟ انطق.

- دي جمعية كده دخلوني فيها بنفرين.

- وهتقبضها إمتى؟

- أنا دفعت لهم الفلوس وخلاص، عرفت دوري في القبض ما تقلقيش.

بترقب سألته وهي تتوقع تماما الإجابة:

- ودورك الكام يا خيبتى التقيلة؟

تراجع خطوة وقال:

- آخِر نفرين.

سمعته؛ فلطمت صدرها، وهي تنعي حظها الفقير، الذي أوقعها في رجل يستضعفه الصغير قبل الكبير، ابتعد عنها تاركا لها ساحة الصراخ، دون أن يتدخَّل بأي رَدِّ فِعل خشية عواقب ما سيفعله، أو ينطق به، ودخل إلى جنته الصغيرة، رضيعه الذي يهوِّن عليه الشقاء، اقتربت منه وقالت بحسم:

- بكرة تجيب الفلوس اللي دفعتها ومفيش جمعيات هتدخلها.

بصوت هادئ أجاب:

- ما ينفعش يا صابرين، ده الريس عطية هيجوِّز بنته، وعاملين له الجمعية دي مخصوص.

- أنا لا يهمني عطية ولا رزية، مفيش جمعيات يا خليل!

بذكاء حاول تغيير مجرى الحديث فقال:

- بقيتي بلطجية وبتشتمي الواد عاطف!

- أشتمه وأقطم رقبته كمان قليل الأدب.

- لو أمه سمعتك هتنط في كرشك.

نطقها ضاحكا، مبعدا وجهه عنها، حتى لا يفقد إحدى عينيه، عندما لوحت بكفها في وجهه:

- خليل، ما تخلينيش أولع فيه وفيها، أنا مش ناقصة حرق دم.

ضحك فكأنما براءة أطفال الكون تجمعت في قرقعة ضحكاته وقال:

- طب خلاص وطِّي صوتك الواد هيصحى ويعيط.

هزت رأسها معترضة وقالت:

- جتها داهية اللي عايزة خلف.

نطقت بها فخرجت الحروف تكوي قلبه، نظر لها معاتبا، فأطرقت برأسها آسفة، الحروف.. تتجمع لتشكل كلمات، إما لترفع أرواحنا إلى السماء السابعة فتطيبها، أو تدفنها في سابع أرض فتفنيها، تمنت «صابرين» في هذه اللحظة أن تبتلع الكلمات، فتسقط في جوفها ولا تخرج أبدا، فقد رزقهما الله بهذه الهدية بعد سنوات طويلة مسقية أيامها بالعلقم، كاد عقلها يجن، يطيح بكل شيء ويهوي في النهاية ليتفتت، لطالما توسلت إلى الله ليهبها طفل يكبر أمامها، ويشتد عوده، ومثلها «خليل»، الذي اكتوى قلبه لهذا الخاطر. آلمها عتابه الصامت، فقالت بصوت ظهر عليه الانكسار جليا:

- حقك عليَّ يا سي خليل.. ما تزعلش.. زلة لسان والله.

هذه المرة فشل، فشل تماما في رسم الابتسامة، خانته شفتاه، ارتعشت.. تضامنت معها عيناه فأفرغت خزائنها، التقت معه عينا «صابرين»، عند مجرى الدموع، فسالت ملتهبة كماء من نار، اقترب منها، فاحتضنته كأم عاد ولدها التائه في هذه اللحظة.. من بين دموعها قالت:

- بإذن الله هيخف ويبقى زي الفل.

مزقته كلماتها فانشرخت روحه، ضمته إلى صدرها لترمم شروخه، التي اتسعت وتفرعت فكأنها المبتدى والمنتهى، انزوى بروحه الطيبة في أحد أركان روحها، فشمله براحها، ربتت على ظَهره بحنو وقالت من بين دموعها:

- فرجُه قريب والله يا خليل.

قالتها وانتقلت إليها عدوى النشيج، فتبدلت الأدوار فيما بينهما، ليجلس «خليل» بجانبها أرضا، واضعا رأسها على صدره، وهي تذرف دمعات حارقة، اختلطت بصراخ الرضيع، الذي جاء إلى الدنيا بقلب عليل، طافا معا على عتبات الأطباء، الذين أجمعوا على احتياجه لتركيب صمام في القلب ينظم ضخ الدماء، تنكس رأساهما لهذا الخبر، الذي كررته ألسنة ثلاثة أطباء متخصصين، باعت «صابرين» قِرطها الذهبي لتتمكن من زيارتهم للكشف على الطفل.

بحنو مسح «خليل» دموعها وقال بخفوت:

- الله كريم.

****

كذئب عجوز خارت قواه أصبح «طاهر»، الذي جلس على كرسي متحرك، شح بصره، لا يرى أبعد من مسافة مد ذراعه، يتحسس الموجودات كي لا يصطدم بإحداها،

فيحدث ما لا يحمد عقباه، جلس يستحلب وحدته المصبوبة في كأس أضاف عليه ولده «راضي» مرارة الانتظار، رج المزيج جيدا، وقدمه لوالده، فتجرع العجوز الشراب الوحيد المتاح.. يبدأ يومه بتحريك عجلات الكرسي ناحية باب الشقة، انتظارا لدقة يد ولده المصحوبة بدخوله الهادئ عليه، طاوعته عجلات الكرسي المتحرك، وقرَّبته من باب الشقة، وعاندته عجلات أخرى!.. الوقت، هذا العنيد الذي يسير ببطء، يضع في مقدمته حائطًا سميكًا معتمًا لا يشف ما خلفه، تمنى «طاهر» دفْع عَجلته، وإزاحة حائطه المعتم، ليرى ما يجهل، فازداد عناده، وتوقف تماما عن الحركة!

- يا ترى يا ولدي عملت إيه؟

نطقها قلبه الذي تقلَّب على جمرات القلق، تكويه من كل اتجاه، الجمرات.. مستديرة تتدحرج بجنون، يتقلَّب عليها القلب، فتتصاعد الأدخنة المختلطة بموجات الألم، الذي لا يعرف الرحمة!

يقولون إن اعتياد الألم يفقده هيبته.. لكن هناك أشكالًا من الألم تتلون بخبث، فيتضاعف أثرها دون أن تعتاده الضحية، كترمومتر مجنون يجري مؤشره صاعدا دون الهبوط، ولو درجة واحدة، جرى مؤشر الألم في جسد "طاهر" صاعدا حتى اقترب من بلوغ أقصاه، جحظت عينا الرجل، واقتربت من الانفجار فبكى، ركن ظهره إلى الحائط

مستسلما لقدره؛ فأتاه رسل الرحمة من الله، طرقتا باب الشقة ودخلت الأولى..

- صافية...

كالغريق نطق بها الرجل؛ فانتشلته "صافية" بابتسامتها العذبة، وطبعت قُبلة حانية على جبينه، لتلحقها "زينات"، التي أطلت هي الأخرى من خلفها، وهي تقول بصوتها الرقراق:

- كيفك يا بوى.. ليه باكي!

بفرح طفولي رد الرجل:

- توحشتكم يا بت الغالية.

ردت "زينات":

- عديت على البت دي وقلت نطب عليك سوا يا بوي.

قالتها وهي تشير إلى أختها الصغرى، التي خلعت حجابها، وافترشت الأرض بالقرب من ساق العجوز ترتكن إليها، ربت على رأسها بحنو، فمدت ذراعها بالقرب من وجهه، تمسح دمعاته، التي حفرت أخاديد حزينة، تبسم الرجل، وملأ صدره بالهواء، كأن الحياة قد عادت إليه، وقال:

- يدوم جمعكم.. يدوم يا بناتي.

نهضت "صافية"، وشرعت في دفع الكرسي المتحرك بعيدا عن الباب، فاستوقفها الأب:

- لا يا بتي خلينى جمب الباب.. أنا مستني أخوكِ.

تعجبت الابنة لِما قاله الأب، ولم تعلِّق، تركته كما أراد فسألها بحنو:

- أمَّال فين عيالك.. كنت رايد أشوفهم يا بتي.

تدخلت "زينات"، التي خرجت للتو من المطبخ، وعلى يديها حملت أطباق الأرز، وقِطع اللحم الغارق في طاجن البامية، كما يعشقها "طاهر"، وقالت:

- عيالي وعيالها هيعملوا البيت مولد يا بوى، خليناهم عندي وجينا نشوفك.

عاتبها الرجل بنظرة ممتعضة:

- لا يا بت الكلب، المرة الجاية العيال تيجي وإنتِ لا.

ضحكت "صافية":

- بقى كده يا بوي، بتشتمها عشان بتريِّحك من دوشة العيال.

قاطعها الرجل وقال بنبرة قلقة:

- باشبع منكم قبل ما أسيب الدنيا يا بتي.

ربتت على كتفه فأردف:

- وكمان رايد أخبركم بحاجة مهمة، بس لازم في حضور راضي.

راضي.. هذا اللغز الذي لم يفهمه العجوز، تارة يقترب فيصير كزائدة لصيقة به، وتارة يبتعد فلا يرى له أثرًا!..

جلس الرجل بجوار الباب المفتوح، حتى مر ابن "راضي" الأكبر، ناداه الجد؛ فاقترب الولد:

- أبوك فين يا ولدي؟

- نايم فوق يا جدو..

- طب إطلع قولُّه إني رايد أشوفه ضروري.

جرى الولد من أمامه، فخرجت "صافية" من الغرفة مستفهمة عن سر إصرار الأب على حضور "راضي"، تخشي أن تخبره بأنها لا تطيق الحديث معه، وأن حضوره ثقيل على روحها وقلبها، ومثلها "زينات"، التي لا تطيق سيرة الأخ، لم تنسَ له ما فعله معها من أول لحظة وعى فيها على الدنيا، حتى هذه اللحظة.. "راضي"، هذا الاسم الذي ارتبط لديهما بكل الآلام النفسية في هذه الدنيا، هذا الأخ القاسي منزوع الشعور.. والقلب أيضا!

مرت نصف ساعة في انتظار "راضي"، الذي نزل وعلى وجهه آثار النعاس لازالت لم تغادره بعد، حيَّاه والده؛ فرَدَّ متأففا:

- خير يا آبا.. صحيتنى من النوم وأنا تَعبان.

تجاهل الرجل ما نطق به الابن، ونبَّهه إلى وجود أختيه اللتين لم ترحبا به، ومثلهما فَعل:

- مش هتسلم على اخواتك يا ابني!

ببرود مد يده، فامتدت الأكف تصافحه، بينما القلوب تلفظه، فتدخَّل الأب مصرِّحا بالخبر المهم:

- أنا اتفقت مع أخوكم إني هاكتب لكل واحدة شقة في البيت.

تدخَّل «راضي» الذي حاول عرقلة مسار الحديث:

- يا آبا لسه بدري على الحديث ده وإجراءات كتير!

قاطعته «زينات»:

- ربنا يطول في عمرك يا آبا.. وإنت موجود إحنا بنملك كل حاجة.

كأنها مباراة يلتقط فيها كل منهم أطراف الحديث، فيضيف إضافته، إلا «صافية» التي وقفت صامتة تتابع ما يحدث، تنظر إلى عينَي «راضي» الزائغتين، وفى أعماقها تدرك تماما أن خلف هذه النظرات مصيبة يخفيها عنهم.

- إجراءات كتير إيه يا ولدي!

قالها الأب وأردف:

- أنا عايز أطمن على كل حاجة قبل ما أموت.

تمتم «راضي» بخفوت:

- بإذن الله يا حاج.. إطمن.

أومأ العجوز وهو يشير إلي ولده أن يغلق الباب، ليتناولا معا طعام الغداء، الذي ستعده لهم «زينات»، وليجتمع شمل الأسرة، الذي انقطع منذ سنوات طوال، تعلَّل «راضي» بانشغاله، فنطقت «صافية» بالقاضية:

- سيبه يا آبا يروح لحاله، تلاقيه خايف من هانم.

ارتبك «راضي»، الذي التفت فجأة عندما سمع اسم «هانم»، فضحكت «صافية» ساخرة، وأردفت:

- وسمعنا إنك خلَّفت كمان.. مش هتجيب ابنك نشوفه... مش هنحسده والله!

تدخلت «زينات»:

- إسكتي يا صافية.. ما هو لو طلعنا لهانم هتطردنا.

قاطعهم الأب لإنهاء هذا الحوار عديم الفائدة، فأخرسه قذيفة انطلقت من خارج الشقة لتطيح بهم جميعا، عندما دخلت «هانم»، التي وقفت تتلصص على حديثهم من أول لحظة:

- جرى إيه يا دلعدي، فيه إيه يا مرَة يا وس** منك لها.

استوقفها الحاج «طاهر» الذي هب صارخا:

- اتحشَّمي يا بنت القَمَرْتِي.

بصقت في صدرها، ووضعت كفيها على خصرها في استهزاء بالعجوز، الذي حاول الوقوف دون استخدام عصاه؛ فتعثر ليسقط أرضا، انفك الشلل الذي أصاب «راضي» لثوان، وجرى على والده يعينه على الوقوف، فصده بعنف صارخا:

- آدي آخرة جوازك من بنت الحرام!

كعاصفة صحراوية هبت، وأطاحت بكل من وقف أمامها، تجمد على إثرها «راضي» في موضعه، بينما وقفت «زينات» و«صافية» في صمت تنظران للأب، الذي صرخ في وجهها:

- بإيدي أطردك إنتِ وجوزك من بيتي يا بنت الكلب.

بفجور رنت ضحكة «هانم» استهزاء بالعجوز، الذي اختلطت الكلمات على لسانه، يعتصر الحزن قلبه على ولده، الذي وقف يشاهد ما يحدث دون أن يجرؤ على التدخل، فحسم هو الأمر عندما صرخ في وجهه:

- من دلوقت تاخد مَرَتك وعيالك وتغور.

انخرس لسان «راضي»، فتدخلت «هانم»، ونطقت بما عصف برؤوس الموجودين:

- البيت بيت جوزي يا شوية زبالة.

هب «طاهر» صارخا:

- محدش هنا له بيوت غيري يا بنت الفاجر.

أعلنت «هانم» كامل عهرها عندما ضحكت بخلاعة:

- ده كان زمان يا حاج، البيت دلوقت مِلك جوزي.

تقلصت أمعاء «راضي» لما قالته زوجته، ونظر إلى والده الذي لوَّح له بعصاه:

- إيه اللي بتقوله مَرَتك يا راضي!

سأل الأب فأجاب الابن بصمت الأموات، توقف المشهد تماما في أعين الجميع، لا أحد يفهم حقيقة ما يجري، إلى أن قررت «هانم» كشف كل شيء...

****

نامت الأعين واستيقظت على الدموع، التي لم تفارقها لحظة، افتتحها الرضيع، الذي شق صراخه قلب «صابرين»، فانتفضت من نومها في هلع، واقتربت منه تحمله برفق، حدثته كأنه يفهم ما تقول:

- يا قلبي يا ابني، والله لو أملك أديلك قلبي هاعملها.

ارتج جسده الصغير بين يديها، كأنه يتعرض لموجات كهربية، جعلت صراخه مرتعشا، ضمته بلهفة وهي تصرخ؛ ليفيق "خليل" من نومه، التفت إليها، ففطنت أنه لم يكن نائمًا، من وجنتيه اللتين بللتهما دمعات لاهبة، جاهد في إخفائها وفشل، تنهدت وقالت:

- قوم يا اخويا اغسل وشك؛ عشان نلحق معاد المستشفى.

نهض في صمت واقترب منها، ليحتضن رضيعه، فأعطته إياه، وغابت دقائق لترتدي عباءتها السوداء، كلون أيامها الوحيد، ابتسمت له بمرارة فقال:

- ربنا يرجعنا مجبورين الخاطر من المشوار ده.

- ربنا يسهل الأمور من عنده يااااااااارب.

تسلل إلى قلبها بعض من النور لذكر اسم الله، ترجوه في كل نفَس يخرج منها، أن يعافي القطعة الطيبة، التي خرجت من رحمها إلى الدنيا، فقد تذوقت كل صنوف المرار والذل على عتبات الأطباء وأبوابهم، ليلقوا فقط نظرة على رضيعها.

انتهيا من إغلاق النوافذ، وخرجا من الشقة بعد طلوع

فجر اليوم، ليصلا إلى المستشفى مبكرين، أحاطها بذراعه؛ فقبَّلت باطن كفه في حنان، ليصل صدى القُبلة إلى باطن قلبه؛ فابتسم:

- هاتي لمَّا أشيل الواد، كفاية عليكِ شِيلته في البيت.

- أنا أشيله وأشيلك طول العمر وما اتعبش يا اخويا.

- إيد على إيد رحمة.

- خليه على إيدي، ده أنا عايشة بيه.

تنهد، وسار بجانبها في صمت، تاركا لها الرضيع تحمله طوال الطريق؛ إرضاء لها.. تزوجا منذ خمس سنوات، عندما تعرَّف على والدها في إحدى محاولاته لتعلُّم أصول النجارة، وفشل كعادته، كانت وحيدة أبيها العجوز الهرِم، العامل بإحدى مصانع الموبيليا قبل أن يتعرض لحادث أفقده كف يده اليمنى، ليطرده صاحب العمل، حمله "خليل" إلى المستوصف القريب ليرى معه كيف للإنسان أن يفقد كرامته، وأعضاء جسده، دون أن يحق له التفوُّه بحرف، تعرَّض الرجل لحالة مركزة من الإهمال، أدت إلى بتر ذراعه بالكامل، ولم يجد بجواره عندما خرج من دائرة الألم غير "خليل"، الذي لم ينقطع عن زيارته يومًا واحدًا، حكى له قصته، كيف حبسوه ظلما تحت مرأى وسمع أخيه، الذي لم يتدخل لينقذه من مصير لا يستحقه. كيف رزقه الله بأخ ظالم أوقعه في مصيبة، ووقف يشاهده وهو يموت غرقا، دون أن يرق قلبه ويمد ساعده لينتشله..

أي أخ هذا!.. استأنس بالرجل، وكذلك فعل هو أيضا، فطن الرجل إلى منبته الطيب، فأوصاه على ابنته قبل أن يغادر الدنيا بغير رجعة، هذه الزهرة الوحيدة، التي تعدت الثلاثين، وقد فقدت الساتر الوحيد لها أمام رياح الدنيا الهادرة.

تقرب منها، وتزوجا بعد رحيل الأب بأشهر معدودة، لتكون له السكن، وأصبح هو لها كل شيء، التفت إليها وقد غمره دفء هذا الخاطر، فابتسم لها في حنو:

- ما تجيبي يا بنت الحلال أشيل عنك شوية.

أحكمت ضمه إلى صدرها:

- يا سيدي مش تعبانة والله، ما تشغلش بالك.

قالتها وهي تنظر إلى رضيعها، الذي غاب في النوم منذ دقائق، كأن الألم قد قرر مكافأته للحظات معدودة، ليسترح قليلا قبل أن يستعيد مهاجمته من جديد.

فقد طال انتظاره أكثر من ثلاث سنوات، زارا فيها عشرات الشيوخ والأطباء، وطافا عتبات عشرات الأولياء، حتى أمرَ اللهُ أن يرزع في صحرائهم زهرة طيبة، استيقظت "صابرين" ذات يوم لتفاجئها أعراض وجود جنين نبَت في أحشائها، أيقظت "خليل" النائم لتخبره بما تشعر به:

- يا راجل قوم باين إني حامل.

أجابها "خليل" ساخرا:

- الجعان يحلم بسوق العيش، نامي يا ولية عندنا شغل

الصبح!

لكزته في كتفه ببعض العنف:

- قوم يا راجل أنا شكلي حامل بجد.

انتفض واقفا كمن أخبرته بمعجزة طال انتظارها، وصحبها إلى الطبيب، الذي أقر بصحة ما قالت، فأطلقت "صابرين" زغرودة رقصت لها القلوب، مرت شهور حمْلِها كالحلم، تمنَّيا أن يكون الصحو منه على صوت بكاء طفلهما، الذي جاء فنثر الرضا بقلبيهما، ابتسم "خليل" بحنو عندما نظر في وجهه وقال:

- هاسميه رضا.

قطع صراخ "رضا"، الذي هاجمته الآلام مرة أخرى، سيلَ الذكرى، ليحل محلها سيل الحزن على قطعة اللحم، التي لاحول لها ولا قوة، يتألم ولا يستطيع النطق بما يؤلمه، يصرخ كأنه يريد أن يلفظ قلبه إلى الخارج، ضمته "صابرين"، حتى غفا مرة أخرى قبل أن يصلا إلى المستشفى، ليدخل "خليل" محاولا التودد إلى أحد العاملين:

- صباح الفل يا مدير، عايز أوصل للدكتور بتاع الأطفال.

كأنه يحدث كائنًا لا يسمع ولا يرى، لم يلتفت إليه العامل، الذي استغرق في التلذذ بسيجارة محلية رديئة، أشار "خليل" لها أن تبتعد حتى لا يضار الرضيع بدخان السيجارة، فابتعدت وهي تتمنى من أعماقها أن تعصر رقبة هذا العامل الغبي بقبضة يديها، فأعاد "خليل" التودد

إلى العامل الذي رد بعجرفة:

- إنت قريبه!

- لا أنا جاي عشان يكشف على ابني.

- طب خليك مفتَّح كده يا عم.

فطن إلى ما يرمي العامل؛ فأبرز ورقة من فئة العشرين جنيه، سال لها لعاب العامل، الذي اختطفها من يده، وهو يبتسم فبرزت أسنانه السوداء، وأشار إليه كمن يدلي بسِرٍّ خطير:

- الدكتور في الأوضة اللي هناك دي، اتفضل استنى مع الناس اللي هناك دي.

امتقع وجه "خليل"، الذي اصطدم بجيوش من اللحم المتراكم ما بين رجال ونساء وأطفال تجلس في الرواق، الذي غطَّاه السواد، كأنه سقط من قلوب العاملين في المستشفى، تبدلت نظراته بين طابور المرضى، الذي وقف في آخِره، وبين العامل الذي اختطف الورقة المالية فقط ليخبره ببساطة أن يقف في هذا الطابور انتظارا لدوره في الكشف على طفله.

جلست "صابرين" وبين ذراعيها الواهنتين حملت الطفل، بينما ظل "خليل" واقفا ليحتفظ بدوره في الكشف، والذى يدرك تماما أنه لو تحرك خطوة واحدة سيفقد هذا الدور، استمر انتظارهما ساعات حتى وصلا إلى الطبيب، الذي بدا الإرهاق على وجهه كأنه في معركة حربية؛ فحادثهما

بعصبية مفرطة:

- خير؟

رقق "خليل" صوته:

- حضرتك ده ولدي، وكشفنا له واتشخصت الحالة إنه محتاج عملية في القلب

بتأفف قاطعه الطبيب:

- أيوه أيوه.. وإيه المطلوب مني.

تدخلت "صابرين":

- سايقة عليك النبي يا دكتور تعملوله العملية.

أسند الطبيب ظهره إلى الكرسي:

- هي طابونة يا ست إنتِ.. دي بمواعيد ونظام.

هرولت "صابرين" ناحية مكتب الطبيب لتقبِّل يديه؛ فسحبها بحِدة:

- بتعملي إيه بس يا ست إنتِ!

بكَتْ وهي تنظر لزوجها، الذي حمل الرضيع، ووقف أمام الطبيب يمنع نفسه من البكاء، قبل أن يطلب منهم أن يوقِّع الكشف الروتيني على الطفل، ليتم عمل تقرير حالة، حتى يُدرج اسمه في الكشوف، ليتحدَّد له ميعاد لإجراء العملية الجراحية.

تقدم "خليل" من الطبيب، الذي انشغل في كتابة بعض الأوراق، وطلب منهم بعض البيانات، انتهى الطبيب ونظر

إليه:

- بالسلامة يا أخينا، هنكتب الاسم في الكشف وياخد دور.

أومأ في انكسار، والتفت إلى زوجته، التي أوشكت على فقدان روحها حزنا على رضيعها، الذي استكان كأنه استسلم لقدره، وقرر انتظار قرار المستشفى بالرحمة.

****

كالوتد وقفت "هانم" أمامهم، لم تهتز.. تتحدث بثقة المسيطر على زمام الأمور، بيدها قبض الرقاب وتحريرها، كلهم أمامها كعرائس مربوطة بخيوط تجمعت أطرافها في قبضة يدها المحكمة، مسحت وجوههم بنظراتها الحادة، وصدى صوت "طاهر" يتردد في المكان، لم يجرؤ "راضي" على الرد، لا يعرف بماذا يرد على والده، تسمرت النظرات، وتوقفت الكلمات في الحلوق.

مضى ثلاثة أسابيع ويومان على المصيبة الكبرى، التي انقضت بتدبير "هانم"، صعد إليها "راضي" غارقا في حيرته الممتزجة بالغضب، أخبره والده أنه يريد تقسيم الميراث وهو لازال على قيد الحياه، عارضه وغادر إليها فدفنت رأسه في صدرها ليهدأ، وفي عقلها عملت شياطين الكون للخروج من هذا المأزق، حتى دبَّرت له خطة لحل هذه

المشكلة.

كالتلميذ النجيب كان "راضي"، نفَّذ ما أمرت به "هانم"، دون زيادة او نقصان، تودد إلى والده، سكب عليه من ماء الحب والرعاية ما أطفأ ظمأ العجوز وفاض، يعي جيدا أن الرجل الفاقد بصره وصحته لن يتيسر له القيام بالإجراءات القانونية وحده، فعرض عليه أن يأتي له بمحامٍ صديق؛ ليُنهي له كل شيء في جلسة واحدة!

آمن الرجل على سره مع ولده، الذي نبت من صلبه، جاء المحامي، وما هي إلا بضعة دقائق وانتهى كل شيء، ووقَّع الحاج "طاهر" على توكيل عام، يسمح لابنه "راضي" بالتحكم في كل ما يملك...!

احتضن "راضي" الورقة، وعاد إلى "هانم" فرحا بنجاحه في التكليف، الذي حددته فالتقطته بين ذراعيها ينهل من شهدها مكافئة له على حُسن صنيعه، وليكن إتمام مهمة تسجيل البيت كاملا باسمه في اليوم التالي.. الدنيا لن تنتهي أو تطير!

- البيت بيت جوزي يا طاهر.. واللي يتكلم يبقى بأدب.

نطقتها "هانم" ضاغطة على مخارج النطق، فلحقتها "زينات" بسيل من اللطمات على وجهها وهي تصرخ:

- الحاج طاهر ما يتهانش يابت الوس** يا حرامية.

معركة حامية نشبت خلالها الأظافر في الوجوه، دارت بين الثلاث نساء في الصالة الفسيحة، دافعت "هانم" بكل

الطرق المتاحة عن نفسها أمام صفعات "زينات" و"صافية" اللتين هجمتا على جسدها المكتنز باللحوم والشحوم، نشبت أظافرها في عنق "صافية" وهي تلطم بيدها الأخرى وجه "زينات" وارتفع الصراخ...

وقف "راضي" أمامهم كخرقة بالية.. مغيَّب لا تسكن روحه هذا الجسد، الذي انهالت عليه "صافية" باللطمات ومن خلفها "زينات"، صرخن حتى غابت أصواتهن، وسال أسود الكحل أسفل عيونهن ليصل سواده إلى القلوب، اختلط صراخهن بالسباب المتطاير من فم "هانم" ومن خلفهن جميعا وقف الابن الأكبر ل"راضي" يشاهد ما لن تمحوَه الأيام أبدا!

نصف ساعة مرت كدهر ممتد، تثاقلت الأنفاس على صدر "طاهر"، شعَر بانسحاب الهواء من صدره.. دارت عيناه دورات كاملة تمسح المشهد من أمامه، كأن بصره قد رُدَّ إليه كما الشباب، أصبح يرى كل شيء بوضوح، أمامه ولده يقف كوعاء القاذورات، يحاول حماية وجهه من صفعات "صافية"، التي انهالت على وجهه بحذائها، صرف بصره عنهم ليرى ابنته "زينات"، التي سقطت أرضا، ومن فوقها "هانم" تحاول خنقها، الرؤية تتضح أكثر.. والقبح الآن يتجسد في ما يراه.. تجسد أمامه شريط وهمي يعرض أيام حياته التي انقضت، من أعلى عليين إلى أسفل سافلين.. ظلم، تجبر دون رادع، يعي جيدا بأن ما يحدث هو حصاد زرعته الخبيثة، التي أفنى عمره لتصير شجرة، لم

يكن يدري أن طرحها من زقوم!

آهة دامية صدحت بها حنجرة العجوز؛ زلزلت الجدران، تنبه له المتناحرون، توقف كل فاعل عن فعله، اتجهت الأنظار ناحيته، تحلقوا حوله.. رفع يده، وأشار بها ناحية "راضي"، الذي تجمدت ملامحه:

- ملعون دنيا وآخرة يا ابنى يا اللي من صلبي.. الله لا يسامحك.

كررها مرات ومرات.. ومرات.. كررها حتى تشبع بها "راضي"، الذي صار يشبه المسخ، توقف عن النطق.. زهد الكلمات، ومعها زهد جسده الروح، التي استعدت لرحلتها الأخيرة، شعَر بالخدَر يسري في أوصاله، بانحسار الشعور في أطرافه السفلية متجها إلى أعلى، الروح تغادره ببطء، وعيناه تمسح الوجوه من حوله، سقط أرضا، وانتشرت الرعشة في أنحاء جسده، لتنسحب روحه تدريجيا، والجميع في حالة ذهول، اقتربت منه "زينات" لتتبين ما حَلَّ به، فلمست بإصبعها قطرة من دمع انفلتت من مقلته، ذرفها قبل أن يختطفه الموت، ليعلو الصراخ، صراخ وصل صداه إلى السماء، التي حملت في باطنها اللعنات على الابن "راضي طاهر عبد الباسط القرشي".

* *

عاد «خليل» منكسَ الرأس، مصاب بنزف في الروح، التي أوشكت على التلاشي، ومن خلفه تتباعت خطوات «صابرين» المتباطئة، صامتة صمتَ الأموات، كأن الصمت مرادف لألف صرخة، لو تحررت من حلْقها؛ لتشققت الأرض من تحتها، ضمت إلى صدرها رضيعها، الذي انشرخ قلبه من البكاء، لا يمتلك غير البكاء، ليخبر من حوله، أنه يحمل في صدره مضغة متشبعة بألم لا يحتمله أعتى البشر!

وصلا إلى المنزل، فالتفت إليها مشيرا لها أن تصعد بصحبة رضيعها وثالثهم الحزن، ليلحق هو بعمله وبصحبته، بعض من ألم يكفيه حتى ميعاد عودته، وقف حتى غابا عن عينيه، لتنفلت منها دمعات لم تنقطع حتى وصل إلى عمله.

توجَّه إلى المكتب، ليسجِّل ميعاد حضوره، فاستقبله الموظف:

- خير يا عم خليل، أخبار ابنك إيه؟

مسح دموعه، وأجاب بنبرة تحمل في باطنها كُتلًا من الانكسار:

- ابني له ربنا يا أستاذ مرزوق.

ربت الرجل على كتفه؛ ليهدأ؛ فتفجَّرت مجاري الدموع، التي لم تفلح المواساة في إيقافها، تجمَّع العاملون وجموع الموظفين في المصنع حول «خليل»، الذي تحوَّل بكاؤه إلى نشيج، اختلط الألم بالقهر، ليصنعا مزيجًا أسودَ مُرَّ

المذاق، كُتب عليه أن يصبح طعامه اليومي، رقَّ قلبهم لحاله؛ فاحتضنوه ليصل انهياره إلى ذروته.

تنكست الرؤوس، وانخرست الألسنة أمام سطوة المرض، الذي انفرد بقلب الرضيع في نذالة مفرطة، ليقطع صوت الأستاذ «مرزوق» الصمت:

- طب ما تجرَّب تكلِّم الحاج حسيب يا عم خليل.

تنهد وقال بيأس:

- الحوجة لغير الله مذلة.

تناثرت همسات الموظفين والعاملين من حولهم، ما بين مؤيد للفكرة، ومن تحمس ليفاتح الحاج «حسيب» في أمر «خليل» زميلهم، الذي ربما يستحي أن يحادثه بأمر شخصي يخص طفله.

جلس «خليل» بينهم يفتون في أمره، وقد قرروا توصيل أمر طفل زميلهم المريض إلى صاحب المصنع، وهو رجل طيب المنبت، ميسور الحال، اتسع الحديث عن أعماله الطيبة، التي يقوم بها في الخفاء، وتتناقلها الألسنة بغير عِلمه، تشجع «خليل» لِما قالو بعد جهد في اقناعه، وقرر الذهاب إليه بصحبة وفد من العمال والموظفين.. لربما يحمل هذا الفعل أثرًا طيبًا، يساعد في نجاة ولده.

تجمع الوفد وصعدوا إلى الحاج «حسيب»، ينتظرهم «خليل» في الرواق الطويل أمام مكتبه، ينظر إليه كمن يقف على الحافة في الجهة المقابلة لحدائق الأمل، يمد

إليها ذراعيه عله يقبض على بعض من ثمارها، ليخرج الحاج مبتسما حاملا إليه سلة طازجة من الأمل، استقبلها مبتسما، فربت على كتفه وقال بحنو:

- اطمن يا خليل، ربنا يقدم اللي فيه الخير.

عادت الروح تدب في جسد «خليل»، الذي انتصب عوده، توردت دماء الأمل في وجهه، ليضحك الحاج «حسيب» الذي قال له:

- جهز نفسك عشان هاحجز لك في مستشفى كبيرة، ونعمل العملية للمفعوص الصغير.

قالها مبتسما وأكمل:

- يللا روَّح دلوقت بشَّر أهل بيتك، وخد اليوم أجازة.

سمعها؛ فلملم شتاته، وتلجلج لسانه، لا يدري ما الكلمات المناسبة، التي يجب قولها لهذا الرجل، تفهَّم «حسيب» ما يشعر به، فربت على كتفه في حنو، لينطلق «خليل» جريًا إلى منزله، حيث زوجته، التي بُحَّ صوتها من الصراخ، رأته أمامها متهللَ الوجه، تشع الفرحة من جنباته، وهو يزف لها الخبر السعيد، لتسجد إلى الله، الذي أمطرها من فضله بأكثر مما تحلم.

احتضنها وهو يقول هامسا:

- ربنا كريم يا صابرين، كريم قوي

- ونِعم بالله

- اجهزي عشان الحاج بيقول إنه خلال كام يوم هيكون خلَّص كل الإجراءات.

أومأت وقلبها يزغرد، لتعم البهجة جنبات منزلهم، الذي صام عن الفرحة أيامًا، طالت وتشربت أرضيته دموع بلا انقطاع، آن لها أن تنجلي بغير رجعة...

****

دلو أسود يسكن العفنُ قاعَه، ممتلئ بالماء، حملته الطفلة، واقتربت لتلقيه بما فيه في وجهه، فانتشله الماء من غياهب الحلم إلى الواقع..

لازال مكبَّلً الأطراف بأصفاد حديدية في الحائط، قبض بأسنانه على لسانه، ليتأكد أنه لازال موجودًا، لم يتحلل جسده، لم تنفرط عظامه، ويسيل جلده، ويكتوي لحمه بلهب النيران.

اقتربت الطفلة، وحلّت قيودَه، شعَر في هذه اللحظة بحاجته إلى شيء ما، ما هذا الشيء.. لا يعرف، نسي عقله أمر الحاجات البشرية، فأصبح يشعر ولا يعي ماهية شعوره، هزت الفتاة رأسها كأنها تقرأ ما يدور في عقله، وتسمع ما لم ينطق به لسانه.

اقتربت من الفوهة، ومدَّت جزءًا يسيرًا من ذراعها لتجذب شيئًا ما، نظر إليها ليرى بين يديها قِدْرًا ضخمًا، حملته دون عناء، ووضعته أمامه، وأشارت إليه أن يأكل..

دقق النظر في ما بداخل القِدر، لتتسع حدقتاه، وتنقبض أمعاؤه بعنف ...

****

الفصل السادس

ذابت سيارة الأجرة في طوفان الزحام، كنقطة سقطت في مجرى سيل جارف، وذاب معها «جمال»، الذي شرد عقله في ألف اتجاه، فلا هو يعرف ما يختبئ له خلف صخرة المجهول، ولا يمتلك رفاهية التراجع، وكأن شيئًا لم يحدث، راودته عشرات التصورات المشوشة عما ينتظره في العنوان المدون على الورقة. أوصلته إلى اللاشيء، فنفضها عن رأسه ليُخرجه السائق فجأة من صومعة شروده:

- والباشا رايح فين بالظبط في شارع عبعزيز فياض؟

أملاه العنوان المدون على الورقة فتدلى فك السائق وسأله:

- يعنى عدم اللامؤاخذه رايح لمين هناك!

أزعجه تدخُّل السائق؛ فرَدَّ بحِدة:

- رايح هناك وخلاص، هتوصَّلني وتاخد أجرتك وخلِصنا!

حكَّ الرجل شعيرات ذقنه المتناثرة كالحشرات على وجهه، ورفع صوتَ المقرئ في المسجِّل، وهو يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ليسأله بحِدة زائدة وهو ينظر للساعة على شاشة هاتفه:

- هو لسه كتير؟

أغلق السائق عينًا وفتح الأخرى:

- شكلك أول مرة تروح هناك يا هندزة.

بعصبية مفرطة رد:

- أنا باسألك في حاجة ترد على قد السؤال.

يظن الرجل أنه في طريقه مثلا إلى رحلة ترفيهية، أو قضاء وقت لطيف مع عشيقة في مكان سري.. يظن كما يظن! دفع «جمال» بهذه الأفكار بعيدا عنه، دائما وأبدا ما يفسِد المتطفلون كل الأمور، راودته رغبة ملِحَّة في أن يتمكن يوما ما من إبادة كل المتطفلين من الدنيا.. ما هذا؟ كيف جرفه التفكير إلى هذه النقطةظ كأنه يحاول الهروب من التفكير في مصيبته بالانحراف إلى أفكار عديمة المعنى.. فليذهب السائق إلى الجحيم!

ترددت هذه الجملة في عقله، حدَّق في مرآة السيارة، كأنها يراها أمامه مكتوبة بخطوط من الوهم، بادله السائق النظرة بمثيلتها، وهو يلعنه في أعماقه، مرددا كلمات اختلطت بالبصاق الذي تطاير من فمه:

- أبو أشكالكو ع المسا

التزم جمال الصمت طوال الطريق، ينظر كل دقيقة إلى شاشة هاتفه، ترقبا للميعاد المحدَّد في الورقة، وابتلع السائق كلماته المبطنة بالاعتراض على هذا الراكب العبوس المتأفف، حتى وصل إلى أحد الشوارع العتيقة؛ فتوقف أمام ناصيته:

- لحد هنا وتنزل تكمل مشي يا هندزة.

تساءل عن السبب، فأخبره السائق أن منطقة «مساكن الأبراج» غير آمنة، ويخاف أن يخرج منها قطعَ غيار، هو وسيارته على حد السواء، ارتجف جسده لِما نطق به السائق؛ فنقده ما طلب من نقود، ومشى بخطوات مرتعشة، ليواجه ما يجهل.

تقدم أكثر، ليصل إلى شارع متفرع منه عدة حارات، في مقدمته وقفت لافتة حديدية صدئة، كُتب عليها بأحرف متقشرة « شارع عبد العزيز فياض»، وقف ليسأل أحد المارة:

- لو سمحت، أوصل لمساكن الأبراج إزاي؟

بفتور أشار له الرجل ناحية بعض المباني الآيلة للسقوط في أي لحظة، وواصل سيره، فكسى الوجوم ملامح «جمال»، عندما اقترب من المباني، التي انحشرت في شوارع لا يدري هل هي أرض جبلية أم رملية أم طينية؟ فهي خليط من كل شيء، لا يكاد يسير بضع خطوات إلا ويتعثر في شيء ما، تخلل جهازه التنفسي روائح لم يستطعَ تمييزها، فهي خليط من مخلفات وفضلات كائنات حية مبهمة، فكر لحظات في التراجع؛ فلم تستجب قدماه، اللتان تقدمتا به، حتى وصل إلى بعض الأعشاش، التي أطلق عليها مجازا مسمى البيوت، فمن المؤكد أن هناك أناسا يعيشون بها، ويتناسلون وينامون ويقضون حاجتهم، وإن

كان غير متأكدٍ من هذه الأخيرة، وتأكدت شكوكه عندما رأى ثلاثة أطفال، يقفون في أحد الأركان، وقد أسقطوا سراويلهم الصغيرة، ليتسابق كلٌّ منهم في إطلاق خيوط البول على الحائط في لذة، بالتأكيد لم يدركها هو!

تلفت حوله في ذهول مما يرى، كأنه في حلم غريب، أخرج هاتفه ليرى الساعة، التي اقتربت من السادسة، يشعر أنه ملاحَق من مجهول، تلفَّت حوله، فارتاب في أحد العابرين، الذي نظر إلى الهاتف نظراتٍ غيرَ مطمئنة؛ فأخفاه في جيبه، وأسرع من خطواته، ليدخل من شارعٍ ضيق لا يكاد يسع شخصًا آخَرَ بجانبه، خرج منه إلى صفٍّ آخَرَ من المباني، فاصطدم بعشرات النسوة، اللائي فَرَشْنَ بعض الأجولة أمام المباني المتهالكة، وجلسن يتسامرن، وإحداهن قد أخرجت ثديها لتطعم رضيعها، الذي انشرخ حلْقه من الصراخ!

ابتعد مسرعا وهو يمرر بصره على الأرقام المثبتة على البيوت، والتي تعتبر الإثبات الوحيد على أن هذه المكعبات البائسة سكن لبعض البشر، أكمل المسير متجاهلا ما رأى، مقررا في نفس اللحظة عدم سؤال أي شخص عن أي شيء في هذا المكان، حتى وصل أمام أحد البيوت ليرى طفلًا لم يتعدَّ الثامنة، اقترب منه وهز رأسه، اقترب «جمال»؛ فجذبه الصبي من ذراعه وسار أمامه ليسأله بحذر:

- إنت تعرفني؟

هز الطفل رأسه بالإيجاب، ولم يرُدّ فسأله:

- إحنا رايحين على فين؟

لم ينطق الطفل، الذي تسارعت خطواته، فأسرع «جمال» من خلفه، حتى وصل إلى حد الهرولة، انعطف الطفل يمينًا، فتبعه حتى وصل أمام أحد البيوت المصنَّفة ضمن فئة المساكن الشعبية، ذات النسق البنائي المتشابه، قرأ «جمال» عليها رقم عشرة، فتأكد له أنه الآن قد وصل، نظر بجانبه فلم يرَ الطفل، الذي تبخر، كأنه قد وُلد من العدم، تقدم خطوات، جاهد أن تبدو متماسكة، ليظهر الطفل مرة أخرى، بعدما دخل على غفلة من «جمال»، وطرق بابًا خشبيًّا صغيرًا لإحدى الغُرف المكبوسة أسفل العمارة، وأشار له أن يدخل، وغادر في هدوء.

تقدم من الباب الذي انفرج منه اليسير، ليدخل ببطء شديد، أخفض بصره؛ ليراها وقد جلست على إحدى الحصائر اليدوية المشغولة، فرفعت بصرها، لتقع عيناها في عينيه مباشرة كالسهم، وقالت بصوت قوي لا يناسب عمرها:

- وصل صاااااااااحب العهد.

****

توفِّي «طاهر»، لملم حاجياته من هذه الدنيا.. ما له وما عليه، وصعد إلى السماء، عاد كل شيء لأصله، فأكلت الأرض الجسد، وأعادت الروح إلى منبتها الأول، أنهى

«راضي» مراسم الدفن، ووقف حائرا، لا يدري كيف وقفت عيناه في محجريها جامدة، دون ذرْف دمعة واحدة، لحظات معدودة، اختطف فيها النظرات الأخيرة لوالده، قبل أن ينغلق عليه باب القبر، هل كان يكره هذا الرجل حقا؟ أم أن غشاوة ما طغت على قلبه؟.. تسرّبت أحاسيس مختلفة من منطقة مجهولة بداخله، ما بين الخوف من شيء ما مجهول والندم، أفرز حلْقه مذاقا مقززا، طغى عليه، كأنه تناول قطعة من لحم أبيه، الذي دفنه للتوِّ، اعتراه دوار شديد، وأولى ظَهره للحائط المواجه للمقبرة، تقيَّأ بعنف.. طردت معدته عصارة صفراء، وبعض القطع الحمراء، كأنه بالفعل قد أكل قطعة من اللحم النيِّء!

خرجت السوائل من فمه مندفعة ساخنة، غليظة القوام، ومشهد طرد «هانم» لأختيه في اليوم السابق لا يفارق مخيلته، لطمت «صافية» وجهها بهستيريا، وارتمت على الأرض، تقبِّل أقدام والدها، الذي غادرت روحه جسده أمامهم جميعا، وقفت «هانم» وعلى وجهها ابتسامة شامتة، تفوح بالعفن، وأولَتهم ظَهرها قبل أن تصعد إلى شقتها، بينما وقف هو ذاهلا، ومن أمامه وقفت «زينات»، كمن أصابها مَسٌّ كهربي، ترتجف في صمت كأنها تُحتَضر!

انتهى اليوم، وقام بتجهيز والده للدفن، وأعد كل شيء، غاب قرابة الساعة، ليستخرج تصريح الدفن، وعاد إلى المنزل؛ ليكتشف ما فعلته زوجته، التي انفردت بأختيه، كانت المعركة شعواء، حاولت النسوة فضَّها؛ فازداد

اشتعالها، لتنتهي بطَرْد الأختين من البيت.. أمامها وقف خانعا، يستمع إلى صراخها المختلط بأقذع الألفاظ على أختيه، التي ادَّعت أنهما حاولتا ضربها أمام الناس.. صدَّقها!.. أو أقنع نفسه كذبا بصِدقها، لا يدري.. هل تسيطر عليه هذه المرأة إلى هذا الحد! أم أنه أضعف من أن يقولَ لها إنها شيطانة، دسَّها بيده في أرضه، ورواها بدمه.. لا يهم.. هكذا الحياه تسير على غير رغبة أحد.

توفِّي «طاهر»؛ فغابت الروح عن البيت، كأنه يشعر بافتقاده لصاحبه، لم يشعر «راضي» بهذا، فقد قطعت أختاه علاقتهما به إلى الأبد بعد موت الأب، ولم يهتم هو كثيرا بهذا الأمر.

سحبته «هانم» خلفها، بحبل غير مرئي، كدابة لا تملك من أمر نفسها شيئًا، مغيَّب العقل والكلمة، اعتادت معه أن تأمر فتطاع، وارتضى هو بهذا الدور إلى أن أمرته ذات يوم بما غرس القلق في أعماقه:

- دلوقت محدش ضامن الحيا من الموت، والعقارب إخواتك ممكن يلعبو أي لعبة.

فرك ذقنه بعدم فهْم وسألها:

- يلعبو أي لعبة إزاي؟

تباطأت بخطواتها أمامه، وبخِفة سكبت جسدها على السرير أمامه، لتسيل أنوثتها، وتتخلل أنفاسه فتسكره وتسيطر عليه، حدَث ما أرادت؛ فضحكت بخلاعة، وهي

تنظر إليه كحيوان أليف ينفِّذ ما ترغبه بدقة؛ لينال رضاها، فقالت بدلال:

- يعني ممكن واحدة منهم تزوَّر ورقة كده ولا كده، إحنا مش ضامنين!

نظر إليها صاغرا، فعاجلته كمن تُحكم قبضتها على عنق فريستها؛ حتى لا تنفلت:

- الحل الوحيد إنك تكتب لي البيت باسمي، وساعتها يبقى مفيش منهم خوف.

قالتها وجذبته من ذراعه، ليسقط بجانبها على السرير، بخِفة أمالت رأسه نحوها، فهوى في بحرها، دفعته بيديها كي لا يرى غيرها في هذه اللحظة، تريده أن ينهل من نبعها، حتى تمتلئ خزائنه، فلا يبقى لديه مجال للتفكير، أو حتى التنفس!

حدَث ما أرادت؛ فهوَى في قاعها، يقبِّل قدميها، ويلملم ذرات الغبار، التي تطايرت من نعل حذائها المرمري، اكتفت مما فعل، فقررت مكافئته على حُسن فِعله، بمقال كان له على أسماعه وقْع السِّحر:

- أبويا وافق يسلِّفك الفلوس اللي طلبتها منه.

تقافزت طيور السعادة في صدره، فابتهج ونثر قُبلاتٍ عشوائيةً على وجهها وعنقها، فأبعدته عندما ضايقها ثقل جسده الجاثم على صدرها، استدارت، فظَل من خلفها يتأمل فواكهها الشهية لتقول:

- مش كفاية بقى ونتكلم في الجد؟

- خير يا هانم؟

- أبويا عايز يقابلك عشان يتفاهم معاك بخصوص الفلوس.

- وماله.. نقابله.

- طب قوم إلحقه قبل ما يمشي، تلاقيه دلوقت لسه في البيت.

قالتها بلهجة آمرة؛ فنفَّذ الأمر بخضوع تام، ارتدى ملابسه على عَجَل، وقبْل مُضي نصف ساعة كان يجلس أمام «سمعان بحراوي»، الذي بالغ في تحيته وإكرامه، وهو يخبره عن استعداده لإقراضه ما يطلب من أموال، ليتوسع في تجارته، تحمس «راضي» كثيرا لِما سمعه، فأخبره أنه ينتوي جلْب صفقة كبيرة من المواد العطرية، ليفتتح متجرا لتركيب العطور، هذه التجارة التي لم يطرق بابها الكثير، وبسبب ندرتها وخوف الكثيرين من الاشتغال بها، سيدخلها من أوسع أبوابها، ويجني من خلفها كنوزًا لن تعد ولن تُحصي، وبالطبع سينال «سمعان» نصيبًا كبيرًا من هذه الكنوز.

سال لعاب «سمعان» لحديث «راضي»، الذي غمرته الحماسة، وتوسعت شرايين الطمع بداخله؛ فجرت الدماء، وأسرع معها بخطواته إلى حيث ترقد خزينته العتيقة، فتحها بحرص، وأخرج منها دفترا صغيرا، اقتطع منه وريقة مطبوعة، دوَّن عليها بعض الأرقام والكلمات،

وناولها ل»راضى»:

- توقيعك وبصمتك هنا يا جوز بنتي.

جذبها ليرى المكتوب بها؛ فطالته دهشة طلت من صوته:

- كل دي فايدة يا عم سمعان!

بحنكة عجوز لئيم أجاب:

- مش بتقول الشغلانة مرزقة، مش كتير على عمك سمعان ٢٠٪

تراجعت حماسته إلى مؤشر الصّفر وقال:

- بس بالراحة يا عم سمعان، واحدة واحدة مش كدة.

غلَّظ «سمعان» صوته وقال بحِدة:

- فكر ورُد عليَّ يا جوز بنتي.. نوَّرت.

قالها واصطنع الانشغال بترتيب بعض الأوراق عديمة القيمة، فانصرف من أمامه عائدا إلى «هانم»، التي استقبلته فرِحة:

- ها.. إتفقت معاه على كل حاجة؟

بعصبية رد:

- أبوكِ عايز ٢٠ المية فايدة على الفلوس.

ببرود أجابت:

- حقه.

ترددت الكلمات في الخروج من حلقه، فنطقها مشوشة:

- يا ستي حقه ما قُلناش حاجة، بس بالراحة، مش كده!

لم ترُد أو تعلق، فقد قذفت من جوفها ما تريد قوله، وتركته يتقلب بين نيران الحيرة والقلق، فالأزمة المالية، التي سقط في براثنها لا ترحم، وقد اضطر إلى دفع ما يقرب من نصف ثمن الصفقة، على وعد بتسديد باقي الأقساط على ثلاث دفعات، في مواعيد محددة، استنادا إلى وعد «سمعان بحراوي» له بأن يقرضه كل الأموال التي يريدها.

استوى جسده على السرير، فنهضت «هانم» لتعد وجبة الغذاء لأطفالها، الذين اقترب ميعاد عودتهم من المدرسة، وتركته وحده تنهشه أنياب القلق مما هو آت، فقد اتفق مع الموردين على تسديد دفعات الأقساط، وفى حالة تخلفه عن ذلك؛ يصبح مخالفا لبنود العقد، الذي ينص على فقدانه ما دفع من أموال، وأيضا عدم أحقيته بالصفقة بأكملها، باعتباره قد أخل بالبنود المتفق عليها!

نهض متثاقلا ليقف في منتصف الغرفة، انعسكت ملامحه في المرآة الكبيرة المثبتة على الحائط، المواجهة لخزانة الملابس، شعَر أن انعكاس صورته غير مكتمل، كأن الشرخ الصغير في المرآة الذي صنعه ولده الأصغر، عندما كان يلعب بالكرة، قد فتَّتَتْ جسده، أظهره كإناء من فخار، سقط على الأرض وتفتَّتَتْ أجزاؤه.

أخرجه من تيه القلق أصواتٌ تداخلت، لم يتبينها، لكنها

تنبئ بوقوع كارثة، خرج من غرفته مهرولا عندما سمع نداء أحدهم، فأطل من النافذة ليتبيَّن ما الخبر، عاجله أحد صبيانه العاملين في الوكالة، وقد اصفرَّ وجهه، وغطت ملابسه أكوام من التراب:

- إلحق يا معلم، الوكالة اتحرقت.

****

دُهِش «جمال» لما رأى، نظرات السيدة المباشرة إلى عينيه أربكته، سيدة تخطَّت السبعين على أقل تقدير، وفيرة الشحوم، يكسوها الأسود من رأسها لأخمص قدميها، تفترش الأرض كشجرة نبتت في هذا المكان منذ بدء الخليقة، على وجهها وَشْم قديم، باهت اللون، وتحديدا بين العينين، ثلاث نقاط أفقية، ومثلهم على ذقنها، تدلَّى من أذنيها قِرط ذهبي ثقيل، انعكس لمعانه على وجهها الأسود؛ فبدت كقطعة من ليل قابض!

وقف أمامها فدعته بإشارة من يدها أن يدخل آمرة:

- إقفل الباب وأقعد.

نفَّذ ما أمرت به، وجلس على الكرسي الوحيد في الغرفة، مرَّت دقيقة، وأخرى، وأخرى، في صمت مميت، كأن السيدة الجالسة أمامه قد نسيت الكلام، فقط جلست تهز رأسها على وتيرة واحدة، وتعد شيئًا ما على أصابعها،

كأنها تعد تسابيحَ أو شيئًا من هذا القبيل، تعلَّق بصره بها، فبدت ككعبة بُنيت في منتصف الكون تماما، ولو تحركت خطوة واحدة؛ لاختل توازن الأشياء، تأمل جدران الغرفة، التي تزينت بعشرات المسابح المعلَّقة عليها بتناغم شديد الرهبة، يقبع في الركن القصي سرير صغير منبوذ، وفي الركن الآخَر بعض الأكواب والأوعية الملوثة ببقايا مشروبات جفَّت على أطرافها، نطقت السيدة بحِدة، فاتجهت إليها أنظار «جمال» برعب:

- عينك ما تنزلش من عيني يا ولد!

قالتها بحِدة وصوت لا يتناسب مع عمرها، عيناها واسعتان كبئرَين عميقَين، يقبع في أعماقهما أسرار الكون، نبتت في ذقنها شعيرات معدودة، لم تهتم بانتزاعها، وكذلك عشرات الشعيرات في الشارب، اتصلت معه ببصرها لأكثر من عشر دقائق، لم يجرؤ على الحياد عن عينيها السواداوَين، لا يدري ماذا يقول، ولا لماذا هو هنا، ولا مَن هذه السيدة من الأساس!

همَّ بالنطق؛ فوأدت السيدة محاولته، عندما هبَّت في وجهه:

- ما تسألش!

ابتلع ريقه في ذهول، فنطقت بعد صمت:

- شُفت؟

هز رأسه يمينا ويسارا مستفهما، فأشارت له أن يتحدَّث،

فسألها:

- شُفت إيه؟

أعادت إغلاق فمها مرة أخرى، وهي تنظر في عينيه مباشرة كأنها تخترقه، تتخلل أعماقه، كأن نظرتها سهمٌ حارق يكوي أمعاءه، حاول كسْر الجمود فسألها:

- هوَّ حضرِتِك مين؟

سمعته، فزادت من حِدة نظراتها، وصرخت:

- لو عاودت تسأل، هتشوف مني شَيّ مش هتحبه لنفسك!

ضاق تنفسه، والتصق بمقعدته في الكرسي، انبعث من جسده حرارة، استشعر منها أنه سيذوب بعد لحظات، فأردفت السيدة بلهجة أقرب للوعيد:

- ما كَفَّاكش اللي جرالك بالبيت ولمَرَتَك معاك!

انخرس صوته تماما، وهو يحاول الاحتفاظ بتماسك جسده، يشعر بأنه سينفرط كحبات مسبحة مفقودة الرأس، هزت رأسها مرة أخرى وسألته:

- شُفت كيف الظلم بيوصل بني الإنسان؟

كتمثال من صلصال بدا أمامها، فاقد القدرة على النطق والحركة، شكَّلته كما أرادت وجلست تشاهد صنيعها وقالت:

- جمال ابن هانم بت رشيدة بت إنصاف.

هز رأسه في ذهول، لتخبره أنها تعلم عنه كل شيء، تعلم ما يرتدي أسفل ملابسه، تعلم أصوله وفروعه، ومن أي صلب نبَت، وفي أي أرض نما، وإلى أي حال وصل، تعلم من تزوج، وأنه لم ينجب، تعلم ما لا يعلمه هو عن نفسه، تعلم ما يعلمه ويخفَى عنه، كأنها جرَّدته من ملابسه، ووقفت تتلذذ برؤيته، وهو يحاول إخفاء عوراته عنها بلا فائدة، كمن أجلسته على عامود حديدي مدبَّب ليخترقه طوليا، وأدارته فجأة ليلتفَّ حول نفسه، شعَر بهذا؛ فدارت رأسه فجأة، وكاد يسقط من على الكرسي، ليفترش الأرض بجانبها، فصرخت لتُخرجه من شروده:

- تسمع القول وما تقول غير آمين يا ولد.

تمتم باستسلام:

- آمين.. آمين.

أومأت في رضا وقالت:

- اللي جرالك مكتوب، واللي لسه هيجرَى.. كله متكوب على جبينك، من يوم ما نزلت من بطن هانم.

لم ينطق فأكملت:

- اللي جرَى لك وخربط حياتك ما يجيش ذرة في أذاهم!

استفهم بنظراته دون أن ينطق فأكملت:

- العمل اتزرع في البيت وطالك، اختارك لأنك أول نطفة نبتت في هانم من راضي، ومفيش مفر من المكتوب.

انفرجت شفتاه، وكاد أن يسألها عن شيء ما فتذكَّر غضبتها، ليغلِق فمه هذه المرة بقوة، شعرت ببركان الأسئلة، الذي تفجَّر في صدره، فأشارت له أن ينطق فسألها:

- عمل إيه يا سِتنا، أنا مش فاهم حاجة!

استكانت ملامحها وقالت بأسًى:

- باعرف إن مالكش ذنب، بس الذنب بيتورَّث زي الورق والبُنا.

ارتسمت علامات الجهل على وجهه، فأزادته السيدة:

- فيه حد اتعرَّض لظُلم عظيم في البيت ده من سنين، وساب أثر يحرق به قلب الظالم، والأذى اختارك إنت يا ولدي.

سألها في جزع:

- هما مين؟

صرخت:

- ابحث هتعرف!

قالتها وعادت إلى صمتها مرة أخرى، وهي تحدِّق في عينيه كالصقر، وفكر أن يمد خط الحديث مرة أخرى، لكنه اصطدم بصمتها المخيف، أعاد لسانه إلى موضعه الصامت، وبقي كالتمثال أمامها، تحدِّق فيه كأنها تقرأ منه صفحات وتُسمعه إياها.

أطالت في صمتها هذه المرة، التي امتدت لنصف ساعة، شعَر خلالها أن جسده سينهار بالفعل، ستتساقط أعضاؤه أمامها، وتنفرط أطرافه كعقد بلا رأس تربطه، انقطع السائل عن فمه، الذي جفَّ فأصبح كصحراء صام عنها المطر، استحلب ما بجوفه، فتجمَّع في حلْقه مرارة لم يتحملها، وكأن السيدة تشعر به، فقد قطعت صيامها عن الحديث وخاطبته:

- قوم من مكانك، عندك مية في الزير، اشرب وارتوي.

بتردد حرَّر جسده من الجلسة، التي طالت، وقام إلى الزير الكبير، الذي سكن بجانب السرير، وقد وضعت أسفله إناء بلاستيكيًّا، يتجمَّع فيه قطرات المياه المتساقطة، رفع الغطاء الخشبي، وغطَّس الكوب المعدني، ليملأه بالماء النقي، وتجرَّعه على مرة واحدة ليسمع صوتها الجهوري:

- بألف صحة وهنا يا ولدي، دي مية حلال بتروي.

شكرها، فأمرته أن يعاود الجلوس، نفَّذ ما أمرت به لتعود إلى حديثها:

- الوقت ماهوش في صالحك يا ولد، طهِّر أساسك.

أجابها أنه لا ينجب، فأخبرته أن هذا من تبعات اللعنة، التي طعنته في طعنات متفرِّقة في مناحِيَ حياته، أخبرته تفصيلا عن ما حدث له ولزوجته في الشقة، كأنها تسكن معهم، وتقاسمهم أنفاسهم، أراد أن يسألها كيف عرفت كل هذا، لكنه تراجع؛ حتى لا يطاله منها ما يجهل، فأنهت

الحوار بكلمات أخرجتها بلهجة مخيفة.. مقبضة.. حارقة..

- الظلم ظلمات، وكيف ما صار لطاهر وراضي هتوصل إليه!

برقت عيناه، وهو يتذكَّر مصير أبيه، فسألها عما يجب أن يفعل، فأجابت:

- احفر في الطين والصخر والبحر، وتِوصل لصاحب الحق، وتبوس مَدَاسَه وترُد له مُراده.

هزَّ رأسه في حيرة فزادته:

- الوقت ضدك يا ولدي، الوقت عدو.. احذره.

استحثَّها على المزيد عندما شعَر أنها تمتلك في جعبتها المزيد فلم تنطق، فسألها في يأس:

- ولو معرفتش أوصل؟

طرقت الأرض بيديها وقالت غاضبة:

- إما توصل أو نعمل التانية.

سألها بلهفة:

- إيه التانية يا سِتنا، أبوس إيدك قولي.

أجابت بصرامة:

- ما باخرجها من جوفي إلا في وقتها.

قالتها وزامت بشفتيها، صمتت لدقائق قليلة؛ فصمت، أشارت له بيمناها أن يقف، فاستجاب لتنطق بختام اللقاء:

- من مكاني هاعرف أنفاسك وخطواتك، اسعَ في الأرض

فأنت منها وإليها.

لم يجرؤ على الاستدارة أمامها ليوليها ظَهره، تراجع في خطوات مبعثرة ليخرج من الباب الصغير وفي رأسه زحام وعشرات الصرخات والذكريات، التي أعادت هذه السيدة تقليبها في تربة ذاكرته هو.. (جمال راضي طاهر عبد الباسط القرشي)

****

هرول «راضي» كمن أصابه مسٌّ من الجنون، أطاح بكل شيء أمامه، دقائق من الجنون التام قطعها جريا، حتى وصل إلى الوكالة، التي تحوَّلت إلى قطعة من جهنم، ألسنة النيران تأكل بتلذذ كل ما تطاله، وقف ذاهلا كأن ما يحدث لا يمُتُّ له بِصِلة، ومن حوله يحمل الصبيان جوالين ضخمة من الماء، التي ابتلعتها النيران في تحدٍّ، ولم تتوقف عن أكل البضائع والأجولة القماشية، التي تراصت في أركان الوكالة، وبداخلها ما لَذَّ وطاب من الحبوب والغلال، التي تحوَّلت إلى تراب فاحم.

انتهت النيران من التهام وجبتها، وخمدت بإرادتها، ليتوقَّف المشهد، ترامى الصبيان في أركان الوكالة، وقد طال بعضهم بعضٌ من لسعات ألسنة النيران، التي لفحتهم لتحذِّرهم من الاقتراب، وتلطخت جباههم وملابسهم البالية بالرماد، ليتوسطهم «راضي»، الذي وقف غائبا في

هوَّة الذهول.

اقترب منه أحد الصبية، يحاول منْعه من الولوج إلى الداخل، حتى لا يؤذيَه بقايا رماد الحريق؛ فدفعه في صدره بقوة، وفي داخله صوت يخبره أن لا فائدة، وأن ما يخشاه قد وقع بالفعل، اقترب ليقطع الطريق على مخاوفه، قبل أن تنهش قلبه، فربحت هي الجولة، وطعنته في أعماقه، عندما وجد النيران قد طالت الخزينة الخشبية الصغيرة، التي ثبَّتها سِرًّا في قعْر المكتب - اقتداء بعادة والده في الاحتفاظ بأمواله في خزينة - وأكلت كل ما بها من أوراق وأموال، فسقط بين براثنها تتلقفه أيادي صبيانه، حتى أخرجوه بعيدا عن الوكالة فاقدا للوعى.

تكاثرت الأقاويل في الحارة، فمنهم من قال إن هذا الحريق نشب نتيجة ماس كهربائي، وبعضهم تداول سِرًّا أن هذا من فعل الجن، الذي يسخِّره «راضي» ليصنع له خلطات العطارة، التي يروِّجها، ولا يمتلك غيره سِرَّ تصنيعها، وانقلب عليه بعد خلاف ما.

لم يرُدّ أحد، أو يجزِم بحقيقة ما حدث، أو ينفي شيئًا مما تداوله الناس، فلم تكُفّ الألسنة عن الخوض في هذا الحديث، الذي ظَلَّ «راضي» بعيدا عنه تماما، بعدما سكن سرير المستشفى لأسابيع طويلة، لا يدري أحد ما حَلَّ به، ومن حوله يجلس أولاده الثلاثة وزوجته، التي تلفَّحت بالأسود، وجلست تنعي حظها الغابر!

بدأت العافية تدب على استحياء في جسده؛ فنهض يسأل الطبيب عن إمكانية مغادرته، وعودته إلى منزله، رفض الطبيب، لينهي الأمر بخروجه، بعدما وقَّع ورقة تفيد أنه سيتحمل مسئولية كل شيء في حال خروجه دون إتمام علاجه.

- هتعمل إيه يا راضي؟

قالتها «هانم» التي أصبح الأسود رداءها الوحيد، كأنها تعزِّي نفسها بفقدان كل شيء، فلا نقود أصبح يملك زوجها ولا عمل، احترقت الوكالة بكامل ما فيها، كأن النيران أقسمت ألا تترك شيئًا، حتى الحوائط قد انفرط قوامها، وأصبحت كهفًا يسكنه الظلام.

- مفيش غير إخواتك... أكيد هما اللي ورا الحريقة دي.

تقلصت ملامحه ضيقا مما سمع، فأردفت:

- صدقني يا اخويا.. أكيد حرباية من الاتنين أجَّرت حد يولَّع لك في أكل عيشك.

بعصبية قاطعها:

- خلاص يا هانم، مفيش قدامي إلا حل واحد، لو ما تمِّش يبقى أنا انتهيت.

اقتربت وسألته بلهفة:

- حل إيه.. قول؟

غاب صوته وهو يفكر في جدوى هذا الحل، فالوقت

المتبقي ليلحق بإتمام صفقة المواد العطرية مع المورِّد الليبي سينتهى بعد أسبوع، وهذا هو الأمل الوحيد ليعود مرة أخرى إلى التجارة والحياة ذاتها مرة أخرى.

ضايقها صمته، فلكزته في كتفه تستحثه على الحديث، ليرُدَّ بنبرة مهتزَّة:

- مشوار استيراد البضاعة من ليبيا يتم يا هانم، لو تم هاقدر أقف على رجلي من تاني.

- طب ما تنساش اللي قلت لك عليه...

- هو إيه يا هانم؟

- تكتب لي البيت باسمي عشان محدِّش من إخواتك ي...

قاطعها بعصبية مفرطة:

- إحنا في إيه ولا في إيه يا بنت الحلال، إحنا في مصيبة وانتي بتقوليلي إكتِب لي البيت!

ردَّت بعصبية مماثلة:

- أنا غلطانة وبنت كلب إني بافكر في مصلحتك.. يارب البيت يتحرق هو كمان.

أنهى الحوار بصمته، الذي عاد إليه، وهو ينهض بصعوبة من السرير، وبدَّل ملابسه على عَجَل، وفي باطنه جيوش من القلق المستبد، جاهد للسيطرة عليه، وهو في طريقه إلى منزل «سمعان بحراوي» والد زوجته، الذي استقبله ببرود:

- نحمد الله على سلامتك يا جوز بنتي.

رقق صوته وهو يقترب ليصافحه:

- الله يسلمك يا عم سمعان.

باغته «سمعان» بسؤال أربكه:

- على الله تكون فاكرنا بالخير.. خير؟

- كل خير.. كنت جايلك بخصوص الفلوس اللي طلبتها منك.

قالها «راضي» مترددا، فقاطعه «سمعان»:

- وماله يا جوز بنتي، احنا خدامينك.

- العفو.. العفو يا عم سمعان.

تجاهل «سمعان» ما سمع وسأله:

- عايز كام المرة دي؟

- خمسين ألف.

تراجع «سمعان» في مقعده، وأطال النظر إليه كمن يتعرَّف عليه لأول مرة فقال:

- والله يا عم سمعان ما بقى حيلتي حاجة، والفلوس دي هي اللي هتساعدني أنهي الصفقة، وأقف من تاني على رجلي في السوق.

لم يهتم «سمعان» لحديثه وانشغل مع خزانته الصغيرة، التي فتحها بحِرص، وأخرج منها دفترَ أوراقه الخاص، وكتب بها الرقم هذه المرة، وذيَّله بتوقيعه، ليتوقف فقط على

توقيع «راضي»، الذي التقطه من يده بتوجُّس:

- إيه ده.. ده كتير قوي.. قوي..

- الظروف بتتغير يا جوز بنتي، وبعدين هتاخد خمسين وترجَّعهم سبعين، والله إنت الكسبان، شوف هتطلع بمكسب من وراهم قد إيه..

قالها ونظر بتحدٍّ لوجهه، الذي بدا عليه القلق والتراجُع، أمهله بضعة أيام للتفكير، فقطع «راضي» كل لحظات التردد بأن وافق على شروطه، فلن يتكبد خسائر أكثر مما خسر، فليحاول إنقاذ نفسه هذه المرة مهما بلغ الثمن، ليعاجله «سمعان» بالقاضية، عندما ناوله ورقة إضافية مطوية بعناية فتحها ببطء .

ارتفعت حرارة «راضي» في هذه اللحظة، وجفَّ حلْقه تماما، عندما قرأ ما خطَّه «سمعان» في الورقة، فقال بنبرة أقرب إلى التوسل:

- طب وليه كدة يا عم سمعان!

اصطنع «سمعان» البراءة:

- خير يا جوز بنتي.. الحق ما يزعَّلش!

كمن غاب عقله كان «راضي»، الذي بلل طرف القلم في المحبرة، التي وضعها «سمعان» أمامه، وهو يوقِّع باسمه كاملا على هذه الورقة الإضافية، وهو يحدِّث نفسه بأن حماه قد جرَّده الآن مما يستر عورته.

ابتسم «سمعان» بمكر، كذئب عجوز نجح في قنْص

فريسته، وجلس يتلذذ بالتهامها، فاستأذنه أن يسرع في تجهيز المال، ليأخذه ويذهب، لينهي بعض الأمور قبل السفر، أومأ وغاب لدقائق بإحدى الغرف الضيقة، التي لم يصل إليها بصر «راضي»، فجلس ينتظره حتى عاد، وفي يده حقيبة قماشية، ينام بداخلها خمسون ألفا من الجنيهات، أعطاها له بعدما ألقى بإيصال الأمانة الممهور بتوقيع «راضي» في الخزينة، وأحكم إغلاقها جيدا

****

خرج «جمال» من غرفة السيدة مترنحا كالمخمور، تدافعت دقات قلبه، فدكت صدره، كأنها تريد تحرير قلبه من السجن داخل هذا الجسد المعبأ بالمصائب، نظر حوله فهاجمه الظلام من كل صوب، أخرج هاتفه بحرص لعل إضاءته الاصطناعية تنير له موضع قدَمه، للحظات وقف يفكر.. كيف يخرج من هذا التيه؟.. على غفلة منه جذبه كفٌّ صغير دافئ، فارتجفت كل ذرات جسده، صوب شاشة الهاتف ناحيته؛ فلم يكن سوى الصبي، الذي أوصله إلى هنا في رحلة المجيء.

بصمت سحبه الصبي، فبدا كالضرير، الذي يعبر الطريق بمساعدة الآخرين، استسلم لهذا الخاطر، حتى خرج به الطفل من المنطقة العشوائية، ليظهر النور أخيرا على الطريق العمومي، تلفَّت حوله ليشكره، فلم يرَ له أثرًا،

كأنه اختفى كما ظهر من العدم!

تخطَّت الساعة التاسعة بدقائق قليلة، وقف أمام الطريق يلفُّه البرد من كل اتجاه، لا يدري.. هل انخفضت الحرارة إلى هذا الحد فجأة؟ أم تنبع هذه البرودة من داخله! استوقف سيارة أجرة، ودفن جسده في مقعدها الخلفي، محاولا السيطرة على رجفته، أخبر السائق بوجهته قبل أن يغوص في بُحيرة من المخاوف، التي سحبته بقوة في تيارها الجارف، حاول المقاومة؛ فازدادت شراسة التيار، الذي كاد أن يقصم عنقه، ما بين التفكير وفقرة الذكريات..

طفل كان، لم يتعدَّ عمره سبع سنوات، وقف ملتصقا بقميص والدته، التي شهقت ولطمت وشقت ثوبها، امتلأ المكان بجموع النسوة، اللائي ارتدين الأسود، جلست بينهن عمته «صافية»، بجانب الكرسي المتحرك لجده، تربعت على الأرض تدفن رأسها بين كفيها، يسيل الدمع لاهبا على وجنتيها، وبجانبها عمته «زينات» تبكي والدها، وهي تدعو الله أن ينتقم ممن تسبب في موته، سمعتها والدته؛ فشقت صفوف النسوة، وجذبت «زينات» من ذراعها، جرَّت جسدها كالبهيمة المذبوحة؛ فتعالى صراخ النسوة، الذي اختلط مع صياح والدتهن وهي تسب عمته، وتنعتها بالعاهرة.

انزوى في أحد الأركان، يتابع ما يحدث، عمته «صافية» تحاول تخليص جسد «زينات» من براثن والدته، التي نشبت مخالبها في عنقها هي الأخرى، تعالى الصراخ، وتكومت النساء بعضهن فوق بعض، يحاولن إنقاذ الأختين قبل أن تفتك بهما «هانم»، التي جرَّدتهن من غطاء الرأس، ومزَّقت ملابسهما، وبقدمها طرحت «صافية» أرضا، ودفعتها خارج الشقة، ومن خلفها «زينات»، وهي تسبهم بأفظع الألفاظ، بكى «جمال»؛ فجذبته والدته وصعدت إلى شقتها، عندما جاء والده في هذه اللحظة!

- أنا هاحسِّرك على عيالك يا وس** يا بنت الشر****..

- والله لتشوفي أيام سودا إنتي وجوزك وعيالك..

اختلطت العبارات على ذهن «جمال»، وانحفرت في أعماق ذاكرته، لفظت بها ألسنة عمته الثكلى، ردت والدته السبة بجيش من سباب، واللطمة بعشرات اللطمات، انسحقت تحت قدميها كرامتهما وقوتهما قبل أن تطردهما خارج البيت.

- يا بيه.. هتنزل هنا؟

تنبه «جمال» إلى صوت السائق؛ فأومأ مناولا إياه نقوده، غادر السيارة، فهاجمته موجات غادرة من الألم، كأن قسوة الذكرى عادت بسطوتها كاملة، استشعر بالألم يدق رأسه من الداخل، حتى كاد يدفع عينيه لتسقط تاركة محجريهما فارغين.

هرول إلى العمارة، التي يقطن فيها مع زوجته بشكل مؤقت، صعد إلى الشقة، وأخرج المفتاح ليدخل إلى الشقة، وفي أعماقه يشعر أنه يعبر بوابة تفصله عن الخوف، لطالما راودته رغبة في احتضان «عفاف»، ليهرب ولو للحظات من هذه الكوابيس المتتالية التي رفعت شعارها على كل تفاصيل أيامه.

استقبلته «عفاف» فارتمى أمامها على المقعد القريب، لدقائق جلس يحتسي الصمت، فجذبته برفق إلى السرير، حاوطت رأسه بكفيها، فبدا أنه يهذي، يقذف لسانه بكلمات غير مترابطة، بنبرة مهتزة سألته:

- جمال.. إنت كنت فين كل ده.. ومالك.. فيك إيه.. أبوس إيدك فهِّمني أنا تعبت!

تراشقت كلماتها على أذنه كالسكاكين، انهالت عليه بلا رحمة، فسقط بجانبها على السرير، لا يدري ماذا يقول، وكيف يطمئنها، وهو في باطنه ألف طن من الخوف العتيق، طال صمتهما لدقائق، قطعه عندما ضمها لصدره، وقال في هدوء:

- أنا هاقولك كل حاجة يا عفاف.

انزلقت من بين يديه، ليستقيم جسدها على السرير بجانبه، بينما هو شرع في الحكي، حكَى لها عن الخطاب، الذي حمل له الورقة المجهولة، وعن السيدة التي ذهب إليها، وعما دار بينهما، حكى حتى انتهت الكلمات، لينظر

في عينيها فاختلط خوفهما، لا يدري كل منهما من أقدر على طمأنة الآخَر، من عليه احتواء الآخَر، والأهم: ماذا يجدر بهما أن يفعلا!

وكأن الصمت أصبح اللغة الرسمية بينهما، طال وطال، حتى قرر «جمال» قطعه مرة ثانية، عندما أخبرها بحزم:

- لازم نرجع الشقة دلوقت حالا.

نظرت له مستنكرة، فأردف:

- عناوينهم في الورق القديم اللي هناك.

بصعوبة أقنعها، فبدلت ملابسها بغير اهتمام بأناقتها، كأنها فقدت الشغف بكل الأشياء، ومثلها هو، وتوجَّها معا إلى بيت العجائب، الذي عاشا فيه كل تفاصيل الألم والخوف، دخل من الباب الحديدي، وصعد ليمر من أمام شقة الدور العلوي الأول، فالتقى أخاه الأصغر «أمين»، الذي نظر إليه بلا مبالاة؛ فناداه «جمال»:

- ولا كأنك عايش في الدنيا!

لوَّح له أمين بكلتا يديه، فبدا كراقص باليه، ليدرك «جمال» أن الخمر قد أذهب عقله بلا رجعة، حيَّاه «أمين» بكلمات بدت راقصة:

- مساء الفل على عم الكل، مسا مسا يا كبير.

امتعض «جمال»:

- هو إنت خليت فيها كبير ولا صغير!

لكزته «عفاف»، التي وقفت خلفه في كتفه وقالت بخفوت:

- مش وقته، هو أمين دريان بحاجة!

تركهما «أمين» لحوارهما الجانبي، ودخل شقته، وأغلق الباب، وصوت غنائه يخترق أذنهما، كمن يعيش وحيدا على سطح هذا الكوكب، لعنه «جمال» في أعماقه، وهو يصعد إلى الطابق الثاني، ليأتي إليه صوت زوجة أخيه الثاني «خليل»، وهي تصرخ فيه، لأنه كسر أحد الأطباق، توقف ونظر إلى «عفاف»:

- كل واحد فيهم عايش في دنيته، وأنا اللي شايف السواد.

لم ترد «عفاف»، التي توقفت أمام عتبة الطابق الثالث، حيث تقبع شقتهما، ورفضت قدماها أن تتحرك خطوة واحدة، جذبها برفق، وطمأنها ليدخلا معا إلى الشقة، التي احتفظت برائحة الدخان الخانق، كأن الحريق لازال مشتعلًا إلى الآن، تجاوزا أغراضهم التي تبعثرت في كل مكان، والدم الذي تجمد، ولطخ الأرضيات والملابس، ليدخلا معا إلى غرفة النوم، عندما قال جمال:

- الورق كله ودفتر العناوين في الدولاب هنا.

قاطعته «عفاف» متسائلة:

- هو إنت مش هتقول لإخواتك على المصيبة دي؟

بتردد أجاب:

- لا، الست قالت لي العمل قاصدني أنا، وبعدين هما كل واحد فيهم في وادي، محدش في دماغه حاجة ولا

حد طايله أذى!

استنكرت عليه ما قال، وأومأت في عدم اقتناع، لينهي الحوار عندما أخرج صندوقًا به أوراق قديمة، أخبرها أنها لوالده:

- لحقت دول قبل ما يحصل اللي حصل زمان، واحتفظت بيهم، ما كنتش أعرف إني هاحتاجهم في يوم.

أخرج عشرات الأوراق، التي التصقت ببعضها البعض، اختلطت بها رائحة المواد العطرية بالعطن، لتصنع مزيجًا من الاشمئزاز، والحنين إلى أيام انقضت.

من بين الأوراق، سقط بين يديه ورقة، كُتب عليها عناوين وبعض الأسماء، لمعت عيناه فرحا وقال:

- همَّ دول، الحمد لله إني لقيتهم.

طوى الورقة بحرص، حتى لا تنفرط بين يديه، وأعاد كل شيء إلى موضعه، قبل أن تلتقط «عفاف» بعض الملابس في حقيبة ضخمة، وغادرا معًا، ليقرر «جمال» أن يبدأ حالا في البحث عن أول طريق الخلاص.

****

احتضن "راضي" الحقيبة القماشية في صدره كمن يضم قطعة من روحه، فهي السبيل الوحيد لإنقاذه مما هو فيه، يجاهد للِّحاق بإتمام الصفقة في ميعادها، بعدما

انفرط وقت كبير في تحقيقات النيابة، حول واقعة حريق الوكالة، التي انتهت بتقييدها ضد مجهول، وإن كانت التحقيقات قد أكدت أنها بفعل فاعل!

خرج من دار "سمعان" بخطوات متسارعة، كمن يريد سباق الزمن، حتى وصل إلى منزله، لتستقبله زوجته، التي تهلل وجهها فرحا عندما أخبرها بأن والدها وافق على إقراضه مبلغ كبير من المال بالربا!.. لم تعبأ لما قال، بل تراقص قلبها من السعادة، لأنها تعي تماما أنها ستحصل على جزء من نسبة أرباح والدها، كما اتفقا معا دون عِلم زوجها.

أحكم وضع الحِزَم الورقية النقدية في حقيبته، وتأهَّب للسفر، بعدما اتصل بوكلاء الشركة في مصر، والمقيمين في محافظة بورسعيد، ليخبرهم بقدومه، فأوقفته "هانم" بدلال:

- ما تنساش اللي اتفقنا عليه أول ما ترجع بالسلامة.

سألها وهو يتأهب للخروج متعجلا:

- اتفقنا على إيه؟

تحسست بطنها المنتفخة قليلا من أثر حملها الرابع وقالت:

- تكتب لي البيت باسمي، وأهو كله لعيالك مش هاخد حاجة لنفسي يا اخويا.

ضاقت أنفاسه لما سمع منها، فقد كررت هذا المطلب

على أسماعه مرارا وتكرارا، وكان جوابه التجاهل، لم يوافق ولم يرفض، لا يعلم لماذا تصر على هذا الأمر، تنفس بهدوء وقال:

- يا هانم.. نخلص بس من المصايب اللي احنا فيها، ونفكر في موضوع البيت.

تصنعت الغضب، فلحقها قبل أن تطلق قذائف كلامية من جوفها، وقال وهو يقف على عتبة الشقة:

- ادعيلي موضوع السفر يتم على خير.. ده فيه شقا العمر.

لوحت بيديها، وأولته ظَهرها بغير اهتمام، فأحكم قبضته على الحقيبة، التي ينام بداخلها خمسون ألفا من الجنيهات، وغادر قبل عودة أطفاله من المدرسة، تمنَّى لو يحتضنهم قبل سفره، فلم يحقق له الوقت هذه الأمنية؛ ليغادر في هدوء إلى موقف سيارات الأجرة، اقترب من إحداها وسأل السائق أن يُقِلَّه إلى محافظة بورسعيد، وقد كان..

ركب "راضي" السيارة وغاب في دوامة شروده، تتخبط رأسه بين عشرات الأفكار والأحداث، ما بين حريق الوكالة، والورقة التي أجبره "سمعان" عليها، فكيف له أن يتجرأ ويجبره أن يوقِّع على التنازل عن ملكيته لنصف الوكالة مقابل إقراضه هذا المبلغ، والأدهى أنه قد حصل على نسبة أرباح تتعدَّى أربعين بالمئة.

كيف وافق على هذه الشروط المجحفة، فلو لجأ للاقتراض من أحد البنوك؛ ما كانت ستضع مثل هذه الشروط سيفا

على رقبته، كيف نجح إلحاح زوجته على رأسه في إقناعه بإلقاء نفسه في اليم!

نفض هذه الأفكار، التي عصفت برأسه، عندما قطعها بكلمات رددها بينه وبين نفسه بخفوت:

- اللي حصل حصل خلاص.

سمعه السائق فسأله:

- فيه حاجة يا بيه؟

بحِدة أجاب:

- خليك في طريقك.

أخرج السائق بعض اللفائف من ركن خفي في السيارة خلف عجلة القيادة، وشرع في تجهيز بعض السجائر المحشوة بنبات البانجو، لم يُعِرْه "راضي" أي اهتمام، قبل أن يمد له السائق بواحدة مشتعلة، يفوح منها رائحة أقرب لبراز الخراف، وغلفت أشباحها الدخانية هواء السيارة، فصرخ في وجهه:

- إبعد الزفت ده، ما ليش فيه، وركِّز في طريقك!

جرت السيارة في طريقها برشاقة، أمعن السائق في الإبطاء من سرعته، حتى خرج من جوف المدينة إلى الطريق الصحراوي، من أحد الطرق الجانبية برزت سيارة يستقلها ثلاثة أشخاص، قطعت طريقهما، سب سائقها

بصوت جهوري، فطال السباب كرامة سائق السيارة الأخرى، لتبدأ جولة المطاردة..

تصاعد تأثير المخدر في رأس السائق، وتكاثرت أدخنة الشجاعة الوهمية بداخله؛ فشرع يناطح السيارة الأخرى، ومن خلفه "راضي"، الذي تكركبت أمعاؤه، وتدافعت دقات قلبه، وهو يرجوه أن يهدِّئ من سرعته.

كأنه يحدث قطعة حجر صماء، لم يعره أي انتباه، وهو يكبس مقود السرعة، لتصل إلى أقصاها، وهو يلعن الدنيا والدين، انحرف مرات ومرات عن الطريق، في محاولات عنيدة، قبل أن يسبقه قائد السيارة الأخرى، ويقف في مواجهته تماما، فضغط السائق على مكبح السيارة بعنف، لتتوقف في موضعها.

نزل من السيارة الأخرى ثلاث جثث بشرية، أجسادهم كناطحات سحاب، سحبا السائق من موضعه، وتراشقوا جسده فيما بينهم، ما بين ركلات وصفعات، وسيل من سباب نال كل غالٍ وعزيز لديه.

انكمش "راضي" في موضعه، قبل أن يتذكره أحدهم، فجذبه خارج السيارة، والتقط بعنف الكيس القماشي المعبأ بالنقود، والذي جاهد في اخفائه بين طيات ملابسه، تفحَّصه الرجل مبتسما قبل أن يضرب "راضي" ضربته الحاسمة و... صمت كل شيء....................

* *

- تحب نقف في أي استراحة على الطريق يا بيه؟

رفض «جمال» مشيرا له بإصبعه أن يكمل طريقه، فلا وقت للراحة، ولا هو يعرف ما يختبئ له خلف صخرة الزمن...

- هتسيبني لوحدي؟

قالتها «عفاف» بنبرة تفيض بالخوف، فالشعور بالأمان في مثل هذه الظروف محض عبث، أمان كاذب، مهما حاولا تمثيله، فلن يصمدا كثيرا أمام سطوة الخوف من المجهول، لابد أن يذهب منفردا في رحلة البحث عن عمته «زينات»، التي توصَّل إلى عنوانها من بقايا الأوراق، التي جمعها عن والده قديما، ومن خلالها ربما يصل إلى عمته «صافية»، التي تاه عنوانها عن الأوراق، سيذهب إليها. يجثو أمام قدميها، يبللها بدموعه، سيخبرها بما حل به بغير ذنب، لتساعده على النجاة من هذه اللعنة!

توسلت إليه أن يصحبها معه؛ فرفض بحِدة، لا يجرؤ على عصيان أمر العجوز، التي أخبرته بأن هذا شأنه وحده، ولن يصل إلى حل إلا بمفرده، ووجب عليه التنفيذ قبل خسارة كل شيئ.

تأهب للخروج، وطلب منها عدم مغادرة الشقة لأي سبب، نزل واستوقف سيارة أجرة، سأله السائق عن وجهته فأخرج ورقة صغيرة من جيبه، مدون عليها عنوان

العمة، لم يتذكر يومًا أنه صحبه إليها، أو زارتهم، انقطعت أخبارها عنهم بعد وفاة جده «طاهر»، أخبره بالعنوان في هدوء، وأراح ظَهره، الذي أرهقته الضربات المتوالية، طال الطريق وامتد كأنه لا نهاية له، جزع لهذا الخاطر، وكأن الطريق يتآمر عليه هو الآخَر.

بين الطرق الزراعية سار، كأنه البشري الوحيد على الأرض، لم يرافقه في رحلته أحد، لا قمر ينير الطريق ولا نجوم، اختفت الطيور، جفت ينابيع المياه، وذبلت وريقات الأشجار، تلفت حوله، فاصطدم بصدى أنفاسه المتوهجة كالنيران اللافحة، سار حتى أعيا السير قدمه، تلوَّى من الألم، حتى أوصلته قدماه إلى عتبة بيت بُنِيَ بالطوب الأحمر، تعلوه شُرفة صغيرة، أطلت منها مُسِنَّة تشبه والده تماما.

رمقته طوليا؛ فنادى بأقصي ما استطاع عليها، لم يهتز لها رمش؛ فأدرك أنها تعاني من ضعف حاد في السمع، رفع المطرقة الحديدية الصغيرة المعلقة أعلى الباب، وطرق بها عدة طرقات لتتنبه له، لم ترد.. تراجع خطوات ولوَّح لها بيديه، تأكد أنها تراه، لكنها وقفت كتمثال لا روح له، صرخ بأعلى صوته:

- يا عمتي، افتحيلي.. أنا جمال!

نطقت السيدة بصوت هز جسده:

- جاي ليه يا ابن راضي؟

ابتلع لعابه وأجاب:

- جاي أبوس إيدك ورِجلك.

ضحكت.. ضحكت فاهتز لضحكها فروع الأشجار المتشابكة، وقالت:

- بوس الإيد ما بيفيد يا ابن راضي.

قالتها، وواصلت الضحك؛ فلمع صف أسنانها الفضي، لينعكس بَرِيْقُه في عينيه، بكى أمامها كطفل يرجو السماح، رآها تشير بيديها لشيء ما خلفه، حاول الالتفات ليرى؛ فمنعته يد ثبَّتت عنقه في موضعه، ثارت ثورته، وانطفأت في نفس اللحظة، التي شعَر فيها أنه الآن مجرد لعبة في يد عملاق، رفعه بكفه، حتى أوصله إلى الشرفة، ليتدلَّى في الهواء، في مواجهة العمة، التي نظرت في عينيه نظرة تحمل في باطنها أكوام من الكُره.

توسل إليها بنظراته، بعدما فقد النطق تماما، ارتفعت ضحكاتها، عندما رأت قطرات البول تسيل منه رغما عنه، وقالت بصوت كالفحيح:

- أبوك زمان عمل، وآن الأوان تدفع إنت.

بصوت مبحوح سألها:

- تؤمريني وهانفِّذ، إيه يرضيكِ؟

بتشَفٍّ وحِدة قالت:

- روحك يا ابن هانم.

نطقتها؛ فرفعته اليد إلى أقصى ارتفاع، كأنها اخترقت به

حدود السماء، نظر؛ فرأى الكون أسفله كمكعبات هزلية تراصت في عشوائية، والبشر قطعان مجنونة من النمل، سقطت عليهم دفقة ماء، فتفرقوا في كل الاتجاهات، ارتفعت به اليد أكثر وأكثر وأكثر، قبل أن تتركه يواجه مصيره وصولا إلى أسفل سافلين، تراقصت الروح في جسده رقصتها الأخيرة، قبل المغادرة النهائية، ليصرخ مودِّعا الحياة، وتذكَّر في هذه اللحظة صرخته الأولى لحظة الميلاد، كأنه أتم دائرة الحياة، وعاد الآن إلى نقطة البداية، ارتفعت صرخته، وانتفض جسده فجأة، ليتوقف السائق على أثرها في منتصف الطريق يسأله بقلق:

- مالك يا بيه.. فيه حاجة؟

تلفت «جمال» حوله، ليكتشف أنه لازال في السيارة، في الطريق إلى عمته، تحسس عنقه وصدره، وقطرات العَرَق تغمره، سأله السائق بقلق:

- تحب اطلع بيك على مستشفى يا بيه؟

رفض «جمال» بحِدة، وأمره أن يكمل طريقه، فكتم السائق صوته، عندما لاحظ في نبرته رائحة آمرة مقيتة، ليقطع الطريق في صمت، وهو يرمقه في مرآه السيارة بين الحين والآخر.

وصلت السيارة إلى العنوان، فتوقف على جانب الطريق، على رأس أحد الشوارع، نزل «جمال» ليسأل أول شخص صادف مروره:

- لو سمحت، عايز أروح بيت الحاج وصال نور الدين.

رحب به الرجل، الذي ابتسم في بشاشة:

- هو حضرتك تقرب له؟

- أيوه، هو زوج عمتي.

- يا مراحب يا مراحب، ده حمايا.

تهلل وجه «جمال»، عندما أخبره الشاب أنه سيذهب معه، ويوصله إلى المنزل، رحب به الشاب، كأنه يعرفه منذ مولده، وصلا إلى منزل مبني من الطوب الأحمر، نظر إليه «جمال»، وفي أعماقه تردد صدًى لخاطر ما، نعم .. لقد رأى هذا المنزل من قبل، بالرغم من أنه لم يزُر العمة في أي وقت سابق، اعتصر خلايا ذاكرته، حتى وصل إلى نقطة النور، نعم.. لقد رأى هذا البيت في الكابوس، الذي جثم على صدره في السيارة!

اقتربا أكثر من المنزل، ليقدِّمه الشاب إلى عجوز جلس أمام متجر صغير، يدخن سيجارته في صمت:

- ياعم وصال، جايلك ضيف.

انتصب جسد الرجل، الذي كست ملامحه الهيبة والوقار، ورحب ب»جمال»، الذي عرَّفه بنفسه:

- أنا جمال يا حاج وصال، ابن أخو الحاجة!

تبدلت ملامح الرجل، وقال بغلظة:

- الحاجة ملهاش إخوات

تدخل الشاب الذي صحب «جمال»:

- استهدى بالله يا حاج، خير بس الراجل ضيفنا.

ثار الرجل في وجهه:

- اخرس إنت يا وش الفقر، حسابك معايا مغبر.

اقترب «جمال» من الحاج «وصال»:

- يا حاج أنا جاي واقع في عرضك، أنا في مصيبة كبيرة حلَّها في إيد الحاجة زينات.

سمع الرجل اسمها، فرقَّ صوته وقال بأسًى:

- روح لها تحلهالك، ليه جاي لي!

- أروح لها فين يا حاج.؟

- سكنها الجديد في البراح، في دار الحق يا ابن الظالم.

قالها وبكى بحرقة، ليصمت «جمال» تماما، التفت إلى الشاب الواقف بجواره، فخفض رأسه وهو يسحبه إلى خارج المحل، عندما أمرهما الحاج «وصال» بالمغادرة.

غامت الدنيا أمامه، وانسدلت الستائر السوداء، التي حجبت عنه النور، تراجع في صمت، وفى أعماقه تتردد كلمات الرجل، الذي وقف يبكي زوجته بجزَع، انسحبت ذرات الهواء، واختفت تماما، ضاق صدره، وقُرعت الطبول في رأسه؛ فأحدثت ضجيجا عنيفا في رأسه، كأن كل ذرة في الكون تتآمر ضده، لتذهب به بسرعة الصاروخ إلى نهايته...

****

القِدر ممدَّد بين يدي الطفلة بوداعة، قِطع من اللحم تسبح في بِركة من الدماء، قرَّبتها من وجه الرجل فسمع صوتًا غير منطوق يخاطبه:

- طعامك.

ارتعشت إضاءة الغرفة الصفراء للحظات، والصوت يتردد في الغرفة بارتفاع تدريجي وصل إلى الصراخ..

- طعامك.. طعامك..

قوة غير مرئية تقدمت منه، وأحنت رأسه؛ لتتدلى بداخل القِدر، وتغطس في الدماء، انفرج فكَّه رغما عنه وقضم أول قطعة، بسهولة انفرط اللحم النيئ وتفتت، وكأنما تم إنضاجه بعناية قبل تقديمه إليه، هرست أسنانه قطعة اللحم، وقسمتها قواطعه، استقبلها حلْقه ليرسلها إلى جهازه الهضمي، الذي استقبلها بعاصفة من الانقباضات.

يأكل مرغما بقوة لا يدري مصدرها، تحرَّك فكُّه بآلية لينهش ويفتت، تقضم أسنانه ليتغذَّى هذا الذي يتربع هناك في نقطة بعيدة على أرض ذاكرته المعتمة.

اقتربت الفتاة من رأسه المنغمسة في الدماء، وهمست في أذنه بما جعله يتراجع بقوة، تأمل ما تنهشه أنيابه وصرخ.. صرخ صراخا هز جدران الغرفة، وتراجع خطوات في غير تصديق لِما سمع قبل أن يغيب عن الوعي.

****

خرجت الكلمات مرتبكة من لسان «جمال»، الذي وقف مذهولا، لينتقل الذهول إلى الشاب، الذي لم يتركه، بيأس نطق «جمال» وسأله:

- الحاجة زينات كان لها أخت، ماتت هي كمان؟

تهلل وجه الشاب:

- الحاجَّة صافية، ربنا يدِّيها الصحة وطول العمر.

عادت الروح تدب في جسد «جمال» وسأله برجاء:

- إنت تعرف مكانها؟

- أيوة، دي قاعدة معانا منورانا.

قبَّله «جمال» واحتضنه؛ فاندهش الشاب الذي ارتاب فيه:

- هو حضرتك أصله إيه؟ بتسأل عنهم دلوقت؟

- دي مسألة حياة أو موت، موضوع قديم وحلَّه في إيد الحاجَّة.

- ممكن أعرفه؟

- سامحني والله ده موضوع خاص جدا، أبوس إيدك توصلني بالحاجَّة صافية.

صحبه الشاب في صمت، وجيوش من الفضول تسكنه.. تُرى ما السر في زيارة هذا القريب وبحثه الحثيث عنهم بعد هذا العمر.. من المؤكد أن هناك سِرًّا خفيًّا لابد أن أعرفه.. هكذا حدَّث الشاب - زوج ابنة العمة – نفسه، وهو

يصطحب «جمال» إلى منزله، الذي وقف يستأنس ببعض المنازل البسيطة وسط الأراضي الزراعية، سارا وبداخل كل منهما طبول تُقرع، وعشرات من كلاب الأسئلة تنبح بلا إجابة، توقَّف الشاب أمام أحد البيوت:

- البيت أهه يا أستاذ جمال.

أومأ له مبتسما؛ فدخل لينتظره في الحوش الفسيح، فناداه الشاب بترحاب:

- تعالَ يا أستاذ جمال، إنت منوَّرنا.

قالها، ونادى زوجته ليخبرها بوجود ضيف، لتسرع بارتداء ما يسترها أمام هذا الغريب، وسألته:

- مين يا سعد؟

لم يُجِبْها، والتفت إلى «جمال»:

- أنا سعد، نسيت أعرفك باسمي.

جزع «جمال» لبرود مضيفه، وانتزع ابتسامة مرسومة ليسأله:

- هي الحاجَّة هنا؟

- أيوه.. فوق، ربنا يشفيها، بعد موت جوزها جَتْ قعدت عندنا.

دلت الزوجة رأسها تستفهم ما يحدث:

- خبر إيه يا سعد، مين اللي معاك؟

أجابها كمن أحضر معه نادرة من النوادر:

- ابن خالك، الأستاذ جمال.

امتقعت ملامح الزوجة، وأطالت النظر إلى «جمال»، الذي تراه لأول مرة في حياتها، فتقدَّم إليها:

- مساء الخير يا فندم، أنا جمال ابن خالك راضي.

دقيقة كاملة من الصمت مرت، لا يدري ثلاثتهم ما هي الكلمات التي يجب قولها، فلا سابق لقاء جمعهم من قبل، ولا رغبة لديها لمعرفة أبناء الخال، الذي حكت لها والدتها الراحلة في صباها عما فعله معها هي وأختها، فلماذا جاء ابن الخال بعد هذا الزمن ليسأل عنها؟ قطع «سعد» الصمت:

- الأستاذ جمال جِهْ يطمِّن على الحاجَّة صافية.

بجمود سألته:

- ليه؟

عاتبها «سعد» بنظره، وهو يحثها على الدخول للترحيب بالضيف، دخلت ومن خلفها دخلا ليعتذر «جمال» عن حضوره المفاجئ، فالتفتت إليه ابنة عمته:

- ما جاوبتنيش، ليه افتكرتنا وبتدوَّر علينا!

تلجلج لسانه وقال:

- والله يا فندم دي حكاية طويلة.

قاطعته بصرامة:

- إنت حتى ما تعرفش اسمي، إيش دخَّلني بحكاياتك

الطويلة!

لكزها «سعد» في ذراعها، واعتذر بلطف إلى «جمال»، الذي تعرَّق جسده ترقُّبا للقاء عمته «صافية»، فلا هو يريد الدخول في جولات عتاب مع ابنة العمة، ولا لديه القدرة على النقاش من الأساس.

تنحنح وسألها بلهفة:

- طب أشوف الحاجَّة صافية وهتعرفوا كل حاجة.

تدخَّل سعد آمرا زوجته:

- ادخلي صحِّي الحاجَّة وقوليلها فيه ضيف عايز يشوفها.

قالها وابتسم مرحبا ب»جمال»، الذي شعَر بجيوش من النمل تسري في خلايا جسده، تأهب لملاقاه العمة، توحَّدت كل حواسه مع هذه اللحظة، فلم يسمع كلمات «سعد» التي قالها، لم يشعر بوجوده، كأنه غير موجود من الأساس، تبخرت الموجودات، وغابت المرئيات كلها عن عينيه، التي أبت أن ترى أي شيء عدا «صافية»، التي خرجت بها ابنة العمة، تدفع جسدها، الذي سكن الكرسي المتحرك، تقدَّم منها، وبجانبه «سعد»، الذي التصق به كالظل، نظرت في وجهه نظرة خالية من المشاعر، فاقترب منها يقبِّل يدها:

- أنا جمال يا عمة، ابن أخوكِ راضي.

تدخل «سعد»:

- يا حاجَّة صافية، ده جمال، ابن أخوكِ.

جثا «جمال» على ركبتيه أمامها، فنظرت في وجهه، ونطقت بصوت واهن:

- أخويا مين؟

وقفت الزوجة تشاهد ما يحدث متأففة، فتدخَّل «سعد»:

- يا حاجَّة، إنتِ كان ليكي أخ اسمه راضي، الأستاذ جمال يبقى ابنه.

وزَّعت السيدة نظراتها بينهم تستفهِم، هل يقصدونها بهذا الحديث!.. كأنها تعيش خارج حدود الزمان والمكان، نظرت إليهم جميعا، وأغلقت عينيها باستسلام، ليتدخَّل «جمال» بعصبية:

- هي فيها إيه، مالها يا سعد!

ردَّت الزوجة بعصبية مماثلة:

- جالها المرض اللي بيمسح كل حاجة من الدماغ يا أستاذ، يا ابن خالي، جالها عشان تنسى كل حاجة عملتوها فيها.. حسبي الله ونِعم الوكيل

التفت وتمتم في ذهول:

- ألزهايمر!

تدخَّل «سعد»:

- أنا قلت لو شافتك كان ممكن تخِف، وتفتكر كل حاجة زي ما بنشوف في الأفلام يا أستاذ.

برقت عينا «جمال»، الذي اقترب من فقدان ذاكرته هو

الآخَر، أراد في هذه اللحظة بالفعل أن يفقد ذاكرته وعقله وروحه نفسها، خانته ساقاه؛ فسقط أرضا غير قادر على الوقوف، هروَلَ إليه «سعد»؛ يرفع جسده على أحد الكراسي، بينما وقفت الزوجة تشاهد ما يحدث، ليسأله «سعد»، الذي قتله الفضول:

- هو إيه الموضوع المهم اللي كنت عايز الحاجَّة فيه؟

- ....

فقد «جمال» القدرة على فعل أي شيء، حاول الوقوف؛ فلم يستطع، ليطلب منه «سعد» أن يستريحَ قليلا، تحامل على نفسه، وانتصب جسده فجأة، ليخرج جريا من شقة «سعد»، الذي وقف ذاهلا هو وزوجته، جرَى كأنه يريد الوصول إلى آخِر الكون الآن، وصل إلى الطريق العام في دقائق، جرَى حتى تعرجت قدماه، وتفتَّتَ كعباه، تدافعت تيارات الهواء المعاكس، فكادت تهشم عظامه وقفصه الصدرى، حتى سقط أخيرا، بعدما فقد آخِر ذرة تعينه على الحياة.

رق قلب المارة لحاله؛ فرفعه ثلاثة شباب، وحملوا جسده، بعدما قرروا فيما بينهم الذهاب به إلى أقرب مستشفى، بأحرف مرتعشة، طلب منهم «جمال» أن يعينوه على استقلال سيارة أجرة فقط، فعلوا ما طلب، بعد محاولات حثيثة لإقناعه بالذهاب إلى المستشفى، أنهاها برفض قاطع، أوقفوا له سيارة أجرة، ألقى جسده بمقعدها

الخلفي وهو يقول للسائق:

- ودِّينى شارع عبد العزيز فياض من فضلك، عند مساكن الأبراج، وهادفع اللي انت عايزُه.

* *

بِدَلْوٍ مملوء بالماء؛ استردَّ الرجل وعيَه مجدَّدًا ليصطدم بعودة أطرافه إلى أصفادها القاسية، المثبتة في الحائط، اقتربت الطفلة وهمست في أذنه.. نطقت كلماتها هذه المرة، فخرجت مختلِطة بدموعها..

- الموت مش النهاية.. الموت بداية كل النهايات.

ارتجف لذِكر الموت، لا يدري حقا، هل لازال على قيد الحياة أم قبضه الموت، وجلس يلهو به بعض الشيء!.. أشارت الطفلة إلى الركن القصي في الغرفة، وأردفت:

- هنا هينتهي كل شيء يا بابا...

اتَّحدت نظراتهما، هيِ ابنته.. لا يعرفها، لا يتذكَّرها، قرأت الفتاة الحيرة في عينَي والدها؛ فأردفت، تسبق دموعها الكلمات:

- أنا نور يا بابا...

* *

الفصل السابع

غادر "جمال" السيارة مهرولًا، كأنه مطارد من شيء ما، قادته قدماه إلى غرفة السيدة العجوز، كمن رُبِّيَ في هذا المكان منذ الصغر، ليقف أمام بابها المتهالك لاهثًا، شحذ بعضًا من شجاعة أوشكت على النفاد، وطرَقَ الباب ليأتي الرَّدُّ من الداخل كمن تنتظر قدومه:

- تعالَ يا ابن هانم.

دخل؛ ليجدها على نفس هيئتها كما تركها، تفترش الأرض، ضامة رأسها إلى صدرها، رفعتها لتوقفه بنظراتها الحادة، وقالت:

- في إيه جايني؟

رقق صوته:

- أنا واقع في عرضك يا سِتنا.

بصرامة قاطعته:

- سألتك تجاوب يا ابن هانم.

تجمَّد في موضعه، وقال:

- عمتي ماتت يا سِتنا والتانية نسيت كل حاجة.

تعاظمت غضبة ملامحها، فبدت كأنما ستقتلع عنقه من موضعها، تراجع خطوتين، عندما نطقت صارخة:

- مش مكتوب لك نجاة يا ابن هانم.. هالك.. هالك.. هالك..

كالطفل الذي بال في سرواله وقف أمامها، يوَدُّ لو يترك لدموعه المجال؛ لتسيل فيموت غرقا بها، رأته على هذا الحال؛ فهزَّت رأسها ثلاث مرات، وقالت آمرة:

- أقعد.. عينك ما تفارقش عيني.

سمع الأمر فأطاع، طال صمتها فلم يجرؤ على النطق، لتفض بكارة الصمت بكلمات خرجت حروفها مدكوكة:

- ما في شيء صدفة، كله مكتوب وهيحصل.

- ....

كأن فتحة الفم في وجهه قد أُغلقت للأبد، فقدت وجودها؛ فاحتبس اللسان خلفها، لتحرره إشارة من يدها أن ينطق؛ فقال:

- أنا مش فاهم إيه اللي بيحصلِّي و..

رفعت سبَّابتها أمام فمها، ليفهم منها أن يقطع سيل الحديث؛ فسكت لتكمل هى:

- اللي بيتبعك وملازمك يشبهك، لكنه من جنس غير الإنس، استحلّ مَرَتَك وبيتك وروحك، وقريب هيبقى بديل لك، بعد ما تروح لمصيرك المكتوب.

برقت عيناه، وتدفَّقت الدماء إلى رأسه، تحسَّس رقبته متخيلا مصيره، فأكملت السيدة:

- هيخليك تنهي كل شيء بيدَّك، هو مش رايدك تعيش، يا إنت يا هوَّ.

حاول فهم مقصدها ففشل تماما، أطرقت رأسها أرضا وأردفت:

- قلت لك الوقت مش في صالحك، ما بقاش فيه إلا حل واحد وبعدها ....

هرب لسانه من محبسه، ونطق بتعجل:

- أبوس تراب رجلك قولي الحل.

لم تعنفه هذه المرة، ونظرت في عينيه بعمق، وقالت:

- هتعرف كل شيء في أوانه.

تجرأ وأعاد سؤالها:

- إمتى؟

ثارت واستعادت غضبتها مرة أخرى، فاتسعت حدقتا عينيها:

- ما تبقاش لَحوح... ما تستعجلش قضاك يا ابن هانم.

قالتها وأشارت له بإصبعها أن يقف؛ فأطاع، أمرته بالاقتراب؛ فجاءت خطواته مرتعشة، جذبته بيمناها، حتى أصبحت رأسه مقابلة لرأسها، يفصل بينهما بضعة سنتيمترات، اتسعت عيناها أكثر وأكثر، حتى استشعر أنها ستبتلعه بداخلها، تنفست بعمق، وقالت بصوت كالفحيح:

- كلامي يتحفر جوَّاك.

صمتت لثوان وهو على نفس الوضع ثم أكملت:

- الحل واحد، ولو طلع من جوفي هيكون الخاتمة.. وما اشوفش طرفك لحد يوم قيامتك.

استحثها بنظراته أن تكمل، فأبعدته بإشارة من يدها، ونطقت بصوت مبحوح... نطقت بالحل الذي سيخلصه من هذا الكابوس... اخترقت الكلمات أذنه كدبابيس حادة، جعلت كل شعرة في جسده تتوقف ذُعرا، سمعها واستكان على المقعد، لا يدري كيف السبيل إلى ما قالت!

بعد صمت مشوب بالقلق، نطق:

- إزاي هاقنعهم بكده، استحالة هيوافقوا.

ردت بغضب:

- اللي عندي قُلته.. نهايتك فيه.. وبإيدك يا ابن هانم.

انعقد لسانه، وسقط على الكرسي أمامها، فأكملت بنبرة غلَّفها تهديد واضح:

- قدَرك هو اللي اختارك، مفيش منه مهرب!

سألها بِحيرة:

- واخواتي؟

- اخواتك ما لهمش صالح، ولو نطقت ما هيصدِّقوش، إياك حرف من اللي قلتهولك يخرج من جوفك لحد منهم.

أومأ باستسلام، وبداخله أطنان من القلق، تركته السيدة بضع دقائق منفردا بخواطره، ثم حذَّرته بحِدة:

- طريقي تنساه، وإلا هتطولك لعنتي، ووقتها هاكون أنا قدَرك الأسود، هتركع قدامي ومش هارحمك!

قالتها بنبرة بركانية، ألهبت أعماقه، وأشارت محذِّرة مرَّة أخيرة بإصبعها:

- طريقي تنسااااااااه لحَد يوم قيامتك.

أنهت كلماتها، أشارت له بالخروج، فتراجع بخطوات مرتبكة، حتى خرج إلى الشارع، ليرِنَّ هاتفه في نفس اللحظة، تجاهله؛ فتكرَّر الرنين المزعِج، لينتزع الهاتف من جيبه بعنف، وضغط على زر بدء المكالمة، ليخترق أذنه صراخ اعتصر أعصابه، نظر جيدًا لاسم المتصل، ليجدها "عفاف"، التي صرخت في الهاتف، كأنها الآن في قاع الجحيم....

****

طفلة في السابعة من عمرها تخاطبه بـ "بابا".. لا يعرفها، ولم ينجِب إناثًا.. اعتصر خلايا عقله، وفتَّش بعشوائية في غُرف ذاكرته المهجورة، علَّه يتذكَّر شيئًا، فاصطدم بخيوط العنكبوت التي عششت في ذاكرته!

من أنا؟.................

صراخ داخلي رجَّه رجـًّا، اهتز جسده بعنف يمينا ويسارا، فأدمت القيود معصميه، سال منها خيطُ أحمرُ، تأمَّلته الطفلة التي ذرفت الدموعَ بلا انقطاع، وحرَّرته مرَّة أخرى

من قيوده، وسحبته ليقترب من الفوهة مرَّة أخرى..

باستسلام سار معها فقالت:

- مِن هنا هيكون الشوف.

قالتها وابتعدت؛ ليتوحَّد الرجل مع ما رآه في الفوهة، تركته ووقفت في رُكن الغرفة دامعة، تشفق عليه من جحيمه القادم ...

****

موجات صراخ عاتية أطلقتها "عفاف"، وانقطع الاتصال بعدها، وقف "جمال" مشلولا.. حاول معاودة الاتصال؛ فجاءته رسالة مسجَّلة تفيد بأن الهاتف المطلوب غير متاح حاليا، أشار إلى أول سيارة أجرة؛ لتطير به حيث تقبع زوجته، يدب اليقين في أعماقه بأنها تواجه الآن كارثة محققَّة..

أراد أن يتخطَّى المسافة بأي ثمن ليصل إليها، مرَّت الدقائق ببطء فتَّتَ أعصابه، فأصبح على شفا حفرة من الانهيار، حتى وصلت السيارة، فغادرها جريا ليصعد إلى الشقة، دخل ليجد عفاف ملقاة على الأرض، في كامل وعيها، لكنها لا تنطق، هزَّها برفق؛ فنظرت له باستكانة، كأنها مغيَّبة، رفَع جسدها، وبرفق أجلسها على كرسي صغير، فأشارت بإصبعها إلى شيء ما خلفه، التفت إلى موضع الشيء؛ فرأى صندوقًا ورقيًّا صغيرًا بحجم كف

اليد، أسود اللون، حمله بحرص ليكتشف أن ورقته السوداء، التي تغلف بها من نفس خامة ورقة الخطاب المجهول، الذي تسلَّمه منذ يومين!

حاول سؤالها عن مصدر هذا الصندوق؛ فلم تنطق، بينما طل من عينيها كُتل من الفزع، الذي انتقل إليه، وهو يفتح الصندوق؛ ليُخرج منه ثلاث ورقات صغيرة.

الورقة الأولى مطبوع عليها صورته، لكنه منزوع الأطراف، ملامحه مشوَّهة تماما، والورقة الثانية مطبوعٌ عليها صورة "عفاف"، منزوعة الأطراف أيضا، والورقة الثالثة صفراء متهالكة، كُتب عليها كلمات قرأها ببطء، وعينا "عفاف" تتابعه في صمت.

لدقائق ظَل منتصبا بجانبها، تتكئ بكامل جسدها عليه، حتى لا يميل جسدها وتسقط، ارتخت أعصابه فجأة؛ ليسقط أمامها فاقدا للوعي.

مرت دقائق أو ساعات لا يدريان، عندما استفاق من تلقاء نفسه، ليجدها على نفس موضعها على الكرسي، ذاهلة.. لا تنطق.. وهو على الأرض ملقًى أمامها، بصعوبة زحف، حتى استند بنصفه العلوي إلى الحائط، وهو يجذب الصندوق المجهول.

من تلقاء نفسها، نطقت بكلمات واهنة، كأنها تلفظ معها روحها، وهي تنظر إلى الفراغ:

- الباب خبَّط، بصِّيت من العين السحرية ما شُفتش حد!

التفت إليها فأكملت:

- خُفت أفتح عشان انت مانعني أفتح لحَد، خبَّط تاني، بابُصّ في نفس اللحظة ما لقِتش حَد.

ثبَّت نظراته على شفتيها المرتعشتين، وهي تكمل:

- وبعدها لقيت إيد بترفع البوكس ده قدام العين السحرية، وبعدها اختفت.

صمتت لثوان وأكملت:

- ما فتحتش برضه، دخلت الأوضة وأنا باترعش، لقيت البوكس على السرير قدَّامي، ما اعرفش وصل هنا إزاي!

قالتها وعادت مرة أخرى إلى صمتها، وتسلَّلت الدموع هاربة من عينيها، لم يعلِّق "جمال"، الذي استشعر باقترابه من النهاية، بضع خطوات بينه وبين الجنون، فأي عقل يحتمل هذا!

قاطعت "عفاف" ذهولَه مرَّة أخرى، لتزيده مما في جعبتها:

- اتصلت بيك، وما كُنتِش عارفة أنطق، كنت باصرخ كأن روحي بتطلع، وبعدها لساني اتربط، حاولت أتكلم ما قدِرتِش، كأن حاجة ماسكاني.

قالتها ونظرت إليه:

- جمال أبوس إيدك قول حاجة، اللي بيحصل ده آخرته إيه؟

- اللي إحنا فيه ده له حَلّ واحد.

- إيه هو؟

سألته متلهِّفة لتعرف طريق الخلاص الوحيد من هذه المصائب، التي ضربتهم في العمق، أطرق رأسه للأسفل، وأخبرها بما قالته السيدة العجوز، فسألته بترقُّب:

- تفتكر هيوافقوا؟

قذفتها في وجهه حارَّة حارقة، فتوحَّشت ملامحه، وقال:

- هيوافقو غصب عنهم.. بأي تمَن.

قالها ودفن وجهه بين كفَّيه، كأنه يريد الهروب من كل شيء، يريد الاختفاء، فأي بشر يحتمل ما يحدث له!

تحاملت "عفاف" على ما تبقَّى من قوَّتها، واقتربت منه تساعده على النهوض، حاولت وحاولت وحاولت؛ فتكرر الفشل، ارتخت شبكة جهازه العصبي بأكملها، كأنها اتفقت فيما بينها ضده، استسلم ونكس رأسه، وهو يعيد تمرير بصره على المكتوب في الورقة، التي وجدها داخل الصندوق ..

(البداية رجولتك، ثم أمانك، ثم روحك أنت وزوجتك.. بيدك.....بدأ العد التنازلي.......)

****

أناس يسقطون في فخاخ منصوبة بعناية وخُبث، وآخرون يمكرون، وآخرون لهم من أنهار العسل ما يكفي ويفيض؛

فيأكلون حَدَّ الجزَع.. وهو.. هو لا يدري لماذا سقط في هذا القبر مع هذه الفتاة، التي تدَّعي أنها ابنته، لماذا يحدث كل هذا!

تقدمت "نور"، وارتقت المقعد، لتقف في مواجهته تماما، وهمست في أذنه بجزء من الحقيقة.. بضع كلمات نطقت بها، فرُشقت في قلبه كسيخ حديدي متوهِّج.

الحقيقة وفقط.. الحقيقة تقشِّر الطبقة الخارجية العازلة، التي تغطِّي الجروح، فيتجدَّد الألم، وتنثعب الدماء مرَّة أخرى، فعلَتها فتفجَّرت ينابيع الألم في روحه، جزاء له على سوء صنيعه!

بضع كلمات بعدد أصابع اليد، قرأتها "نور"من كتاب الحقيقة، الذي يضم ألف ألف صفحة، عاثت بعقله وقلبه وروحه.. تركته يتلوَّى من الألم، وهو يُمعِن النظر إلى الفوهة، ليكمل مشاهدة الحقيقة...

****

- لازم نتحرك فورا عشان نفوق من الكابوس ده..

قالها "جمال"، الذي التقط هاتفه باحثا في جهات الاتصال عن أحد الأسماء، وضغط زر الاتصال، منتظرا رَدِّ "أمين"، أخيه الأصغر، الذي يعيش بمفرده في شقته، لم يتزوَّج.. بالأحرى لم يهتم مطلقا بأمر الزواج وتكوين أسرة، لا يعلم عنه الكثير.. أو بمعنى أدق، لا يهتم بمعرفة أي شيئ

يخصه..

اكتملت محاولة الاتصال دون إجابة من الطرف الآخَر، ليعاود محاولة الاتصال مرَّات ومرَّات، حتى جاء الرد:

- نعم يا عسلية!

فرك "جمال" عينيه وهو يعيد النظر إلى شاشة الهاتف، متشكِّكا أنه أخطأ الاتصال، تبعته "عفاف" بنظراتها المتحقِّقة بعدما اخترق أذنيها المرهفتين صوتٌ أنثوي رنَّان يرد على زوجها، استفهمت بإشارة من يدها، فلم يُجِبْها وهو يسأل محدِّثته:

- مش دي نِمرة أمين؟

بميوعة أجابت:

- أيوة يا عيوني، مينو بياخد شاور.

سألها بحِدة:

- إنتِ مين؟

أجابت ساخرة:

- خدَّامتك عزيزة يا حظَّابط.

نطقتها بخلاعة، تبعها ضحكة رقيعة، لا تخرج إلا من عاهرة، لها باع طويل في الكفاح، هَمَّ "جمال" بإنهاء المكالمة، ليلحقه صوت "أمين"، الذي رَدَّ بصوت نصف واعٍ:

- أيوة يا جيمى، معلش كنت في الحمَّام!

انفلتت أعصابه، وهو يصرخ:

- ولا كأنك عايش في الدنيا يا عم أمين.

تمطَّى بتكاسل، ورَدَّ متأفِّفا:

- صباحك فل يا جيمي، يعني خير.. كان فيه حاجَة!

- آه، عايز أقابلك لما تفوق؛ في موضوع مهم، ونروح لخليل عشان باتصل عليه ما بيرُدِّش.

- خليل مين؟

- الله يخرب بيت المخدرات اللي لحست مخك، خليل أخوك يا عم زفت.

- باهزَّر يا عم جيمي، ما تبقاش قفيل.

تنهَّد "جمال"، وجاهد للسيطرة على أعصابه:

- وسيادتك بقى في شقتك ولا فين؟

- لا، أنا عند ناس حبايبي كده.

لعنه "جمال" في سِره، وهو يطلب منه أن ينتهي مما يفعل، ويلتقى به؛ ليذهبا معا إلى "خليل"، لأن هناك أمرًا مهمًّا جدا يستدعي اجتماعهم، هذا الأمر الذي لا يحدث مطلقا، كأنهم أضداد لا يلقتيان، فمنذ زواجه وهو لا يعبأ بأمر "أمين" مطْلقا، هذا الذي ارتاح لطبيعة العلاقة بينه وبين أخوَيه، فلا هو يريدهما ولا ينتظر اهتمامهما. أما عن علاقته بخليل فانقطع وصْلها تماما بعد هذا الحادث، الذي مَرَّ عليه عدد غير قليل من السنين، انطوَت الأيام،

ولم يزُل أثرُ هذا الحادث مطْلقا من نفْس "خليل".

كمَن قطع ألف ميل عدْوًا دون توقُّف؛ كان "جمال" الذي ارتفع صدره وهبط بعنف، لا يدري ما ستأتي به الأيام القادمة، فسألته "عفاف" بفضول الأنثى:

- مين اللي كانت مع أمين دي؟

- تلاقيها واحدة وس** زَيُّه.

- يعني كانت عنده في الشقة؟

- يا عفاف خلّينا في مصيبتنا، ما يتحرق أمين!

قطع "جمال" فضولها بصرامته؛ فصمتت، ليلتقط هاتفه، ويعاود الاتصال بـ"خليل" للمرَّة العاشرة، بلا إجابة، ألقى الهاتف على السرير، وهو يصرخ:

- وخليل بيه عامل لى فيها مهم وما بيرُدِّش، يلعن أبو كده.

قالها، وهَبَّ واقفا كالميت، الذي دبَّت الروح في جسده فجأة، وعاود الاتصال بـ"أمين" ليجيئه الرَّد بعد ثلاث محاولات اتصال بصوت صديقة "أمين":

- عايز إيه تاني ياحظّابط.

صرخ فيها:

- إدِّيني أمين بيه لو سمحتِ يعني!

أعطته الهاتف؛ فرَدَّ "أمين":

- خير يا عم جمال، إيه الدَّوشة دي؟

تمالك أعصابه، وقال بهدوء مفتَعَل:

- تسيب اللي في إيدك ونتقابل دلوقت حالا.

- مش هينفع قلت لك، ورايا مصلحة.

- يبقى بُكرة الضُّهر معادنا، ضروري يا أمين عشان أخوك ما بيرُدِّش عليَّ.

- بيس يا حبي.

أنهيا المكالمة، وصوت العاهرة صديقة "أمين" يتردد في أذنه، تسأله إن كان أخوه يريد أن يقضي ليلة بنكهة المانجو، تجاهل ما سمع، وشدَّد على أخيه، أن يأتي في الميعاد، وهو يزيح ذراع زوجته، التي أسندت على كتفه، لتسمع الحوار الدائر بينهما.

****

أكثر من ثلاثة عشر اتصال تلقَّاهم هاتف «خليل»، الذي شرع في الرد، فجذبته «صابرين» من يده بقوة:

- أكيد عايزك في مصيبة، إياك ترُدا!

- يا بنت الحلال جايز محتاج حاجة، ده ملوش صوت في البيت من كام يوم.

- يتحرق بجاز!

- يا صابرين إزاي بس، طب نشوفه عايز إيه..

رمقته بحِدة، وقالت معاتبة:

- نسيت يا خليل عمل إيه؟ نسيت!

نكس رأسه، وهو ينظر إلى هاتفه، الذي أطبقت عليه بكفها لتضغط على زر رَفْض المكالمة الواردة من "جمال"، ارتخى جسده على الكرسي بجوار رضيعه، الذي نام كالملائكة انتظارا لرحمة الله، تأمَّل اضطراب أنفاسه، ولم يشعر بالدمعة الخبيثة، التي فرَّت من عينه رغما عنه متذكِّرا ما حدَث قبل عشر سنوات.....

السماء في منتصف الليل سوداء كقلب الجحيم، تقذف أمطارا هادرة، ومكعبات من ثلوج لا ترحم، ترتطم بأسقف المباني كقذائف من رصاص، هرب الناس إلى بيوتهم اتقاء شرِّها فنجَى الجميع عدا "خليل"، الذي قضي ليلته الأولى في قسم العمرانية، بعدما سحلت قوات الشرطة جسده دون أن يدري تهمته..

تقوقع بجسده الضئيل في ركن المحبس، الذي شاركه فيه خليط من معتادي الإجرام، اجتاحته موجات من البرد والخوف؛ فبدَّدت قواه، جذبه العسكري لغرفة التحقيق بتهمة سرقة بطاريات سيارة، تم ضبطه يبيعها لأحد التجار، بعدما تلقَّى القسم بلاغًا باختفائها من الورشة القريبة من منزله.

بكي "خليل" وتوسَّل إلى الله (يارب قد مسَّني الضُّرُّ وأنت أرحم الراحمين)، جذبه المُخبِر من ملابسه المهلهلة، وركله ليسقط أرضا أمام الضابط، الذي سأله:

- جايب البطاريات دي منين يا ابن الكلب.

انحسرت الكلمات عن لسانه، الذي انخرس تماما، يحاول استيعاب الكارثة، التي حلَّت على رأسه، اعتاد منذ سنين أن يجلب له أخوه "جمال" بعض البضائع ليبيعها في الأسواق، وكان الاتفاق أن يقتسما الربح بالنصف، مرَّة يحضر له أقفاصًا من الإوز والبط، ومرَّة يحضر أقفاصًا من الفاكهة، وما هي إلا بضع ساعات يفترش بضاعته في السوق، وتنفد تماما ليعود إلى أخيه ويقتسما أرباحهما، سارت الأيام على هذه الوتيرة، يجلب "جمال" البضائع ويبيعها "خليل"، حتى جاء يوم، وصعد "جمال" وعلى كتفة جوال من الخيش، حمله بصعوبة ودخل على "خليل"، الذي سأله عما يحتويه هذا الجوال؛ فأجاب:

- دي بضاعة جديدة، وعايزك تصرَّفها.. واخدها تخليص حق من تاجر.

انتفض جسد "خليل"، وهو يهرول ناحية أخيه، ليحمل عنه الجوال، أنزلاه على الأرض، فقال "جمال":

- شوف لهم بيعة بمعرفتك، وبالنُّص يا حبُي.

لطمة مهينة تبعها سبَّة بذيئة أطلقها الضابط، لتطال شرَف "خليل"، الذي انتفض فجأة:

- أنا أمي مش وسخة يا باشا...

لمعت عينا الضابط، وانهال عليه بسيل من السباب، تهاوت كرامته لكنه تجلَّد، بدا كعامود خرساني يستحيل

كسْره، حتى طلع النهار، ومعه جاء "جمال"، الذي طلب "خليل" استدعاءه، بابتسامة رسمها على وجهه، جلس أمام النيابة، ومن أمامهم "خليل" وقف منكَّس الرأس، مكبَّل اليدين، سأله وكيل النيابة للمرَّة العاشرة عن مصدر حصوله على هذه البطاريات، فأخبره بأن أخاه "جمال" قد أحضرها ليبيعها، دون أن يعلم مصدرها، استقدمت النيابة "جمال"، الذي حضر ووقف لينطق بالرد الحاسم:

- بطاريات إيه يا فندم.. حضرتك أنا معرفش عنها حاجة!

تلاقت أعينهم، كالصقر نظر "جمال" إلى أخيه المكبَّل وغادر بهدوء، ليتم حبس "خليل" ستة أشهر مع النفاذ، مروا كلَيل طويل متَّصل لا فَجْر له، شعَر خلالهم أن نهايته هنا.. في هذا المكان، يستحلب الألم كل ليلة ويتجرَّع الهوان، ما كان يعرف عن أخيه هذه الخسة، ولم يكن يتوقَّع لتنقطع علاقتهما منذ ذلك اليوم.....

صراخ مسلوخ أطلقه رضيعه، فانتشله من بِركة دموعه، ليلقي به في فم الألم، هدهده، وقال بحنو:

- هانت يا بطل، هتعمل العملية وتبقى زين.

كلمات خرجت من جوف الأب، فعلت بالطفل مفعولَ السِّحر، كأن الملائكة قد قاموا بترجمة الكلمات إلى لغة فهمها الطفل؛ فهدأ تماما، هدأ كأنه لم يكن يتألم قط، وعلَت وجهه ابتسامة عذْبة، اهتزَّ على إثرها قلب الأب، الذي التقطه من حضن الأم، ليطبع قُبلة على رأسه،

ويضعه في منامته ليستريح.

تركَتْه ودخلت المطبخ؛ لتُعِدَّ الطعام، فجلس هو بجوار طفله يُدَلِّلُه، يشبع عينيه من ملامحه البريئة، يتلذذ بقطرة المطر الوحيدة، التي أرسلها الله بعد جدْب؛ لتحيي صحراءهم، جاءه صوتها من المطبخ صارخة كعادتها:

- ياخليييييييييل، قلت لك مليون مرَّة تشوف حد يصلح باب المطبخ اللي ورا عشان القطط اللي كل شوية تدخل دي.

- يا ولية عليَّ الطلاق بانسَى.

- طب قوم إعمله إنت يا راجل، ولا مستنِّي لما يدخل فار يعُضني.

صمت لثوانٍ، ورَدَّ بخفوت:

- يبقى عمل خير والله.

أرهفت السمع لتلتقط كلماته الساخرة، فعلَّقت:

- والله أنا غلطانة إني باقولك صلَّحه، سيبُه يا خليل.

قالتها، وانتقلت إلى مرحلة أخرى من التقريع واللوم، الذي سكبته على رأس "خليل"، الذي اعتاد هذه الموشحات منها؛ فصمَّ أذنيه، كأنها تحدِّث الحوائط وضحك ضحكة صافية، بترَها عندما خرجت فجأة:

- هو أنا باكلِّم نفسي يا خليل؟

- يا ولية والله ...

قطع حوارهما نداء أحدهم على "خليل"؛ فهرول إلى النافذة؛ ليرى من هذا الذي ينادي اسمه بإلحاح، كأنه حفظه للتوِّ، ويخاف أن ينساه، وقف أمام النافذة، ومن خلفه "صابرين"، التي التصقت في ظَهره، ليجده أحد الصبية العاملين معه في المصنع، الذي رآه يطِل من النافذة فعاجله بالخَبر:

- الحاج حسيب بيقولك هو خلاص حجز للواد في مشَّشفى اسكندرية.

اهتز قلب "خليل"، وسأله بلهفة:

- مستشفى اسكندرية إيه ياض؟

من بين لهاثه أجاب الصبي:

- مشَّشفى إسكندرية بتاعة العيال الصغيرة، عشان ابنك يا عم خليل، وبيقولَّك عدِّي عليه بُكرة عشان يدِّيك فلوس، ويعرَّفك معاد الحجز.. ما تنساش يا عم خليل.

قالها فحيَّاه "خليل"، الذي التفت ليرى "صابرين" تبكي كعادتها، فلكزها:

- يا ولية بتعيَّطي ليه؟ مش قلت لك ربنا كريم؟

- الواد هيعمل العملية وهيخف يا خليل.. صح؟

- قولي يارب، والله ما بينسى حد يا بِت.

- ونِعم بالله يا اخويا، بس إيه يا بِت دي، بَتَّة تِبتَّك.

قالتها ليغازها "خليل" بإيماءة من عينيه؛ فضحكت من

بين دموعها، ربت على رأسها، وضمَّها إلى صدره، لتقاطعه:

- برضه توِّهتني يا خليل.

سألها مستفسرا، فقالت:

- تنزل دلوقت تجيب حد يصلَّح باب المطبخ.

داعب أنفه وقال ساخرا:

- أنا قاصد اسيبه؛ جايز يدخل قط ولا فار يهبش مصارينك.

قلبت شفتَيها، فاقترب منها، واختطف قُبلة، تبعها بقُبلات عشوائية توزَّعت على وجهها بلا تمييز، فرَّت من بين يديه، فلحقها إلى المطبخ، يحتضنها من الخَلف، وهي تكمل إعداد طعام الغداء، همس في أذنها بكلمات حنونة؛ فالتفتَتْ إليه لتصبح في مواجهته، لا يفصل جسديهما سوى بضع سنتيمترات، التقم شفتها السفلى بشفتيه، فتراجعت وهي تشير إلى الركن القصي في المطبخ بالملعقة، التي أمسكتها، وقالت بصوت لاهث:

- شايف الباب مكسور إزاي؟

- يا ولية باب إيه؟ أنا عطشان.

ضمَّت كتفَيها؛ فبرز نهداها أمامه، ليدفن رأسه بينهما وهو يشهق، افتعلت المقاومة؛ لتتلذذ بقوته وهو يسيطر عليها بذراعيه، لينجح في إخضاعها أخيرا، ذابت بين يديه، وقالت بغنَج:

- خليل مش وقته، الأكل هيتحرق.

- يتحرق، ما انا باكل أهُه.

- يا راجل عايزة أجهِّز الشُّنَط عشان السفر.

- تتحرق الشنط.

قالها وجذبها؛ ليصبحا جسدًا متوحِّدا لا يفصلهما شيءٌ، ومن خلفهما ارتفع البخار من طرف الإناء، ليعلن عن حالة مكتملة من الغليان، ذابا معا، ليصلا إلى أعلى حالات النشوى، كأن الأمل الذي دبَّ في قلبيهما اصطحب معه كل لذة غابت عنهما.

انتهيا من تذوُّق الحلوى؛ فعَلَى وجهَيهما ابتسامةُ رضا، ونهضت "صابرين"، لتتفقَّد مصير الطعام، الذي احترق بالفعل، لتسمع صوت ضحكات من خلفها:

- هانزل أشتري عشا من برَّة، وننام من غير نكد ورحمة أبوكِ.

تبسَّمت وهي تشير إليه أن ينصرف، قبل أن تقذفه بالأواني، ليتشوَّه وجهه بعدما تسبب في حرق الطعام، ضحك وانصرف فجأة، عندما فهم مرادها، وغاب نصف ساعة، ليعود وفي يده أطايب الطعام، تناولا عشاءهما، وكلٌّ منهما يرسم على وجهه الاطمئنان كذبا، انتهيا من الطعام، ودلفا إلى حجرة نومهما...

حجرة طولها أربعة أمتار، وعرضها مثلهم، تضم سريرًا، وخزانة ملابس، وطفلًا يستبد به الألم، ينام الأب موليا ظَهره للأم، التي استوت على فِراش من جمر، تتقلَّب

فتذوب خلاياها، وتتطاير منها أدخنة القلق والترقُّب، بجوارها ينام الأب على جانبه الأيسر، ميمِّما وجهَه شطْر الحائط، الذي شرَع يتسلَّى بإلقاء خطاطيف الانتظار، واحدًا تلو الآخَر، ينهش الأول قطعة من روحه، والثاني قطعة من صبره، والثالث يمزِّقه تماما، فيتقلَّب هاربا من أطرافهم المسنونة.

كمَن يبيتون ليلتهم في فوهة بركان كانا، فهذه الليلة الفاصلة، يحمل نهارها معه الخبر اليقين، خسيسة كانت، تتسلَّى دقائقها بهما، تتوقف تارة وتتراجع تارة أخرى، لماذا تتواطأ ضدهم، لماذا لا تمُر، النوم عصِي، كأنه المستحيل.. ولو حدَث؛ فالكوابيس لن تجد أفضل من هذه الفرصة؛ لتعلن احتلالها أرضَ عقلهما الباطن، كوابيس لم تنتظر النوم لتتجسَّد، بفجاجة حلَّت أمام أعينهما في الصحو، وقع الأب وحده فريستها، بينما سقطت الأم في براثن غفوة قصيرة، يعلم الله وحده ما يخفي خلفها، عشرات من عصي غير مرئية تمارس سادية محببة على جسده المكدود، تقوقع كالجنين اتقاء لضرباتها المجنونة فتضاعف توحُّشها، طالت رأسه فشجَّتها، سالت منها دماء شعَرَ بها تسيل ساخنة، مد يده يتحسس أثرها فلم يجد شيئًا، يتقلَّب بحذر خشية أن يُقلق زوجته، التي تواجه الآن ما يجهل، وإن كان على يقين أنها ليست بخير.. مثله أو يزيد.

مرَّت الليلة على هذا المنوال، حتى ارتقت الشمس موضعها

بتكاسُل، ورشقت سهامها من موضعها بقسوة، نهض بعد هذه الليلة العصيبة مذعورا، لا يدري.. هل كل ما حدث الليلة الماضية من لحم الحقيقة؟ أم مجرد أحلام دخانية تلاعبت به؟ اغتسل سريعا وبدَّل ملابسه ليتوجَّه إلى المصنع، فهذا اليوم الفارق سيحدِّد مصير رضيعه العليل، تفقَّده فقرأ علامات الألم على ملامحه الصغيرة، طبع قُبلة حانية على جبينه، ومثلها على جبين "صابرين"، ليقاطعه صوت جرس الباب، الذي رَنَّ بغير انقطاع، رنين مؤذٍ يشي بحدوث كارثة، بأن من يقف خلف الباب ينازِع، كأنه يقف أمام الموت ويستنجد به لينقذه، هرول ناحية باب الشقة، وفي صدره هاجت الظنون...

****

قُبيل الظهيرة بنصف ساعة، وقف «جمال» أمام باب شقة «خليل»، بصحبة شقيقهما الأصغر «أمين»، الذي وقف متململا.. لا يستوعب ما يحدث، سبعة عشر اتصال استقبلهم هاتف «أمين» الليلة الفائتة ليؤكِّد عليه «جمال» ضرورة الحضور لأمر مهم، يدرك جيدا أنه لو نجح في القبض على الماء بكفِّه، فلن ينجح في اقتناص ميعاد من «أمين»، سأله عن مكانه تحديدا، وذهب إليه في العاشرة صباحا ليلتقي به، ولازال أثر الخمر باديا عليه، كان يبيت ليلته في منزل إحدى صديقاته، الأمر الذي لم يهتم

له «جمال» كثيرا، سأله عن الأمر الهام، الذي يريده لأجله؛ فأخبره أنه سيعرف كل شيء عندما يجتمعا ب»خليل»، أخيهما الأوسط..

مرَّت دقيقة، وفتح «خليل» باب الشقة، تسابقت نظرات كل منهما للآخر، تنحنح «جمال»، وكسر حاجز الصمت بكلمات متذبذبة:

- هتفضل موقَّفنا برَّة يا خليل؟

تراجع «خليل» خطوتين؛ ليفسح لهما طريق الدخول، ولازالت عُقدة لسانه على عهدها، دخلا، فأغلق الباب، ودعاهما للجلوس في غرفة الاستقبال، فافتعل «جمال» مداعبته:

- يا عم هو إحنا ضيوف، خلِّينا برَّة في الصالة.

قالها وجذب «أمين» من ذراعه، ليجلسا على المقعد العريض المواجه للباب، وأمامهما «خليل»، الذي وقف وفي داخله تساؤلات لا تنتهي عن سبب زيارتهما، نظر «جمال» حوله ليرى ثلاث حقائب كبيرة متراصة بجانب الأريكة؛ فسأله:

- هو إنتو مسافرين ولا إيه؟

أومأ «خليل» وقال:

- أه.. رايح المستشفى بابني في اسكندرية، هيعمل عملية.

رد «جمال» بأسى مفتعل:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، ربنا يشفيهولك يا اخويا.

قالها فلم يرُد «خليل»، ولمح تململا من جانب «أمين»، الذي نظر إليه يستحثه على الدخول في الموضوع المهم، الذي طلب رؤيتهما ليخبرهما به، هز «جمال» رأسه، وماطل في الحديث عندما قال معاتبا:

- بقى أتصل بيك على تليفونك ما ترُدش يا خليل، والله زعَّلتني!

تلعثم «خليل» في الرد ليتدخَّل «أمين» بحِدة:

- ما تدخل في الموضوع يا عم جمال، انجِز!

ضحك «جمال»، الذي وزَّع نظراته بينهما قائلا:

- هو عتاب الاخوة بيزعل يا رجالة؟ ماشي.. نعدِّيها.

قالها وعاد الصمت يفرض سطوته على ألسنتهم، تبادلوا النظرات، التي تحمل بين طيَّاتها مليون استفهام، اتجهوا بالكامل إلى «جمال»، الذي تنحنح، وقال كمَن يتحسَّس الكلمات وينتقيها:

- دلوقت يا جماعة سوق العقارات في انتعاش كبير، والمكسب فيه بالعبيط.

نظرا ناحيته بعدم فهْم، فأردف بحماس:

- يعني مثلا البيت اللي إحنا فيه ده، لُقطة، في مكان حلو، لو اتباع مثلا هيجيب قرشين حلوين.

لمعت عينا «أمين» لذِكر الأموال، التي يعشقها حد

العبادة، بينما ثبَّت «خليل» نظراته على «جمال» بعدم فهْم؛ فأردف:

- فيه واحد صاحبي شاف البيت، وعرَض عليَّ يشتريه بمبلغ حلو قوي، لو تمِّت البيعة دي حياتنا هتتغيَّر مية وتمانين درجة.

توحَّدت نظراتهم على الفراغ، حتى انتهى «جمال» من سكب الكلمات، التي بات ليلته يرتِّبها في تلافيف مخه، ليتقيَّئها في هذا اللقاء، انتهى منها هذه اللحظة، فتملَّكته رجفة سَرَت في كل أنحاء جسده، حاول السيطرة عليها، فباغتته بقوة، لينتزعه من براثنها صوتُ «أمين»:

- طب وبالصلاة على النبي كده البيت يجيب كام؟

غاب صوت «جمال»، الذي شرَد بعيدا، ليصفِّق له «أمين» بكلتا يدَيه ساخرا:

- ده الموضوع شكله كبير قوي...

تدخَّل «خليل» معترضا:

- ونبيع البيت ليه يا اخوانا، ده المتوى الوحيد لينا.

التقط «جمال» الكلمات ورد:

- نبيعه عشان كل واحد ياخُد له قرشين يفُك زنقته يا عم خليل، إنت تاخد قرشين تعالج ابنك، وتشوف لك شقة تمليك بالباقي، وكل واحد يشوف حاله!

تململ «أمين» في جلسته وقال:

- يعني يا جدعان إيه خُلاصة الكلام.. أنا ورايا مصالح!

قال «جمال» بحسم:

- خلاصة القول إننا هنبيع وكل واحد يشوف حاله.

قالها، وهَبَّ واقفا عندما خرجت «صابرين»، التي ارتدت إسدالًا فضفاضًا على عَجَل، وتدخَّلت صارخة:

- بيت إيه اللي عايز تبيعه يا سي جمال؟ إنتو عايزين إيه مننا!

ثارت ثورتها، وغلَّظت صوتها، الذي ودَّت لو تحوَّل إلى قنابل تحيلهم إلى أشلاء، تدخَّل «خليل» ليهدِّئ من ثورتها، فلم يُفلح، ليعلِّق «أمين» ساخرا:

- هو الكلام مع الرجالة ولا مع لا مؤاخذة الحريم!

قالها بينما نظراته تتفحَّص جسدها المستتر تحت الرداء الفضفاض، علَّه ينجح في اقتناص نظرة إلى مفاتنها، تلاقت عيناه بعينيها، لتتذكَّر ما لم تنسَه من الأساس، أعادت ذاكرتها عليها مشهد محاولة «أمين» التحرُّش بها، عندما صعدت في إحدى الأيام ليلا، لتضبط إشارة جهاز استقبال التلفاز، تذكَّرت تفاصيل الحادث، عندما رأته يقف أمام سور الطابق الأخير يدخِّن، ألقى سيجارته واقترب منها، جرَت فتبِعها ضاحكا؛ لتغوص يداه في كنوزها، صفعته بقوتها، فدفعها لتسقط أرضا، تعالت ضحكاته، وجثا بجثته المخمورة فوق جسدها الطاهر، بلطمات ضعيفة دافعت عن نفسها، حتى هداها عقلها

إلى أن تضربه بقدمِها في ما بين فخذيه، تلقَّى الضربة الحاسمة فتقلب بكامل جسده أرضا، يعوي ألما ككلب مبتور العضو، لملمت «صابرين» نفسها بسرعة، وهرولت إلى شقتها صامتة، تكتم دمعاتها، لم تنطق بما حدث لـ«خليل»، حتى لا يحدث شقاق بين الإخوة، واحتفظت بما حدث في باطنها، لا تنساه ولا تنطق به!

بتقزُّز نظرت إليه، وتجاهلت ما قال، ليتدخل «خليل» غاضبا:

- ما تعقِل الكلمة قبل ما تنطقها يا أمين.

بحِدة تدخّل «جمال»:

- يا جماعة عايزين نِهْدَا عشان نتِّفِق.. أنا خلاص قرَّرت نبيع البيت.

قالت «صابرين» بتحَدٍّ:

- مفيش حاجة هتتباع يا سي جمال، عايز تبيع يا اخويا روح بيع شقتك، أنا مش هافرَّط في مِلك جوزي وابني!

احتدَّ «جمال» عليها، الذي فقد تمالُكه لأعصابه، وصرخ في وجهها:

- أنا باكلِّم أخويا، إنتِ إيه دخلك في الكلام؟

حاول «خليل» التدخُّل، فمنعته «صابرين» بحسْم، وصرخت حتى استيقظ رضيعها، الذي بكى كأنه يشعر بكل ما يجري، حاول «أمين» تهدئتها، واقترب ليربت على كتفها، فدفعته بقوة، ارتطم بجسد «جمال»، وكاد أن يسقط فوقه من أثر الخمر، الذي تلاعب به، لتصرخ في وجوههم

جميعا، وهي تحتضن زوجها:

- عايزين تسرقونا يا ولاد راضي، عمرنا ما شوفنا خير من وراكم.

تحوَّل الحوار إلى عراك كلامي، تراشقوا فيه أغلظ الألفاظ، لينهي «أمين» هذا السجال بهدوء:

- يا جماعة، أنا مش جاي أتخانق، اللي تشوفوه أنا موافق عليه.. سلام.

قالها ونهض ليغادر في هدوء، فمنعه ذراع «جمال»، الذي امتد أمامه يمنعه من الحركة، وقال:

- مفيش حد هيمشي إلا لما نتفق، ولو البيت ما اتباعش بالتراضي هيتباع عافية.

حاول «أمين» تهدئة الأجواء، فقال ساخرا:

- والله إنت بتتكلم في الصح، إحنا نبيع وآخد نصيبي اظبَّط بيه دماغي، وأشوف لي أي شقة في أي مساكن.

رمقته «صابرين» باحتقار، وقالت بحِدة:

- كل واحد حُر، وأنا مش هابيع نصيب جوزي وابني.

بيأس دفن «جمال» جسده في المقعد، يتخبَّط بين الصمت والنطق، يودُّ لو ينفجر في هذه اللحظة؛ فيتحوَّل جسده إلى شظايا حارقة، تخترق وجوه وأجساد كل من يريد إيذاءه.

توقف الحديث الدائر بينهم، ليتردد صدى أنفاسهم

المغلَّفة بالغضب والخوف واليأس، كل بما تحمله نفسه، حاول «جمال» قطع خيط الصمت ليبوح بالسر، الذي يحمله وحده، لكن تهديد السيدة الغريبة أثقل لسانه بما يكفي، ظن أنه أصيب بالخرس، حاول النطق، فخرجت الكلمات مهتزَّة مرتجفة، قاوم خوفه ونطق:

- يا جماعة البيت ده فيه لعنة!

استدارت الرؤوس إليه، رمقته نظرات عدم الفهم، ورن في أذنه صوت العجوز (ولو نطقت ما هيصدِّقوش، إياك حرف من اللي قلتهولك يخرج من جوفك لحد منهم).

دمعت عيناه وأردف:

- أنا عايش في جحيم، ومحدِّش منكم حاسس بحاجة.

توترت الملامح، وبدأت الهمهمات تسري بينهم، قطعها وأكمل حديثه:

- عارف إنكم مش هتصدَّقوا، هي قالت لي إنكم مش هتصدقوا، وحذرتني إني أحكي لكم، بس أنا تعبت، ما بقتش متحمِّل.

سالت دمعات من عيني «جمال»، ودفن وجهه بين كفيه، على شفا حفرة من الانهيار أصبح، تحول بكاؤه إلى عويل.. نواح.. رقَّ قلب «خليل» له، فنهض وربت على كتفه، يحاول تهدئته وسأله:

- استهدَى بالله يا جمال، وفهِّمنا بالراحة.

قالها «خليل»؛ فتوجَّهت الأنظار إلى «جمال»، الذي حاول

التقاط خيط الكلمات ففشل، وقفت «صابرين» متحفِّزة لما سينطق به، بينما جلس «أمين» يفرك أصابعه بلا مبالاة، كأنه ينتظر بفارغ الصبر انتهاء هذا اللقاء، الذي لا يروقه؛ ليذهب إلى ما يحب، كأس الخمر وحضن إحدى عشيقاته!

بنظرة حاسمة من «صابرين»؛ عاد «خليل» إلى مكانه، كأنها تلومه على تأثُّره بالهراء، الذي يقوله أخوه الخَرِف، فأي عقل يصدق هذا!.. تململ «أمين» في جلسته، وداعب سلسلته الفضية المدلاة من رقبته، وتحدث ساخرا:

- لعنة إيه يا عم جمال، إنت قديم قوي.

ذبحت سخريته عنق «جمال»، الذي ثار في وجوههم:

- أنا في كارثة حلَّها الوحيد بيع البيت، والبيت هيتباع برِضاكم أو غصب عنكم.

نهضت «صابرين» بتحفُّز صارخة:

- إنت جاي تعمل علينا فيلم، وعايزنا نضيَّع البيت، إنت مخبي وَرَاك أنهي شر يا سي جمال!

تجاهل «جمال» ما قالت، والتفت إلى «خليل»، الذي غاب صوته؛ يستحثه على الحديث، وكأن ظَهره قد زاد انحناء، فقد اتجهت نظراته إلى الأرض مباشرة، لا يدري ماذا يقول، جذبه «جمال» من ذراعه بقوة:

- البيت هيتباع يا خليل بمزاجك أو غصب عنك، خليك فاكر ده

تدخَّلت «صابرين» صارخة:

- إنت جاي تهددنا في شقتنا يا حرامي يا بِجِح، إطلع برة إنت والشمام أخوك.

حاول «خليل» مقاطعتها؛ فصرخت في وجهه هو الآخَر:

- إنت عايز تسمع التخريف ده يا سى خليل؟ إخواتك حرامية وطماعين وعايزين يسرقوك، وطول ما انا على وش الأرض ده مش هيحصل.

توهجت حرارة المكان بفعل الجمرات التي تدافع انطلاقها من الألسنة، وتحولت العيون إلى آبار عميقة، تحوي في باطنها سهام لاهبة، لا تخطئ إصابة الهدف أبدا.

تقافزت شياطين الأرض أمام «جمال»، وكاد يجذبها من ردائها ليسحل جسدها من خلفه، وخرجت الكلمات من فمه ككرات اللهب، وهو يتوعَّدهما بأشد انتقام، دفعته «صابرين» بكلتا يديها خارج الشقة، ومن خلفه «أمين»، الذي غادر في هدوء.

****

كأن هذه الطفلة تقرأ أفكاره، تتجوَّل في عقله بقدميها الحافيتين، يشعر بها، كأن دبيبهما يتَّحِد مع دقات قلبه، ليرُجَّ جسده، فأيقن أنه لازال على قيد الحياة!

- زرعت شر؛ فحصدته.

نطقت بها "نور"، فطأطأ رأسه وهو يدرك جيدا ذنبه،

الذنب العظيم الذي ارتكبه، حتى كلمة ذنب قاصرة.. فهو لم يترك ذنبًا ولم يفعله، تفكَّر في آتون الذنوب، الذي أشعله بحماقته، وارتضى بالعقاب، الذي حل عليه، فأشارت "نور" إليه أن ينظر إلى الحائط المقابل.

ثبَّت نظراته عليه انتظارا لحدَث عظيم وَشَت به نظراتها و...

****

الفصل الثامن

أغلقت "صابرين" باب الشقة بقوة خلف "جمال"، الذي انفلت لسانه، تطاير السباب من فمه كالذباب السام، ليصل إلى "خليل" وزوجته، واختتمها بسيل من التهديد الصريح لهما، إن لم ينفِّذا ما أمر به!

وقفوا.. يفصلهما باب الشقة المغلق، كفريقين متناحرين، تباريا في تراشق كرة السباب والصراخ فيما بينهم، ارتفع صراخ "صابرين" ردا على تهديدات "جمال" الفجة، ومن خلفها "خليل"، يحاول إسكاتها بلا جدوى، كرأس متورِّمة تفجَّرت، فطفح القيح منها، كانت "صابرين"، التي قذفت مرارة جوفها عليهم، وقفت صلبة كعود حطب شديد، تمثل حائط صدٍّ لحماية زوجها المسالِم وطفلها الذي لا حول له ولا قوة.

- ما بلاش يا عم جمال الوش ده..

قالها "أمين" الذي حاول جذبه من ذراعه بالقوة؛ ليغادرا المنزل، حتى لا تزداد حِدة ثورته، بهدوئه المعتاد وقف يحاول إخماد الحريق المستعِر بصدر أخيه، فجاء الرد غير متوقَّع عندما صرخ "جمال" في وجهه:

- هاقولك إيه.. ما إنت فاضي وحشاش ومش حاسس بحاجة.

بنفسية مطاطية استقبل "أمين" رصاصات أخيه العشوائية، وقال بهدوء مستفِّز:

- يا عم لا تغلط فيا ولا أغلط فيك.. أنا كده كده طالع شرم أسبوع.. ولما ارجع تكونوا حلِّيتوا مشاكلكم سوا.. أنا مش عايز اوجع دماغي عشان كلام فارغ...

ببرود قالها وغادر دون أن ينطق بحرف إضافي، تاركا "جمال" يسقط في آتون ثورته وحده، طرق باب شقة خليل بعنف، يريد الدخول مرة أخرى؛ ليفتك به، ويقطع جسد زوجته إرَبا، يشعر بأنه يقترب من ارتكاب جريمة..

لم يفتحا له هذه المرة؛ فواصل سبابه وتهديده الصريح، حتى أدرك عدم جدوى ما يفعل، فهبط ليبتعد صوت سبابه تدريجيا، وإن لم ينقطع تماما حتى غادر.

بطيبته المعهودة عاتبها "خليل":

- يا صابرين والله ما كان له لازمة اللي حصل ده.

نهرته صارخة:

- بلا صابرين بلا زفت، إنت نسيت.. نسيت لما اتسجنت بسببه، ده ما بيجيش من وراه الخير أبدا، نسيت يا خليل الفلوس اللي كان بيسحبها منك، وسرقته ليك، ولا أخوك التاني الحشاش اللي مش عارفة هو عايز إيه بالظبط!

نكس رأسه كتلميذ أخفق في إجابة سؤال أمام معلمه؛ فأردفت:

- بيع البيت ده مش هيحصل، عشان لو حصل هيسرقوك، ويرموك في الشارع، واحنا معاك، إياك حد يضحك عليك يا خليل.. فاهم!

دمع "خليل"، فاقتربت منه، ومسحت دمعاته بحنو، احتضنته كأم تحتوي طفلها، بكى.. طغى بكاؤه على كل شيء، تناست كل الهموم، وصبَّت حنانها على أوجاعه لتبدِّدها، وضعت رأسه بين راحتيها وقالت:

- لازم نفوق يا خليل عشان محدِّش يسرقنا.. احنا ملناش غير ربنا.

هدأ بعض الشيء وقال بصوت متهدِّج:

- ونِعم بالله.

ربتت على كتفه وقالت:

- يللا يا حبيبي، روح إلحق ميعاد المصنع، وشوف الحاج حسيب هيسفَّرنا إمتى.

أومأ باستسلام، وبدَّل ملابسه على عَجَل، اقترب من رضيعه يطبع قُبلة حانية على كفِّه الصغيرة هامسا في أذنه:

- هتعمل العملية وتبقى زين يا واد.. شد الحيل.

منذ لحظة انزلاقه من رحم أمه لم يتذوَّق غير الألم، في هذه اللحظة فقط تبسَّمت ملامحه، أو هكذا خُيِّل لـ"خليل"، الذي استبشر خيرا، كأن وليده يخبره برسالة غير

منطوقة: أنه سيصبح بخير حال...

* *

كفهد اتخذ وضع الاستعداد؛ لينقض على فريسته، التي سهر الليل يُعِدُّ لها الفخاخ، وقف "كوبرا" متأهِّبا، يقبض على هاتفه بقوة، وبداخله اعتمل القلق، ثلاث لفافات قصيرة من الحشيش تشبعت رئتاه بدخانها.. فقط ليصل إلى أقصى تركيز، لا مجال للخطأ في ما هو قادم عليه، خطوات معدودة تفصله عن تحقيق ما يصبو إليه، بحث عن رقم ما، وضغط على زر الاتصال؛ ليأتي الرد فورا، كأن محدِّثه ينتظر هذه المكالمة:

- أيوه يا كوبرا..

- تسمعي اللي هاقوله كويس، وتنفِّذ بالحرف.

آمرا قال "كوبرا" هذه الكلمات، استشعر عدم قبول محدثته "الوردة" لحديثه، فانفجر صارخا:

- اللي أقوله يتسمع يا بنت الوس** بدل ما أدفنك مكانك.

لجمها صراخه، فانتبهت جميع حواسها لكل حرف نطق به، أومأت بآلية مذعورةن كمن تشعر بأنه يراقب أنفاسها، تدرك عواقب رفض أمر لـ"كوبرا"، الذي لا يعرف الرحمة، سكب في أذنها ما يريد بدِقة، وأنهى المكالمة بضغطة زر حاسمة، ليبدأ مكالمة جديدة، لا تقل أهمية عن سابقتها،

انتظر ردَّ محدِّثه، الذي رَدَّ بعد المحاولة الثالثة للاتصال:

- باشا..

بلهجة حاول ترقيقها قدْر المستطاع:

- يا عم فين اللي طلبته منك، هاجيلك وتكون جاهز بعد ساعة، ما ينفعش تتأخَّر..

أنهى المكالمة وعلى شفتيه ابتسامة متحفِّزة، فتح خزانة ملابسه، وأخرج صندوقًا متوسط الحجم، رفع الغطاء، وتفحَّص محتوياته بعناية محدِّثا نفسه بخفوت:

- هانت يا كوبرا...

****

كالهائم على وجهه سار "جمال" لاعنا كل الموجودات، يقذف كل حجر يقابله في طريقه، كمَن يريد الفَتْكَ بهذا العالم، مترنِّحا كان، كالمخمور.. تبدَّلت في عينيه كل الأشياء، اختفى نور السماء، وحلَّ الظلام.. فقط في عينيه، لا يدري ماذا يجدر به أن يفعل!

عاد إلى حيث يسكن مؤقتا مع "عفاف"، يتساقط الغضب من ثنايا جسده كالعَرَق، بحث في مفتاح الشقة بعصبية، وفتح باب الشقة ليعتلي ملامحه الفزَع....

دخل ليجد "عفاف" ملقاة في منتصف الصالة، تتأرجح بين الوعي والإغماء، تلطَّخ وجهها، وأنحاء متفرِّقة في جسدها

بالدماء، تمزَّق لباسها المنزلي الخفيف، كأنها كانت تصارع ثورًا هائجًا، دنا ليرفع جسدها؛ فارتجفت كمَن رأت شيطانًا برز من باطن الأرض أمامها، حاول تهدئتها ليفهم حقيقة ما حدث، وصدره يعلو ويهبط كمَن قطع ألف ميلا في الصحراء عدْوًا، لاحظ انخفاض درجة حرارة جسدها، وقطرات العرق البارد تسيل على جبينها، تئن بلا انقطاع كمَن تنازِع الموت، تفحَّص جسدها فلم يجد أثرًا لجرح واحد، كأن هذه الدماء قد انسكبت عليها.

أدرك أنها رأت ما لم يتحمله بشر، فحاول جاهدا أن يفهم ما حدث، خرجت أنفاسها غير منتظمة، حاول استنطاقها فصدمته بخرَس لسانها، حملها إلى السرير؛ فتقوقع جسدها، أمامها وقف يحاول استشفاف أي شيء يساعده على الفهم..

- طب حصل ايه.. قولي أي حاجة.

كمَن يرى الشقة لأول مرة، تلفَّت حوله منتبها لما حدث، كل محتويات الشقة مبعثرة بعشوائية فجَّة، تحوَّلت ألواح الزجاج إلى فتات، وانفجرت شاشة التلفاز الضخمة، تضاعف الذعر داخله وجثا أمام وجهها في محاولات يائسة للفهم.

- للللللللل ببببببببببببب تتتتتتتتتتتتتتتت للللل

تشنجت الحروف على لسانها، وهي تحاول النطق، أطرافها المتصلبة تشي بتعرُّضها لحفلة مكثفة من التعذيب، استحثها للنطق، ولو بكلمة واحدة علَّه يفهم، يعرف.. وقف أمامها

كتمثال فاقد للروح، فتضاعفت تشنُّجات أطرافها، لاحظ ذلك فحاول اختبار صِحة إحساسه، كلما اقترب منها يرتجف جسدها بعنف كمَن مسَّها تيار كهربي.

- إنت...

بآلية نطقت، اقترب منها، فلاذت بصمتها مرة أخرى، دقائق من الصمت المميت، كادت تسلب ما تبقَّى من عقله، تراجع ببطء، ووقف خلفها، فأردفت:

- إنت.. أسود.. أسود.. أسود..

قالتها بهستريا، وهي تسحب جسدها بعيدا عنه، حاول استيعاب ما نطقت به؛ فاستعصى عليه هذا، حاول استنطاقها؛ فلاذت بصراخها، الذي لم ينقطع، كأنها ترى ملاك الموت يحلِّق فوق رأسها، ابتعد عنها عندما تصلَّب جسدها، وهي تشير إليه أن يبتعد أكثر.

نفَّذ ما أمرَت، سألها بيأس:

- أسود إيه يا عفاف.. أبوس رِجلك فهِّميني.

كطفل لازال يتلعثم عند نطق الحروف، حاولت تجميع الكلمات، وقالت وهي تخفي وجهها بكفيها:

- إنت.. أسود.. هتقتلني.. هتقتلني.. ابعد... ابعِدْ....

موجة باردة اجتاحت جسده بالكامل، تلفَّت حوله وسألها:

- مين اللي كسر الشقة وعمل فيكِ كده.. احكيلي بالراحة يا...

قطعت كلماته بصراخها، كمَن سقطت في أعماق كابوس مُقبِض يحاول انتزاع روحها، تعلَّم الدرس؛ فلم يقترب منها،

حتى لا تزداد حِدة تشنجات جسدها، تراجع إلى الحائط يتأمَّلها، وهي تتهاوى أمامه في هوَّة سحيقة، يقبع في عمقها وَحش مجهول.

انبعثت خيوط الألم السائل بداخل رأسه، لتفترشها بلا رحمة، أمسكها بكلتا يديه علَّه يستطيع السيطرة عليه، أغلق عينيه محاولا السيطرة على نفسه، حتى لا يفقد قواه وعقله معا في هذه اللحظة، التي اكتملت عندما سمع صوت طرقات عنيفة على باب الشقة المغلَق، طرقات عنيفة كأن الطارق يريد اقتلاعه من الدنيا.

نهض مسرعا ناحية الباب المغلق، يسبقه خوفه، ودقات قلبه المتدافعة، رآه من فتحة صغيرة مخصَّصة لرؤية من يقف أمام الباب، أطال النظر لهذا الشيء الواقف أمام الباب، جيوش من نمل متوحِّش تنهش جسده، وحوش ضارية تتناحر في رأسه.

ثوان قليلة انقضت ليتسوعب عقله حقيقة ما رأى، التقطت العين الصورة، وترجمتها إلى إشارة أرسلتها إلى العقل، ترجمها العقل إلى معلومة حاول استيعابها، فتحولت إلى مصيبة تجسَّدت أمامه، وقف "جمال" خلف الباب يحاول استيعاب أنه يرى نفسه في نفس اللحظة واقفا في الناحية المقابلة للباب، يطرقه بعنف.. نعم، هو.. لكنه أسود الوجه، هو.. يقف أمامه محترق الوجه أسوده.

انهزم جهازه العصبي تماما أمام ما رأى وغاب العقل..

بعشوائية قرَّر في هذه اللحظة مواجهة الجحيم، عندما فتح الباب بحركة مباغتة و...

****

ببكاء أقرب للنَّغم خرج صوت الرضيع، حملته "صابرين"، فلوح بيده الصغيرة، وطرَق على منبع طعامه الساكن فوق قفصها الصدري، فتبسَّمت له وهي تُبرز ثديها؛ ليلتقطه بشفتيه في شهية بالغة لم تعهدها معه من قبل، انساب سائل الأمومة على لسانه مختلطا بحنانها؛ فرطَّب فمه وصدره، وسكن في معدته حتى شبع، فلفظه خارج فمه لتقول الأم من بين ضحكاتها:

- حتى إنت بتاخد غرضَك وترمى الحاجة بعدها.

انتظمت أنفاس الرضيع، وأسدل ستائر عينيه؛ فحملته إلى منامته، والتفتت إلى الحقائب المرصوصة بجوار الباب، ووقفت بضع ثوان، لا تدري لماذا تقف الآن، لكن هناك صوتًا قويًّا يتردد في أعماقها، يخبرها أن هناك شيئًا ما حدث أو سيحدث، شيء ما سيقتلع قلبها من جذوره، استعاذت بالله من شياطين الإنس والجن، أطبق على صدرها ألمٌ كأنها رشقة سكين غادرة، كأن ذرات الهواء قد تثاقلت من حولها، هوَّنت على نفسها وطمأنتها بأن هذا القلق ما هو إلا شعور طبيعي لاقتراب موعد إجراء العملية الجراحية لطفلها الوحيد، الذي وهبتها الدنيا إياه

بعدما سلبَتْها كل شيء.

تسلَّلت دمعة هاربة من عينها تشي بطوفان من القلق والخوف المترسِّب في أعماقها، مسحتها بيد مرتعشة، وهي تخلع ملابسها عن جسدها المحموم، تشعر بأنفاس ثقيلة تشاركها المكان، لا أحد غيرها، ورضيعها في الشقة، لكن شيئًا ما تشعر به ولا تراه، دس يده، وسحب أمانها؛ ليبدله قلقًا مشوبًا بالترقب، دلفت إلى الحمام لتقف تحت المياه الدافئة الجارية، تغسل جسدها وهمومها، تحاول جاهدة أن تزيل آثار الخوف المتراكم على جلدها كحشرات دقيقة تسكن مسام الجلد، ازدادت حرارة الماء، فارتقى بخارها ليكون طبقة ضبابية على الزجاج من أمامها، مسحتها بكفها علَّها تقرأ مكتوب القدر من خلفها، انسالت المياه على جسدها، فداعبته لتتذكر لحظات الاختلاء بزوجها "خليل" فهي لا تراه فقط زوجًا، إنما هو وطن حنون، طفل كبير، لا يعيبه سوى روحه النقية الشفافة، التي يراها الناس فرصة جيدة للاستغلال، لا تدري هل هي من تحتمي به أم هو من يسكنها ليختبئ من قسوة الدنيا التي أحنت ظهره!

انتهت من تجفيف جسدها بمنشفة بيضاء كروح رضيعها وقلب زوجها، وخرجت ترتدي قميصًا منزليًّا خفيفًا متجهة إلى غرفة نومها، لتكمل ارتداء ملابسها، التفتت إلى منامة رضيعها وهي تسأله بجدية كأنها تنتظر منه إجابة:

- يعني بطَّلت عياط يا نن عين أمك، إنت نمت؟

لم تأتِ الإجابة التي انتظرتها.. ولا غيرها، لم يرُد الرضيع، ولم يهز رأسه كما اعتادت، لم يبكِ لتجري عليه وتحتضنه ليهدأ، لم يفعل أيًّا من هذا، تسمرت في مكانها غير مستوعبة، شُلَّ عقلها لثوان، وتجمَّدت مسارات التفكير والإدراك والوعي، كمن أصيبت بلوثة عقلية هرولت ناحية الغرفة، تتحسس منامة الرضيع الخالية، بأطراف مرتعشة وقلب اقتنصته رجفة مقبضة، زحفت تبحث عن قطعتها الصغيرة أسفل المقاعد وفي زوايا وأركان الغرفة.

صراخ..امتنع العقل عن ترجمة حروف هذه الكلمة إلى إشارات عصبية، ليرسلها إلى حلْقها، فلم يتحرر صوتها المحبوس بداخلها..

نيران لا ترحم اندلعت بداخلها، تأكل أحشاءها وقلبها..

صراخ.. رغبت به فتمنَّع، توسَّلت إليه؛ فرَقَّ قلبه، وحرَّر صوتها أخيرا، صرخت كمَن انتزع أحدهم الروح من جسدها...

لم تجد لصراخها مجيبًا سوى ذلك الصدى، الذي دوى في الشقة، التي بدَت ككهف أسود مهجور.. دوى صراخها، لتُخرسها ضربة غادرة مباغتة من خلْفها؛ أسقطت جسدها أرضا ..

****

صرخة هائلة تحررت من حلق "جمال"، الذي فتح الباب، وخرج مندفعا، فباغتته ضربة قوية حاسمة من خلفه تماما،

أسقطته أرضا؛ ففَقَدَ على إثرها وعيَه بدنيا الأحياء.

لم يدرِ هل مرَّت دقائق أم ساعات، أم أيام كاملة قضاها في غفوته الإجبارية قبل أن يفيق، ليتحسَّس موضع الضربة، التي لم ينتج عنها قطرة دماء واحدة، فقط قامت بالمطلوب منها، وسلبته وعيه لبعض الوقت.

لا يدري هل فقد بصره أم أن هذا الليل، الذي صحا فوجد نفسه غارقا فيه، لا ينجلي أبدا، تلفَّت حوله فلم يرَ سوى الأسود القاتم، ورائحة عطن قوية تزكم أنفه، ومن خلفه سمع صوتًا كالفحيح يقترب:

- كتبت نهايتك بإيدك.

كمَن فقد القدرة على النطق، هزَّ رأسه يمينا ويسارا، فشعر أن الصوت يلتفُّ من حوله، ويهمس في أذنه:

- قلت لك ما تبوح بالسر لاخواتك.

كالذي أصابه مَسٌّ من الجنون؛ شَرَع "جمال" في تحريك كل أطرافه بعشوائية، فاصطدم بالصوت الذي جعله يخمد تماما:

- حذرتك وما وعيت.. أمرتك وما نفذت.. يا أسفي عليك...

نعم.. هذا الصوت يعرفه، هو صوت السيدة العجوز، التي أخبرته باللعنة، التي طالته، وقد حذرَته من أن يخبر أحدًا بشأنها، لم تحتمل أعصابه، فأطلق سراح السر أمام أخويه وزوجة أخيه، وأخبر زوجته أيضا!

هل كُتب عليه الهلاك بالفعل، هل انتهى عند هذه النقطة.........

صفير حاد يقترب، صفير عاصفة جاء من بعيد مسرعا ليستقر في أذنيه، ويتخلل جسده كأنه موجات كهربائية، تسبَّبت في تحليل ذرات جسده، شعَر بهذه الموجات تضربه في كل موضع قبل أن يرفع كفَّه، ليحمي وجهه من هذه الهجمات مجهولة المصدر.

الفحيح يتواصل بفجاجة، يلتف الصوت حوله بنعومة، يضاجع رأسه بعنف.. صوت حار، كأن الصوت يخرج من الفم، فيتحوَّل إلى كتلة حارة تلهب أسماعه.. فقط تكرر الفحيح، صوت مجهول استحال عليه تحديد مصدره، كأنه منبعث من باطن الأرض، ترسله الشياطين المكلَّفة بأمر هذا البيت...

شيء ما يزحف على وجهه، ربما ثعبان، أو زواحف شيطانية مجهولة، يتردد في أذنه صدى لهاث كائن ما، يلعق وجهه بنهم، شيء ما ينسكب على جسده، سائل لزج كريه الرائحة.

- روح خليل.. روح خليل.. روح خليل.. روح خليل....

عاد الفحيح يردد هذه الكلمات، كأنها كلمات غير منطوقة، تمر إلى عقله قبل أذنه، ذيَّلها المتحدِّث بكلمات حروفها خرجت مدكوكة:

- خلاصك في روح خليل، ارفعها للي خلقها..؛ تنجَى.

أظافر حادة تغترف من لحم وجهه... دماء هاربة عادت فجأة لتنز من بين الجلد المهترئ واللحم الممزق... صراخ

تاه في غياهب الصفير، الذي توحَّش؛ ليُفقِده القُدرة على التركيز... شعَر أن تلافيف مخه قد انتفخت وتضخَّمت، وستنفجر بعد لحظات معدودة....

الأظافر توقَّفت فجأة عن نهْش وجهه في نفس اللحظة، التي انغرس في عنقه سِنٌّ مِحقن حاد، وتراخت أعصابه فجأة، ليغيب عن الوعي و....

* *

- وادي يا سيدي ألفين جنيه، وجواب المستشفى، عشان عملية القرد الصغير.

قالها الحاج "حسيب"، فدنا "خليل" مقبِّلا يده، تراجع الرجل بشهامة صادقة ساحبا يده:

- إيه يا عم خليل ده.. ارفع راسك يا راجل وروح فرَّح مراتك.

دعا الله بقلبه قبل لسانه أن يستر هذا الرجل الكريم، بحياء أخذ الأوراق المالية وخطاب المستشفى، الذي يفيد بتحديد ميعاد إجراء العملية الجراحية لقلب رضيعه، وهروَل خارجا، يزغرد قلبه وسط تهليل زملائه من العمال، توسطهم لتنهال عليه المساعدات المالية السخية، التي جادت بها جيوبهم البسيطة، كل جادَ بما استطاع وأكثر، فقط لترتسم البسمة على وجه زميلهم الطيب.

- ربنا يكرمني وأرُد كل حاجة عملتوها معايا يا أغلى الناس.

من بين دموعه قالها، يسبِّح قلبه بحمد الله ألف مرة في الثانية، يشكره على كرمه وجزيل عطائه، ابتلاه بالمِحنة، وغلَّفها بمِنحة تزيل أثرها وتطيبه. غادر المصنع تسبقه دقات قلبه، يود لو يقطع الطريق جريا ليصل إلي زوجته، يزف لها الخبر السعيد لتعود البسمة إلى ثغرها، استقل كل وسائل المواصلات المتاحة ليصل سريعا، يا الله.. تمنع وتمنع وتمنع ثم تمنح، حتى تفيض القلوب رضا وامتنانًا.

وصل إلى رأس الشارع، فرفع رأسه يتفقد زوجته، التي اعتادت انتظاره أمام النافذة، يلهث كمَن قطع عشرة أميال على قدميه، يوَد لو يستطيع تقبيل كل المارة، يخبرهم أن الله أذن بالشفاء لرضيعه، أخلفت "صابرين" عادتها وأغلقت النافذة، لم تنتظره اليوم؛ فجرى ليبشِّرها بالخبر السعيد، صعد الدَّرج بخِفة ليصل إلى شقته..

- الله، انتِ سايبة باب الشقة مفتوح ليه يا ولية!

بانحناءة ظهره المعتادة وقف "خليل" بعد خطوة واحدة من دخوله الشقة، لم ترُد "صابرين" على كلامه، ولن تتعلل بأنها تركت الباب مفتوحا، لأنها تريد تهوية الشقة، لن تهلل فرحا لأنه أحضر النقود للسفر، ولن يرد رضيعه ببكائه الذي اعتاده.

- صابرين...

الظلام يقف متنطعا في أركان الشقة، يلفها بإحكام، دلف "خليل" متوجها إلى مقبس الكهرباء، ضغط عليه

فتبدد الظلام، وجاءت الحيرة مختلطة بالقلق..

- صابرين.. إنتِ فين يا ولية!

حالة من العشوائية اجتاحت محتويات الشقة، تبعثرت حقائب السفر، التي رصَّها بنفسه بجانب باب الشقة من الداخل، هناك أثر لشيء ما حدث هنا لا يدري ما هو..

- صابرين...

قالها هذه المرة والقلق ينشب مخالبه في صميم قلبه، بيأس فتح باب غرفة النوم ليتفقد زوجته، كأنها تبخرت، لم يجد لطرفها أثرًا، هرول إلى منامة رضيعه ليصطدم باختفائه!

- صابرييييييييييييين..

دوار خفيف لف رأسه، أين ذهبت زوجته ومعها طفله، تضامنت أمعاؤه مع القلق الذي استبد به فتقلصت بعنف، مسحت عيناه كل سنتيمتر في الشقة فاصطدمت بشيء ما ينتظره على المنضدة الصغيرة القريبة.

اقترب والتقط الظرف الأسود الصغير، ليسحب من باطنه ورقة صفراء مهترئة، قرأ المكتوب بتمعُّن ليعتلي الذهول وجهه...

****

- خليل لازم يموت ..... خليل.. يموت..

كسهم ملتهب شق الجلد واخترق اللحم أتاه الصوت، فاستفاق "جمال" مرتعبا، وجد نفسه مستلقيا على ظهره،

الصوت يلف المكان من حوله، يجهل مصدره أو هوية قائله، الخدر يسري في أوصاله، محقنا آخر يُدَس في وريده، يبث مادة حارقة تسبح في الدماء، كأنها النار أو النار هي.. يتقلص الوعي تدريجيا ويقف على العتبة قبل الأخيرة، فينتفض إثر صدمة كهربية غادرة ترج جسده بعنف...

- بإيدك إنت هتنهي كل شيء...

الصوت يهز جدران المكان كعاصفة هادرة تطيح بكل شيء أمامها، الهسيس يقترب.. يقترب.. يلتصق بأذنه اليمنى، لا.. اليسرى، لا.. كلتاهما، نعم.. صوت السيدة العجوز الحاد هذه المرة يدك أسماعه، يسيل مصبوبا في أذنيه كالحميم..

- دي آخِر فرصة لك في الحياة يا ابن هانم.

****

(لعنة البيت طالتك.. والتمن مراتك وابنك يا ابن هانم)

تراجع "خليل" ببطء ليسقط في فخ الخوف، دارت عيناه تمسح الشقة في ذعر، كطفل تاه عن أمه في السوق، هرول في أنحاء الشقة يبحث عن شيء يجهله، عقله ينكر بشدة تصديق ما يحدث، أين ذهبت "صابرين"!... لماذا لا يصرخ رضيعه كعادته!... لقد أحضر النقود وخطابًا يفيد بأن الرضيع سيجري العملية الجراحية، ويطيب قلبه، سترتسم

البسمة أخيرا على شفاه هذه الأسرة البائسة، ماذا حدث؟.. هل هذا كابوس بشع سينتهي بعد دقائق؟ ويصحو ليجد "صابرين" تقف كعادتها في المطبخ تعد إفطارهم وتردد أغنية لوردة، نعم.. سيصحو بعد قليل، لا.. هذا ليس حلمًا أو كابوسًا.. هذه حقيقة سوداء!

مامعنى المكتوب في هذه الورقة؟.. ما مصدرها!.. أين اختفت "صابرين" والرضيع، هل هذه مزحة ثقيلة من "صابرين"؟.. يا الله، دلني، ارشدني.. ماذا يحدث!

"جمال"............ ارتسمت حروف اسم "جمال" في ذهن "خليل" بحروف وامضة، كأنها إشارة تدله على طرف الحقيقة، "جمال".. أمطره بسيل من التهديدات، إن لم يرضخ لما أمر، ما حقيقة هذه اللعنة التي ذكرها أخيه، وما علاقتها بهذه الورقة مجهولة المصدر، والتي تخبره عن لعنة البيت التي طالته، لكن ما معنى أن الثمن هو زوجته ورضيعه!

عشرات الأسئلة التي اغتصبت عقله بلا رحمة، طرحته أرضا وتناوبت عليه، حتى خارت قواه؛ فغدا طريحا ينازع، والدماء تسيل من جنباته، لهثت الأسئلة فتردَّد صدى لهاثها في صدره، ارتفع وهبط بعنف طاردا أنفاس حارة، وهو يجري صاعدا إلى شقة أخيه "جمال" المغلقة، طرق الباب بعنف؛ فجاءه الرد صمتًا ساخرًا، تضاعفت حِدة طرقاته فأعلن باب الشقة الاستسلام، وانخلع من موضعه، تراجع الباب وانفرج أمامه على مصراعيه، دخل "خليل" الشقة ينادي

أخاه بهستيريا، لازال الصمت الساخر هو سيد الموقف، فقط عشوائية تغلف المكان.

سحبته قدماه من المكان، هرول.. لا يوجد سوى حل وحيد، تقديم بلاغ في قسم الشرطة عن اختفاء "صابرين" والرضيع!

****

وحده مكث "جمال" في الغرفة المظلمة، يعبث الجوع بجهازه الهضمي، ارتفع أنين الجسد كصرير باب قديم، لم يفتح منذ ألف عام، الألم يضربه في كل موضع بخِسة، تنقطع الأصوات المجهولة لبعض الوقت، ثم تعود فجأة فيرتجف جسده كليا كمَن يتعرَّض لتيار كهربي..

عصف الألم برأسه، وكلمات السيدة العجوز ترن في أذنيه، كأنها تأتيه من فج عميق عميق **(يا أسفي عليك، كل ما فيك بقي تحت تصرفهم، هيقتلوا بيدك، وكل شيء هينفذوه بيدك.. أنت)**

ينفض رأسه بعنف، يريد طرد هذا الصوت الذي يقربه من الجنون.. أحدهم يتقدم منه، يشعر بحرارة جسده تقترب منه، يتكوم في موضعه، فيدس القادم سن المحقن في وريده بمادة حارقة، يصرخ.. يصرخ.. يصرخ حتى يفقد الوعي.

****

- الحقني يا بيه.

نطقها "خليل" من بين لهاثه أمام الضابط في قسم الشرطة التابع للحي، وقف أمامه مرتعش البدن دامع العين يقبض بكفه على ظرف أسود غريب الشكل.

- خير يا خليل!

- خطفوا مراتي وابني العيان يا بيه، ده معاد عمليته كمان أسبوع.

خرجت الكلمات متشبعة بالحسرة والخوف، فهدأ الضابط من روعه، وأجلسه على أحد الكراسي.

باهتمام تعامل الضابط مع بلاغ "خليل"، تربطهم سابق معرفة من قبل، هذا الضابط صديق شخصي للحاج "حسيب" صاحب المصنع الذي يعمل به خليل، وسبق أن أرسله له لينهي له بعض المهام.

- اهدا يا خليل.. واحكي كل حاجة بالراحة...

يهدأ!.. كيف يهدأ الرجل الذي وقف على أرض ملتهبة، يتنفس النار ويبتلع مرارة الحنظل!

استفهم منه الضابط عن كل التفاصيل، فأعطاه "خليل" الورقة المجهولة، قلَّبها الضابط بين يديه وقرأ المخطوط بها عدة مرَّات علَّه يفهم شيئًا قبل أن يصطحب "خليل" ومعهم قوة من القسم لمعاينة مكان الحادث...

حكى له "خليل" عن الخلاف، الذي وقع بينه وبين أخيه

"جمال" في اليوم السابق، وعن اللعنة التي ذكرها "جمال" في وسط حديثه قبل تدخل "صابرين" التي طردتهم شر طردة.

اختزن الضابط كل حرف سمعه محاولا الفهم، أي لعنة التي يتحدث عنها هذا المخبول!.. وما مصدر هذه الورقة الغريبة!.. لا شك أن أحدهم يدبِّر لكارثة كبرى.

مسحت القوة المصاحبة للضابط كل سنتيمتر في الشقة، اكتشفوا وجود كسر حديث في الباب الخلفي للمطبخ، استغله الجاني للدخول إلى الشقة، محتويات الشقة مبعثرة في الأركان، وشيء ما ملقًى في الرواق الفاصل بين غرفة النوم والصالة..

اقترب الضابط، والتقط هذا الشيء بحرص وترقُّب، إنها حافظة جلدية تحوي أوراقا شخصية وبعض الوريقات المالية.. لابد أنها سقطت من الجاني سهوا أثناء تنفيذ الجريمة..

فتحها وأبرز البطاقة الشخصية المدسوسة بين ثناياها، وقرأ بصوتٍ خافت اسم صاحبها .. "جمال راضي طاهر القرشي"...

****

علامات ونتوءات توزَّعت في كل انحاء جسده، ما بين لدغات بشرية تركت أثرها الأزرق على جلده، وخربشات

لأظافر حادة، تركت أحمرها على وجهه وعنقه وصدره..

نائم هو أو غائب عن الوعي أم سقطت روحه في قاع التغييب!.. يشعر "جمال" بكل شيء من حوله، لكنه غير قادر على الحركة أو النطق، يتمنى أن يهبط ملاك الموت الآن فينتزع الروح ويرفعها إلى السماء لينتهي كل شيء..

يشعر الآن بحاجته إلى شيء ما.. ما هو؟.. لا يعرف، جسده الآن متعطش لشيء ما يجهل هويته.. آلاف الأحذية ترشق رأسه يمينا ويسارا، الألم يتربَّع على عرشه ضاحكا بعنجهيته الباردة، صرخات متقطِّعة أطلقها جوفه، دخل على إثرها أحدهم ودَسَّ في وريده محقنا سال منه سائل النار الحارق.. أطلق صيحته الأخيرة وهدأ كل شيء تدريجيا...

****

ثلاثة أيام قضاها "خليل" مترجلا في الشوارع، يبحث عن أي شيء يوصله لأخيه "جمال"، الذي تبخر، يكاد يفقد عقله مما حدث، فليحترق البيت وكل بيوت العالم مقابل سلامة وأمن "صابرين" ورضيعهم!

ألهذه الدرجة تمكن الطمع من قلب "جمال"!.. لابد أن يدفع ثمن كل هذا وأكثر.. طوفان من الغضب المشوب بالقلق تفجر في أعماق "خليل" المكلوم، لا يستطيع المكوث في المنزل انتظارا لتحرِّك قوات الشرطة بحثا عن

أخيه والقبض عليه.

انتشر الخبر بين الناس، فالتقطه متشممي عورات وخبايا الناس، الأخ اختطف زوجة أخيه ورضيعها ليجبر أخاه على بيع نصيبه في المنزل الذي يسكن، يريد تجريده مما يستره لتحقيق أطماع شخصية..

تفنن الناس في اختلاق تفاصيل إضافية للحدث الأصلي، فبدا الحديث بينهم كمباريات ومبارزات كالعادة، ولم يسلَم "خليل" من ألسنتهم المسنونة، التي شرعت تذبح شرفه بلا رحمة.. ربما هربت الزوجة مع شقيقه وبصحبتها رضيعها!

اكتوى "خليل" بنيران الكلمات وصفعات القلق المستبد، تُرى ما مصير رضيعه عليل القلب؟ ميعاد العملية قد حان ليطيب مضغته الصغيرة المتشبعة بالألم، أين أنت يا صغير.. يكاد القلب يتفتت من القلق عليك ووالدتك... لا سامحك الله يا "جمال"..!

على الرصيف يبيت لياليه عندما يستبد به الألم، ثم ينهض لمواصلة البحث عن ضالته، أيام نحتت بأظافرها علامات على روحه، يسير حاملا خطاب المستشفى، الذي يحدد ميعاد إجراء الجراحه لطفله، أيام تسحبه في جوفها وتلفظه بسخرية دون أن تروي ظمأه بما يطمئنه على مصير زوجته وطفله.. خمسة أيام تحديدا قضاها سيرا في الطرقات ذاهلا، ينادي تارة زوجته كما لو كانت تائهة، وتارة أخرى ينادي رضيعه، ظن الناس أنه فقد عقله،

فامتدت الأيادي تشير إليه ساخرة، وأخرى مشفقة وأخرى متلصصة على سيرته..

خمسة أيام مسح بعينيه وقلبه الطرقات، التي يعرف ولا يعرف، حتى أنهكه التعب، وأضناه قلة الحيلة فعاد لتحضنه حرباء الحقيقة، وتبث سمومها الخبيثة في قلبه...

- اااه

****

جمال..

على مقعد حديدي بارد أجلسوه، أحكموا وثاق أطرافه جيدا خوفا من انفلاته، يعاملونه كحيوان مفترس وقع في قبضتهم.. الظلام يغمر الغرفة كما تعود فأغمق عينيه.. لم يعد بحاجة إليها .. هو لا يرى شيئًا في كل الأحوال.

الأصوات تلتف حوله فتمُر عبْر أذنيه لتخترق عقله.. سؤال طرق أبواب عقله بعنف.. هل للصوت أن يتحول إلى مادة ملموسة لها أثر حسي؟.. يشعر بالصوت كماء العذاب، يصبونه في أذنيه فيتسلل بين ثنايا الأذن بخبث، يمرق بداخل الجمجمة فيكوي عظامها ويهتك لحمها!

- بإيدك تقتل خليل... بإيدك.. بإيدك.....

تردد الصوت عشرات المرات فتضاعف سيلانه داخل عقله، يكوي بلا رحمة ويسلخ بلا قلب، تبعه سن المحقن الذي

انغرس في وريده؛ ليزوده بقبس من الموت فانسحب الوعي مجددا من جسده تدريجيا.

****

عربات الشرطة اصطفت لتسد الهواء عن رئة الشارع، بمحاذاتها وقف عشرات الجنود ليكملوا مهام العربات، لا أحد يمر.. فقط بعض المتجمهرين أمام شيء ما، ومن أمامهم وقف ضابط الشرطة يأمرهم بمغادرة المكان فورا.

تقدم "خليل" وبداخله صوت يرجوه ألا يتقدم أكثر من هذا، كل خطوة يخطوها تقربه من أقسى شيء سيمر به في حياته بأسرها.. دفع الصوت الذي يأمره بكلتا يديه رافضا تنفيذ الأمر وخطا خطوات ثلاثة يتيمة، ثم توقف أخيرا.

حلَّقت فوق رأسه طيور الخرس التي سحبت الكلمات من حلقه وطارت بها، مذعورا كان، يعتصر بيده خطاب المستشفى الخاص برضيعه، تفتت بين أصابعه مثل قلبه الذي هوى من موضعه لتسحقه أقدام المارة، وقف فاغرا فِيْهِ، ومن حوله جيرانه يشاهدون ما حدث...

أمام صندوق القمامة الكبير وجد المارة جوالا ضخما يسيل منه دماء غزيرة، استدعوا الشرطة، التي فتحت الجوال؛ ليكتشفون جثة "صابرين" مذبوحة الرأس، ومعها

رضيعها منزوع الرأس والأطراف، كأنه تعرَّض لعملية تعذيب بشعة.

بِركة صغيرة من الدماء سبح فوقها الجوال القماشي الأسود، تدلَّى منه ذراع "صابرين"، ممزقة الملابس في هيئة تشي بأنها ظلت تقاوم حتى آخِر أنفاسها، قبل أن يتمكن الموت الخسيس منها.

- ااه

صراخ.. فقط صراخ أطلقه جوف "خليل" المكلوم، غادرته روحه، التي كان يعيش بها إلى غير رجعة، جثا على ركبتيه يتحسس جثة "صابرين" ويقلِّبها، يرجوها أن ترد.. تنطق.. تخبره أنها ستعود معه إلى الشقة لتطعمه وترضع صغيرها.. نعم.. صغيرها النائم بجوارها، تحسسه ولمس موضع ذراعه الفارغ منه، خرجت الكلمات كالهذيان من فمه.. أخبره بأنه سيجري له العملية الجراحية، سيصبح قلبه أفضل.. لابد أن يحدث هذا.

بصعوبة انتزعه الضابط من موضعه وأمر بإخلاء الموقع فورا من جموع الناس ليبدأ التحقيق في هذه الكارثة...

****

(العثور على جثة أم ورضيعها مفصولي الرأس، والرضيع منزوع الأطراف في أحد صناديق القمامة) التفاصيل في

الصفحة الخامسة..

كان هذا هو الخبر الذي احتل صدر الصحيفة الرسمية، جريمة المتهم الرئيس فيها "جمال راضي طاهر القرشي" الذي اختفى، ولازالت الأجهزة الأمنية تكثف البحث عنه للقبض عليه..

- س.. إيه طبيعة العلاقة بين جمال وخليل وأسرته؟

- ج.. الحقيقة مفيش أي علاقة بينهم، كل واحد في حاله يا فندم.

خرجت الكلمات من "أمين" مهزوزة، جلس أمام وكيل النيابة منتفض الجسد، قضى إجازته في شرم الشيخ، وعاد ليصطدم بما حدث، استدعته النيابة لأخذ أقواله و..

- س.. طب إيه اللي حصل في آخِر مرة اتقابلتوا فيها؟

- ج.. احنا أصلا كاخوات كل واحد في حاله، مفيش اتصال ولا أي حاجة، اتفاجأت بأخويا جمال بيتصل بيَّ، إنه عايزني في حاجة مهمة، اتقابلنا ولقيته بيقولِّي هنروح لخليل عشان نخلَّص موضوع مهم، وبعدها عرض علينا نبيع البيت عشان بيقول فيه لعنةاَ.. أنا بصراحة ما اهتمّيتش بالموضوع لأني مش مقيم في البيت بشكل أساسي، أنا عندي شُغلي، وباتنقل في محافظات كتير، خليل ومراته رفضوا بيع البيت، وجمال انفعل عليهم وهددهم، وبعدها مشيت ومعرفش إيه حصل بعدها..

حك وكيل النيابة ذقنه وأنهى التحقيق، نهض "أمين"

كالتائه، لا يصدق ما حدث حتى الآن، في الخارج وقف "خليل" في حالة يُرثى لها، ربت على كتفه وغادر في هدوء...

- يا خليييييييييل، قلت لك مليون مرة تشوف حد يصلح باب المطبخ اللي ورا عشان القطط اللي كل شوية تدخل دي.

- يا ولية عليَّ الطلاق بانسَى.

- طب قوم اعمله انت يا راجل، ولا مستني لما يدخل فار يعضني.

صمت لثوان ورد بخفوت:

- يبقى عمل خير والله.

أرهفت السمع لتلتقط كلماته الساخرة فعلَّقت:

- والله أنا غلطانة إني باقولك صلَّحه، سيبه يا خليل.

ترددت كلمات "صابرين" في أذن "خليل" الذي غاب في الذهول، سار في الطرقات ينادي اسمها، يستند حينا إلى جدار يبكيها ويواصل المسير حتى يفتت التعب قدميه، فيجلس على أحد الأرصفة ليواصل ذكراه معها..

- إنت ابني وجوزي وابويا واخويا يا سيد الرجالة، في الدنيا دي ماليش إلا انت بعد ربنا، ربنا يحميك يا خليل.

دموع حمراء سالت من عينيه اليتيمتين، صار حديث الناس بما صار له وما سار إليه، يتغامزون كعادتهم لرؤياه، ويتحاكون هامسين بما حدث له، أخوه اختطف زوجته

وذبحها.. نعم أخوه الذي اقتسم معه يومًا ما قِطع الحلوى والطعام والفِراش، أخوه وشريكه في رَحِم الأم والدم فعَل به هذا.

صراخ الرضيع يدوي في أذنه؛ فيتلفت حوله، ويهرول بحثا عنه ليهدهده، ينادي على "صابرين" صارخا لتلتقط طفلها، وترضعه علَّه يهدأ..

لا تجيب "صابرين" التي غابت للأبد.. ينادي وينادي وينادي فلا إجابة، لا صوت، أين غابت؟.. هل سيُحرم من دفء روحها للأبد!.. من المؤكد أن كل هذا مجرد هراء وسينتهي عما قريب وتعود "صابرين" ويصحبها إلى المستشفى في الإسكندرية لإجراء الجراحة لرضيعهم، سيُشفى الولد ويكبر ليصبح عماده وقوَّته وسَنده..

يجري وسط الطرقات ملوِّحا بيده للاشيء، يبحث عن حضن "صابرين"، فلا يجد سوى تعليقات الناس الساخرة من هذا المجذوب، الذي يتحدث مع الحوائط وأعمدة الإنارة!

لازال في طور الصدمة، لم يتجاوزها بعد، ولن يفعل!.. اعتكف أياما أمام عتبة المنزل في انتظار من لن تأتي أبدا، أياما قضاها في الطرقات حتى اعتاد الناس رؤيته، وشبعت الألسنة من حكايته..

أيام قضاها على هذا الحال حتى أصبحت عتبة المنزل هي سكنه الدائم، يغيب أحيانا بروحه ليذهب إلى "صابرين"

ويعود، لكن جسده بأي حال سكن هنا ..

****

كالعائد من الموت كان "جمال" الذي استرد وعيه ببطء، لا يدري ماذا حدث، تكتَّلت موجات الضباب حول ذاكرته؛ فحجبت عنها أشياء كثيرة، حاول تذكُّر ما حدث ففشل تماما، ملقًى على قارعة الطريق، فنهض كفأر مذعور يختبئ من خطر مجهول..

جروح طولية حُفرت على وجهه، وآلام متفرِّقة في كل أنحاء جسده، تلفَّت حوله ليجد نفسه في منطقة مهجورة، غاب عنها الإنس والشجر والحجر، وحده تصحبه آلام جسده وروحه، يدوي في أذنه صوت لازمه:

- خلاصك في روح خليل يا ابن هانم.

كمن خرج من محبس مدفون تحت الأرض، بعد مائة عام بدا "جمال"، طالت لحيته وغارت عيناه في محجريهما، تشقق لسانه وجف حلقه، فبدا كقطعة خشب يابسة، أظافره النامية كحوافر مسنونة، يسبح تحتها السواد الذي كسي ملامحه أيضا!

- كتبت نهايتك بإيدك يا ابن هانم..

الصوت يتردد في أذنيه بفجور، يصفعه بلا رحمة، تلفَّت حوله مذعورا، جرى.. اختبأ خلف الهواء من أشباح غير مرئية تطارده.. تواطأ الهواء مع أشباحه وعرَّاه أمامهم؛

فرضخ أخيرا وجثا على ركبتيه في استسلام وشرع يصرخ..

- هاقتله.. لازم أقتله.. خليل لازم يموت.. لاااازم يموووووووووت.

هرول.. تدافعت قدماه تسبق كلاهما الأخرى، لا يرى أمامه سوى شيء واحد.. دماء أخيه خليل تسيل أمامه، وروحه تغادر جسده لتلحق بمن رحلوا..

سار مترجلا كيلومترات طويلة، تلقفته الطرقات والشوارع، بعضها يعرف والأخرى لا يعرف، سحبته قدماه مرة، وقدره مرات، لا يعرف كيف وصل إلى الشارع الذي يقف في منتصفه البيت، مسحته العيون، وقبضت على روحه عشرات الأيدي غير المرئية، نفضها جميعا وجرى حتى وصل أمام البيت تماما ليقف في مواجهته...

رفع "خليل" رأسه من غمدها لتتلاقى النظرات.. "خليل" الذي سكن عتبة المنزل وقف الآن، وقف هذه اللحظة فقط في مواجهة أخيه "جمال".. تراسلوا بما هو غير منطوق، لكنه يفيض بما يبطن.

التف المارة من حولهم، يشاهدون مبارزة النظرات التي تحدث، الكل يترقَّب ما ستأتي به الدقائق القادمة.. انتصب ظَهر "خليل" هذه اللحظة فقط طاردا كل ضعفه وحزنه وآلامه.. فقط تذرع برغبته في الثأر لزوجته ورضيعه..

وقف "جمال" منزوع الروح، العشوائية تغلِّف كل شيء بصَلَف، الضباب يحيط بسطوته، يهيمن، ورائحة الموت تزكم الأنفاس، ينظر إلى "خليل" بِغِلٍ، يعد نفسه لينقض

عليه، ينشب مخالبه في جسده وينزع روحه لينفذ الأمر.

- ليييييييه؟

نطقها "خليل" صارخا ليفض بكارة الصمت، تردد صداها؛ فاهتزت جدران المنازل المجاورة، باغته "جمال" الذي انقض على عنقه، نشب أظافره الحادة بها فشقت الجلد ومزقت العروق، لتمرق في اللحم.

- لييييييييييييييييييييه؟

لفظتها حنجرة "خليل" المكلوم، وهو يرفع يده ليدس أصابعه في عيني "جمال"، الذي تراجع بخطوات عشوائية، يفصلهم سنتيمترات قليلة، كالفهد بدا وهو يعاود مهاجمة أخيه، الذي سقط أرضا لينقض بركلات عشوائية، طالت بطنه وصدره وهشَّمت أنفه.

نهض "خليل" مترنحا وباغته بضربة قاسية حطمت خصيته، فخرجت منه صرخة هادرة، حولته إلى وحش منزوع العقل، فأحكم القبضة على عنق أخيه، الذي تحوَّل وجهه إلى ملامح مرسوم عليها علامات الموت، أوشكت روحه على مغادرة جسده فدفعه بكل ما استطاع من قوة ليتراجع جسده هذه المرة ويصطدم بالحائط.

- روحك قصاد روحي..

نطق "جمال" أخيرا وهو يهوي على رأس "خليل" بلكمات أفقدته القدرة على الصمود، تراجع ليُحكم غريمه قبضته على عنقه، فانحسر الهواء داخلها، واستسلم تماما للضيف الذي حلَّ فوق رأسه.

ارتجف الجسد كفَرْخ ضعيف ذبحوه للتَوِّ، ولازال ينازع الموت، انسحبت الروح تدريجيا من أسفل الجسد إلى

أعلاه، ودَّعت كل عضو في جسده حتى وصلت إلى القلب الباكي، غادرته وبرأت إلى خالقها ليسقط الجسد سقوطه الأخير بين يدي "جمال"، الذي تلوثت يداه بدماء أخيه.

قشعريرة باردة سرت في جسده وهو يحمل جثة "خليل"، ويلقي بها لتسقط وتستقر في حوش المنزل الفسيح، الذي استقبلها وتشرب الدماء، التي هربت منها إليه بإكرام.

****

في ميعادها تماما وصلت قوات الشرطة، بعدما انتهى "جمال" من مهمته لتلقِّي القبض عليه بتهمة قتل زوجة أخيه ورضيعها ومؤخَّرا.. أخيه "خليل".

****

امتدت التحقيقات لأيام اعترف خلالها "جمال" بجريمته كاملة مردِّدا بعض الخرافات، التي رأتها النيابة محض ضلالات.

أفصحت التحاليل التي أجرتها النيابة لعيِّنة من دماء المتهم، أنه يتعاطى مخدر الماكس عن طريق الحقْن، ويعانى من اختلال نفسي وعقلي، فقررت إيداعه مستشفى الأمراض العقلية للوقوف على حقيقة قواه العقلية.

****

- أنا قتلته.. خنقته بإيدي وروحه طلعت..

قالها "جمال" محدثا مجهول يراه وحده في محبسه الانفرادي بمستشفى العباسية للأمراض العقلية،

وزَّع نظراته على أشخاص مجهولين شاركوه محبسه الانفرادي، راقبه الممرض من خلف الساتر الزجاجي، نهض فجأة وأطاح بأشخاص يراهم وحده، مغمغما بكلمات غير مفهومة، امتد العراك لدقائق، يتابعه فقط الممرض الذي هرول ينادي الطبيب، الذي يباشر الحالة فحضر ليرى بقية الحوار..

- حاضر.. هانفِّذ.. حاضر.. حاضر..

قالها "جمال" بنبرة مستسلمة لمحدِّثه الخفي، وانزوى في ركن الغرفة يبكي بهستيريا..

تابع الطبيب حديثه من أمام الحاجز الزجاجي الفاصل فسأله الممرض:

- هينفذ إيه يا دكتور؟

رد الطبيب بِحيرة:

- دي ضلالات سمعية وبصرية، هو بس اللي شايفها..

قالها وغادر بصحبة الممرض ليكتب تقريره، الذي سيرفقه مع الحالة إلى النيابة..

****

بعد ثلاثة أيام تسلمت النيابة خطابا عاجلا من إدارة المستشفى يفيد بانتحار المتهم "جمال راضي طاهر" في محبسه الانفرادي بالمستشفى.

****

بعد مرور ثلاثة أسابيع..

ورَد إلى قسم الشرطة بلاغ من أهالي الحي يفيد بوجود

رائحة كريهة انبعثت من شقة "أمين" الكائنة في الدور الأرضي، انتقلت قوات الشرطة بصُحبة الطب الشرعي، واقتحمت الشقة لتصطدم بجُثة "أمين" في طَور التحلُّل.

صدر تقرير الطبيب الشرعي يفيد بوفاة المدعو "أمين راضي طاهر القرشي" إثر تناوله جرعة مخدر زائدة.

****

ختفت إضاءة الغرفة الصفراء، وارتسم على الحائط مستطيل من ضوء أبيض قوي، آذى عينَي الرجل، اللتَين تعودتا على الظلام، اقتربت «نور» وأشارت إلى الضوء الأبيض، الذي بدا كأنه شاشة عرض سينيمائي ذات طابع خاص.

انحسر اللون الأبيض تدريجيا ليتبقى فقط لون الإطار المستطيل، الذي سالت بداخله الألوان وتداخلت لتكون صورًا ومشاهدَ ليرى المشهد جليا..

سيارة أجرة تسير بسرعة جنونية، تطارد أخرى وتحاول اللحاق بها، وفي المشهد هو.. نعم.. دقَّق النظر جيدا ليرى نفسه جالسا في المقعد الخلفي يحتضن كيسا معبأ بالأوراق المالية، يصرخ في السائق أن يكف عن هذا الهراء، ألقى السائق بكلماته من النافذة وشرع في مطاردة السيارة بنصف عقل، وربع وعي، قبل أن تتوقَّف أمامهم مباشرة السيارة الأخرى وتقطع طريقهما.

نزل من السيارة الأخرى ثلاث جثث بشرية، أجسادهم كناطحات سحاب، سحبا السائق من موضعه وتراشقوا جسده فيما بينهم، ما بين ركلات وصفعات وسيل من سباب نال كل غالٍ وعزيز لديه.

انكمش «راضي» في موضعه قبل أن يتذكَّره أحدهم فجذبه خارج السيارة، والتقط بعنف الكيس القماشي المعبأ بالنقود، والذي جاهد في اخفائه بين طيات ملابسه، تفحَّصه الرجل مبتسما قبل أن يضرب «راضي» ضربته الحاسمة و... صمت كل شيء..................

التفت إلى «نور» ذاهلا فقالت:

- أيوه.. انت بابا راضي.

همَّ بالنطق؛ فقاطعته:

- الكلام مفيش منه أي فايدة، دلوقت لازم تشوف كل الحقيقة.....

قالتها وأوقفته بإشارة حاسمة منها، ليواجه الحائط الذي استعاد المستطيل المضيئ وتشكَّل أمامه هذا المشهد..

سيدة ثلاثينية نصف عارية، ترتدي قميصا مكشوف الصدر تماما، بجانبها شاب على السرير، استلقى على ظهره مشعلا سيجارته، التي تدلى رمادها كأنها على وشك السقوط، تتراقص رأسه يمينا ويسارا، ومن أمامه تراقصت السيدة بخلاعة على لحن أغنية هابطة، نهض

مترنحا من أثر المخدر، وأخرس صوت المسجل، فتوقفت السيدة عن الرقص، وألقت بجسدها على السرير بجانبه وهي تسأله عما سينوي فعله.. صمت للحظات وأخبرها أن لديه الكثير في جعبته.. خطة لو تمت كما أراد؛ سيحصدان كل المحصول وحدهما.. فقط.

- طب وده مش خطر يا كوبرا!

قاطعها بنبرة واثقة:

- يا بِت أنا مرتِّب لكل حاجة ما تخافيش

اعتدلت في جلستها، وساعدته ليجلس عاري الجذع مستندا إلى صدرها، طلب منها أن تجهز له نسخة من مفتاح الشقة، وأملاها بما سيفعله في أول خطوة، فاتسعت حدقة عينيها، أكمل حديثه ليزيد من دهشتها.. أخبرها أن أول خطوة لزرْع بذور عدم ثقة زوجها في نفسه أن يفقد قدرته أمامها، أن يعجز عن إرواء جسدها الثائر، أعطاها بعض الحبوب، وأمرها أن تدسها في كل أطعمة الزوج، والتي بدورها ستمتص فحولته، وتجتثها تدريجيا من جذورها.. ضحكت بخلاعة، فسكب المزيد من الزيت ليزداد اشتعالها، نهضت بصعوبة وهي تغمر وجهه بالقبلات، فنهض من خلفها، وأعاد تشغيل الأغنية وأمرها.. ارقصي لي..

****

زامت «نور» وهي تشير بإصبعها إلى الحائط، الذي اختفى من عليه الضوء لثوانٍ، فأشار»راضي» للحائط غير مصدقٍ لما رأى.. نطقها مذهولا:

- كوبرا هو ابني أمين!

بنبرة حزينة أردفت «نور»:

- كوبرا ده اسم الشهرة، مفيش حد يعرف إن اسمه أمين.

بحسرة أردف:

- والوردة!

ردَّت بحسرة مضاعفة:

- الوردة تبقى «عفاف» مرات جمال.

****

تنهَّد «راضي» فزفر النار من صدره، أشارت له «نور» مرة أخرى إلى الحائط، فثبَّت بصره عليه في غير تصديق لما يرى و...

المشهد الأول ..

أحداث متفرقة بدأت بقِط مذبوح، مفصول الرأس تسلل «أمين - كوبرا» وألقاه في منتصف شقة «جمال»، وغادر في صمت دون أن يشعر به أحد، بعدما قامت «عفاف - الوردة» بإجراء مكالمة هاتفية معه، تخبره فيها أن الجو مهيأ لكي يبدأ أولى جولاته!

المشهد الثاني ..

ضحكات ماجنة رنت في غرفة النوم السرية لـ«أمين - كوبرا» عندما أخبرته «عفاف - الوردة» بأن زوجها «جمال» بال في سرواله لحظة سماعه خبر حضوره إليها، قالتها ورقصت منتشية قبل أن يطلب منها «أمين - كوبرا» حكى المزيد ليضحك.. أخبرته أن زوجها كاد يفقد عقله، هي تعرف أنه قضى ليلته في أحضان عاهرة، فأخبرته عقب عودته صباحا، أنه جاء لها الليلة الماضية عند والدتها ليسترضيها حتى تعود إلى المنزل.. أخبرها «كوبرا» أن هذه الخطوة ستفتت قوى «جمال» العقلية لا محالة.. قالها وهو يداعب نهدها المتدلي قبل أن يدخلا في معركة شهوانية مجنونة.

المشهد الثالث ..

«أمين - كوبرا» يعاود دخول شقة «جمال»، بعد اتصال مبتور من هاتف «عفاف»، ليعرف أن الجو مهيأ لإكمال الخطة.. سكب بعض البنزين مشعلا النيران في بعض الأجولة المتراكمة بغرفة الخزين، وأخرج كيسًا ممتلئًا بالدماء، أغرق بها ملابس «جمال» الملقاة في وسط الصالة، ولطَّخ الجدران ببعض منها، وهو في طريقه للمغادرة!

المشهد الرابع ..

«أمين - كوبرا» يتفق مع سيدة عجوز سبعينية تعمل قوَّادة أن تتقمص دور سيدة عرافة عليها إتمام مهمة معينة مقابل بعض المشغولات الذهبية، التي سال لعابها لرؤياها، وكادت تسجد تحت قدميه طمعًا في ما معه، وأخبرته أن يأمر فقط فيُطاع.

المشهد الخامس ..

مستوى متقدِّم من التخطيط انتقل إليه «أمين - كوبرا» مع «عفاف - الوردة» عندما أمرها أن تطلب من زوجها مغادرة الشقة عقب حريق الشقة، وتحاول قدر المستطاع زرْع الرعب والشتات في نفسه، لابد أن يؤمِن بوجود من يتشبَّه به من الجن، وأنه يسعى للخلاص منه.. لابد أن يُجن «جمال» ليتهيأ للمرحلة التالية.

في هذه المرة وقفت «عفاف - الوردة» كما سقطت من رحِم أمها، بلا ساتر لعورتها، ومن خلفها عبَّأ الدخان الغرفة لتنقض كاللبؤة على أسدها الخائن، شرعا ينهلان من العسل المحرم حتى ارتوى جسداهما، نهض «أمين - كوبرا» بقوة وهو يتأمل منحنيات جسدها، ويتحسسها بيديه كمَن يتلمَّس كنزًا ليس له مثيل، أثار بركانَها فيضُ لمساته، فتوقَّف عما يفعل، وهو يخبرها عن باقي الخطة...

«جمال» في طريقه إلى العرافة، التي ستخبره كذبا أن هناك لعنة قد تمكَّنت إحدى العمَّات من دسِّها في المنزل، وعليه الوصول إليهما ليسترضيهما، ويتخلص من اللعنة التي طالته وحده، أنا أعرف جيدا أن إحدى العمات قد توفيت والأخرى فقدت ذاكرتها، سيعود إلى العرَّافة يحمل خيباته لتخبره بأن الحل الوحيد هو بيع البيت!.....

انغرست سهام الألم في قلب «راضي»، واستسلم للقيود التي ضاقت على معصميه، كأنها تواطئت مع ذرات الهواء، التي اتَّحدت ورفضت أن تعبُر إلى صدره، ضاقت أنفاسه، فنكَّست «نور» رأسها في أسًى، وأشارت إلى الحائط، التي تجدَّدت عليه المشاهد ليرى ما تبقَّى..

المشهد السادس ..

«أمين - كوبرا» يلهث في مضجع «عفاف - الوردة» بعدما انتهيا من إثمهما، ليخبرها بالإثم الأكبر.. سيشرع «جمال» في إقناعه هو وأخيه «خليل» ببيع العقار، سيوافق هو، ويتردَّد «خليل»، الذي ليس لديه القدرة على اتخاذ أي قرار، وبالتأكيد ستتدخل «صابرين» زوجة خليل، وتعارض البيع خوفا من طمع «جمال»، وبسبب رغبته الغير مبرَّرة في البيع.. سيثور حينها «جمال» ويسيل من فمه كلمات ستُحسب عليه فيما بعد.. لكل شيء مقدار ياحبيبتى.. قالها ولثم فمها بقبلة ملتهبة؛ غابا فيها معًا، واختفى المشهد.

المشهد السابع ..

استعان «أمين - كوبرا» بمساعد له اختاره بدِقَّة شديدة ليكمل خطته، دخل متسللا من السلم الخلفي للعقار، حتى وصل إلى شقة «خليل» من باب المطبخ، الذي يعرف سلفًا أنه مكسور ومن خلاله عبْر إلى بطن الشقة ليجتث منها نورها وبهجتها ونبع الحياه فيها، اقترب من الرضيع وضع أمام أنفه منديلا قماشيا مغموسا بمادة مخدرة سلبت وعيه، حمله مساعده الذي طار به من الباب الخلفي إلى حيث اتفق معه سلفا.

المشهد الثامن ..

وقف «أمين - كوبرا» يراقب جسد «صابرين» من فتحة صغيرة بباب الحمام، وهي تغتسل غُسلها الأخير، تحرَّكت بداخله رغبته الحيوانية وكاد أن يستسلم لها، ليتذوَّق لحمها الشهي قبل أن يتحلل بموتها المُرتَقب، لكنه تراجع حتى لا تفسد الخطة، اختبأ خلف أحد أبواب الغُرف، حتى خرجت من الحمَّام تتفقد رضيعها، وجاء من خلفها لتستقر ضربته على رأسها من الخلف، فسقطت فاقدة الوعي، أخرج من

جيبه حافظة النقود الخاصة بأخيه «جمال»، والتي تحمل أوراقه الشخصية، وألقى بها لتبدو كما لو كانت قد سقطت منه سهوا، ابتسم ظافرا، فبرزت أنيابه قبل أن يحمل جسد «صابرين»، وخرج بها متسللا من السلم الخلفي الملحق بالمطبخ، حيث تنتظره سيارة بالأسفل

المشهد التاسع..

في اتصال هاتفي اتفق «أمين - كوبرا» مع «عفاف - الوردة» سلفا أن تلطِّخ جسدها بالدماء وتفتعل الإغماء، لتستطيع هدم الجزء المتبقي من تماسُك «جمال» فور عودته، وبالفعل نجحت في تنفيذ ما أراد ببراعة، ليكمل هو المهمة، عندما ألصق بوجهه قناعا أسود اللون أعده خصيصا خبيرُ تجميل ليحمل نفس ملامح «جمال»، ليصل إلى اليقين بوجود شبيه له من جنس آخَر.

طرق بعنف باب الشقة ليخرج «جمال»، باغته بضربة مفاجئة من الخلف وصعد به إلى غرفة سرية في الطابق العلوي، كانت «عفاف» قد أعدَّتها سلفا، وبالطبع لا يعلم «جمال» شيئًا عن وجودها في المبنى.. أحكم «أمين - كوبرا» إغلاق

أضوائها حتى لا يرى أي شيء، ودَسَّ في جسده مِحقنا بداخله مخدر الماكس، لتبدأ رحلة الإدمان.. كانت العرَّافة قد حفظت ما ستقوله ل»جمال» الذي تهاوت قدرته على الصمود، ليعاود «أمين - كوبرا» دَسَّ محقنًا آخَرَ في عنقه ليغيب مرة أخرى عن الوعي!

المشهد الأخير..

«أمين» يلهث مجددا في مضجع «عفاف» وهو يخبرها بأن كل شيء يسير كما أراد، فمفعول المخدر الذي دسه في جسد «جمال» سيحيله إلى وحش مجنون، وما حدث له في الغرفة سيسوقه إلى قتل «خليل»، الذي ينتظره بدوره، ليقتص منه فينتهي المشهد بالتخلُّص من كليهما في مشهد دموي يعشقه هو!

ضحكت «عفاف» بخلاعة وهي تخبره أن خطتهما قد نجحت، وستئول إليهم ملكية البيت دون سواهما، فلم يعد للبيت وريث سواه، وهو بالطبع سيتزوجها كما وعدها و....

انتهى من ليلته الشهية في أحضانها، وغادر إلى شقته، وحده

في هذا المنزل الفسيح، أصبح المالك الوحيد، سيبيع هذا الكنز لأول مشترٍ، ويجني من ورائه تلالًا من الأموال، التي تمكِّنه من الإتجارٍ في مخدر الكوكايين، منجم الألماس الذي لا تنضب مكاسبه.

بشيطانية ضحك وهو يخرج كيسًا شفَّافًا صغيرًا، سكب بعضًا مما بداخله على المنضدة، وشرع يستنشقه بنشوة.. كررها مرَّة.. مرَّتين.. ثلاثة.. مؤشر النشوة في جسده يتراقص، يصعد كالصاروخ، حتى وصل به إلى جنة، وحده الذي دخلها.. كررها مرة رابعة.. الأنفاس تضيق.. الوعي يندثر.. الهواء ينحسر.. وحده من يمتلك هذا المنزل.. وحده من سينعم بمكاسبه.. الروح تتداعى، الأزرق ينتشر ببشاعة في الأطراف.. أغلقت العين وصعدت الروح إلى بارئها.

عاصفة عاتية هَبَّت؛ فالتصقت «نور» بأحد أركان الغرفة، تحمي وجهها بكفِّها الصغيرة، لم يستطِع «راضي» المكبَّلة أطرافه بأصفاد قاسية من حماية جسده، الذي اقترب من الذوبان تحت وطأة العاصفة، شعر بأن تيارات الهواء المجنونةَ تتخلل خلايا جسده وتفرقها عن بعضها البعض لتقترب من الانفراط كجبل رملي مفتَّت.

أغمض عينيه انتظارا لقدَر يجهله، فهدأت العاصفة تماما، هدأت كأنها لم تقم من الأساس، عاد كل شيء إلى

موضعه، ففتح عينيه بتوجُّس عندما استشعر أنفاسا يتردد صداها في الغرفة، أنفاسا ألهبت ذرات الهواء الساكنة في الفضاء المحبوس بين الجدران الأربعة.

نظر حوله؛ فرأى الحوائط قد أنبتت أصفادا حديدية جديدة، مبتهجة باستقبال زوار جدد يشاركونه وحدته وعذابه وحيرته، أبصر ضيوف الغرفة الجدد فلم يستطع التعرف على ملامحهم، بعدما غطت وجوههم رقائق من الأتربة المختلطة بالماء؛ فصنعت طبقة طينية أخفت ملامحهم.

تقدَّمت «نور» منهم باكية، وارتقت الكرسي الصغير، لتقف في مواجهة وجوههم، رفعت يديها وأزالت طبقات الطين المتراكمة على وجوههم لتتلاقى النظرات.. رفع «راضي» بصره ليرى ولده «أمين»، وبجانبه «عفاف» زوجة «جمال»، ولده الأكبر، الذي جلس القرفصاء في أحد الأركان تخلو أطرافه من الأصفاد، وبجانبه «خليل» الذي انحنى ظهره لا يكاد يبصر أمامه، ومن خلفه وقفت «صابرين» التي حملت رضيعها.

أشار الرضيع بكفِّه الصغيرة ناحية «أمين»، ومعه أشارت أصابع «صابرين» إليه، صرخت؛ فارتجت حوائط الغرفة وهرولت ناحيته، تنهش وجهه بأظافرها الحادة ليسيل منه دماء سوداء كالقطران، حاول الصراخ فانحسر الصوت في حلقه، لتتدخل «نور» وتسحب «صابرين» بهدوء إلى الركن القصي في الغرفة.

تقدمت «نور» وطرقت على الأرض ثلاث طرقات، تسببت في تشقق طبقة من طبقاتها لتتوجه إليها عيون الموجودين، التي أبصرت ما لم يخطر لهم على بال.

برزت من الشقوق الثلاث عشرات الحشرات حادة الأنياب، سوداء اللون مصقولة الظهر، أصدر جريانها أمامه حفيف أرعب القلوب وهز الأبدان، نظرت إليهم «نور» كأنها توجِّه خطواتهم؛ فتجمعوا عند النقطة المقابلة لجسد «أمين» و«عفاف»، ليتسلقوا أرجلهما وبطنيهم ورقبتيهما ووجهيهما، نهشت الحشرات بأنيابها ما استشعرت بلينه وسهولة قضمه، لتتعالى صرخاتهما.

شهقت «نور» شهقة عالية توقف على إثرها سِرب الحشرات تماما، ليصرخ «أمين»:

- أنا مش لوحدي، هي كمان شريكتي في كل حاجة.

ردت «عفاف» بصوت كالفحيح:

- فيها إيه لما أفكَّر في نفسي، محدِّش أحسن منِّي.

نظر إليها «جمال»، الذي هاله جسدها بعدما نهشتها الحشرات، فبدت كخِرقة بالية مليئة بالثقوب، لتقول له بِكُره واضح:

- أيوه.. أنا كنت باخونك مع أخوك أمين، ودبرنا كل ده عشان نخليك تشك في نفسك وتتجنن، وكنت باحط لك دوا في الأكل والعصير يضيع رجولتك، أيوة أنا عملت كل ده وكان عندي استعداد أعمل قده مليون مرة، أنا

كنت عايزة أعيش، محدِّش أحسن منِّي، كلكم طماعين، إشمعنى أنا اللي مش هاطمع!

انتفض جسد «جمال» الذي نهض من رقدته، ليفتك بجسدها المكبَّل، فنظرت له «نور» نظرة أفقدته القدرة على النهوض، كأنها سلبت قوَّته بنظرتها هذه، لتعيد الطَّرْق على الأرض، بعنف هذه المرة، فلم تتشقق كالسابق، مرت دقيقة وأخرى قبل أن يُفاجئهم شيء ما يتحرَّك حركات مجنونة بالقُرب منهم.

زوجان من الثعابين الشفافة، كأنها صُنعت من الماء، مشقوق لسانها، الذي رقص في مجون ليلجم أفئدتهم، نظرت إليهم «نور» لتوجههم فهدأت حركتهم انتظارا للأمر، أشارت بإصبعها فزحفت الثعابين تجاه جسد «أمين»، الذي تصلَّبت أعضاؤه، اقتربت الثعابين الجائعة تلتهم قدميه وكفيه، في بادئ الأمر، لينطق صارخا موجِّها كلامه لوالده:

- أنا كان لازم أعيش وآخُد حقي، إشمعنى إنت سرقت نصيب اخواتك عشان تعيش!

انتهت الثعابين من وجبتها، فأشارت لهم «نور» لينفِّذا ما أرادت بغير نطق، وزحفا إلى جسد «راضي»، الذي استسلم لقَدَره، كأنه أراد التعجيل بالنهاية، زحفت الثعابين فنهشت لحمه، قضمت وابتلعت حتى أنهت ما أرادت، تأملت «نور» بقايا جسد والدها، الذي لازالت روحه تعانق

جسده فنطقت الثعابين:

- لم نأكل لسانك لشِدَّة مرارته، وقلبك لشِدَّة سواده.

أشارت لهم «نور» بالانصراف؛ فاختفوا في الحال، وأغمضت عينيها فارتعشت إضاءة الغرفة الصفراء، حتى غابت تماما ليغرق المكان في ظلام تام، وتنقطع معه أنفاس الحاضرين لثوان، بقي خلالها صدى أنفاس «راضي»، يرتطم بصدره في عنف قبل أن يشعر بطوفان من مياه قذرة الرائحة، ليعود الضوء مرة أخرى أقوى من سابقه، فاقتربت «نور» من «راضي» وهي تشير إلى أحد أركان الغرفة، فرأى ما لم يستوعبه.

جفَّت المياه من الغرفة تماما، وارتقت «صابرين»، وبين يديها رضيعها، وبصحبتهما «خليل»، بأجسادهم إلى أعلى، كأن أجسادهم قد نبت لها أجنحة ساعدتهم على التحليق، ارتقت أجسادهم حتى غابت عن أبصار كل من في الغرفة، ليبقى جسد «جمال» وبجواره «عفاف» وبجانبهما «أمين» وأمامهم «راضي»، الذي لم تتركه أصفاده ينعم ببعض الحرية.

نظرت إليهم «نور» بتقزز، ونظرت إلى الأرض، التي انفرجت في أحد زواياها فجوة واسعة، بيديها سحبت «نور» عنق «راضي» ليرى ما يسكن هذه الفجوة، وأعادته إلى موضعه لتسحب أجساد «عفاف» وأمين»وجمال» وتلقي بهم واحدًا تلو الآخَر في الفجوة الممتلئة بجمرات، لم

يوجد لها مثيل سوى في جهنم.

على حافة الفجوة وقف «راضي» الذي تجدَّد بناء جسده من جديد، كمَن لم يطَلْه أذًى، ينظر إلى أجساد ذريته، بعينيه رأى جلودهم تسيل، وعظامهم تتفحَّم، ومن أعلى رفرفت أجساد «خليل» و»صابرة» والرضيع؛ يتابعون ما يحدث في أسًى قبل أن يزداد بكاء «نور».

سكن الجسد مستشعِرا اقتراب النهاية، تقدمت «نور»، التي اختفى سواد عينيها من الدمع، ودفعت بجسد «راضي» في الجحيم بصحبة أولاده.

تدحرج جسده ليتقلَّب على الجمرات، التي أذابت ما تبقَّى من لحمه بشهية مفرطة، ليصرخ بما تبقى له من قوة، اشتهى في هذه اللحظة أن يفقد الشعور بكل شيء، فأبت الرحمة أن تشمله، كلما ذاب جلده واكتوى لحمه، تبدَّلت من تلقاء نفسها، وكأنه العذاب اللامنتهي، تجدد صراخه وتعاظم ليصم الآذان، تعاظم وتعاظم وتعاظم كأنه يريد إيقاظ الكون بأكمله و .....

****

ضجيج متواصل... كقطار هادر يدهس القضبان بلا رحمة، آلام متفرِّقة اجتمعت في جسده، وانهالت بطعناتها عليه كأنه جندي وحيد يلاحقه جيش كامل، مقيد الجسد لكن الروح لاهثة، كمَن يعدو ومن خلفه عشرات الحيوانات

المفترسة التي لو طالته ستفتك به!

صراخ... صراخ.... صراخ مُشبَّع بالذعر، هو الآن في قاع الجحيم.. صراخ مختلط بالدموع.. لا يدري في هذه اللحظة، هل هي دموع ندم أم حسرة؟ هل هو ميت بالفعل وهذا هو الحساب أم أن هذا العذاب ما هو إلا مقدمات لحساب أكبر؟...

ارتجفت ذرات جسده ذعرا، وهي تشهد عذابها الأخير.. صراخ لا ينقطع كأنه أراد أن يودِّع الدنيا بما جاء عليها به.. صراخ.. بكاء.. كان بكاؤه عندما انزلق من رحم أمه فطرى، ككل مولود يبكى لأنه لا يعرف الكلام، وبكاؤه في هذه اللحظة هو الخيار الوحيد بعدما فقد الكلام جدواه ومعناه!

أصوات متداخلة لا يدري كنهها، تقافزت بعشوائية من حوله، برودة شديدة كأن الجمرات اللاهبة قد تحوَّلت إلى كتل ثلجية نقرت عظامه وجمَّدت أعصابه، قيود خانقة كبَّلته، فشرع في تحريك أطرافه بعشوائية، وفوق عينيه غشاء ضبابي يزول تدريجيا.....

أبصر.. قد عاد إليه بصره مجددا، وها هو جسده لازال سليما، لم تحرقه النار ولم تفتِّتْه الثعابين، مسطَّح على سرير حديدي، وبجانبه عشرات المحاقن، ومن خلفه أجهزة تقيَّأت أسلاك لا تنتهي، تُطلق صفيرا قابضا للنَّفْس، وفي مقدمتها شاشات صغيرة مضيئة يجري عليها أرقام

وإشارات تفيد بأنه لازال على قيد الحياة.

جاهد عقله ليحاول استيعاب الأمر، فهاجمته مشاهد متداخلة.. الثعابين تنهش جسد ولده «أمين» و«خليل»، الذي ألقى به «جمال» فسقط وتهشمت رأسه، «جمال» ولده الأكبر، الذي أصابه الجنون وتخلَّص من حياته.. آلام متفرقة توطَّنت في جسده، فعاود الصراخ من جديد، ليتجمع من حوله فريق الأطباء والتمريض..

- حمد لله على سلامتك يا حاج راضي.

أثقال من حديد تراكمت على لسانه، مرارة توطَّنت في حلْقه، وقيود عفية كبَّلت أطرافه، ابتسم له الطبيب، وطمأنه وهو يخبر زميله بأن الحالة مستقرة، وقد استفاق «راضي» من الغيبوبة، التي امتدت سبعة أيام، بعد تعرُّضه لحادث سيارة توفِّي على إثرها السائق، ونجا هو!

- العيال.. عايز العيال.

نطق بها «راضي» بصوت متحشرج، فهرول الممرِّض يخبرها أنه قد استرد وعيه؛ طالبا منها حلاوة شفائه، فأشاحت بيدها في وجهه ودخلت وفى ذيلها أطفالها الثلاثة.

دخلت الغرفة لترى زوجها الذي غاب أسبوعا كاملا في دنيا لا يعلمها إلا الله، بين طيات الموت كان، وها هو الآن قد عاد إلى زمرة الأحياء، وقفت وعلى وجهها ارتسمت علامات الضيق والتأفف من رائحة التعقيم، نظرت لوجه

«راضي»، الذي شحب وسالت سوائل أنفه، فأظهرت تقززا واضحًا منها، أشار لأطفاله أن يقتربوا، تقدَّم «جمال» ذو السبع سنوات يرتدي بنطالا أسود اللون وسترة حمراء كالدم، ومن خلفه «خليل» ذو الست سنوات، منحني الظهر كأنه يحمل هموم الدنيا، يرتدي بنطالا بنيًّا ومثله قميص بنفس اللون، وأخيرا صغيره «أمين» ذو الثلاث سنوات، ينظر له نظرات خبيثة.. ابتسم لهم، فوقف «جمال» متجهّم الوجه، لا تشي ملامحه بأي شيء، بينما اقترب منه خليل وقبَّل كفَّه، توقَّف «راضي» عند نظرات صغيره «أمين»، لا يدرى هل يعي ما سيحدث مستقبلا.. هل خلف هذه النظرات ما يخفيه هذا الطفل.

تقدمت «هانم» وسحبت أطفالها بحِدة متعلِّلة بخوفها من إصابتهم بعدوى من المكان، فاستوقفها «راضي» بإشارة واهنة فوقفت، أشار إلى بطنها المنتفخة من أثر الحمل الرابع، ونطق مبتسما:

- نور... بنتي نور.

استنكرت قوله، وهمت بالخروج، فاستوقفها ثانية، ونطق بصوت مرتعش:

- إنتِ طالق يا هانم.

تمت

شكر خاص جدا إلى :

إخوتي (نجاة وأحمد)، كلمات الشكر لا تكفي.. دمتم سندًا صغيرتي وسكر قلبي (سيلا) معشوقة خالو.

* *

لأصدقائي على ما قدموه لي من دعم أثناء كتابة ومراجعة العمل.. لولاكم لما اكتمل بيت طاهر..

أهل الإبداع:

د. هاجر نظمي - محمد عصمت - نورا ناجي - رنا جيرة الله السعيد - أمنية صلاح - الشيماء صلاح الدين - محمد عبد الفتاح - منال مكرم.

دينامو دار تويا: شريف الليثي.

الأصدقاء الأعزاء:

نورهان عزت - إيمان وصفي - ابتهال لاشين - محمد سعد - إيمان عبد الله - داليا فهمي - آية غلاب - رودينا محفوظ - رضوى أبو زيد - عبير محمد.

شكرا من القلب.

مصطفى حنيجل